حضرموت الثقافية

مركز حضرموت للدراسات التاريخيه والتوثيق والنشر
Hadhramaut Centre for Historical Studies Documentation and Publication.

Hadhramaut AL-Thaqafiah - September - 2022 ربيع الأول ١٤٤٤هـ

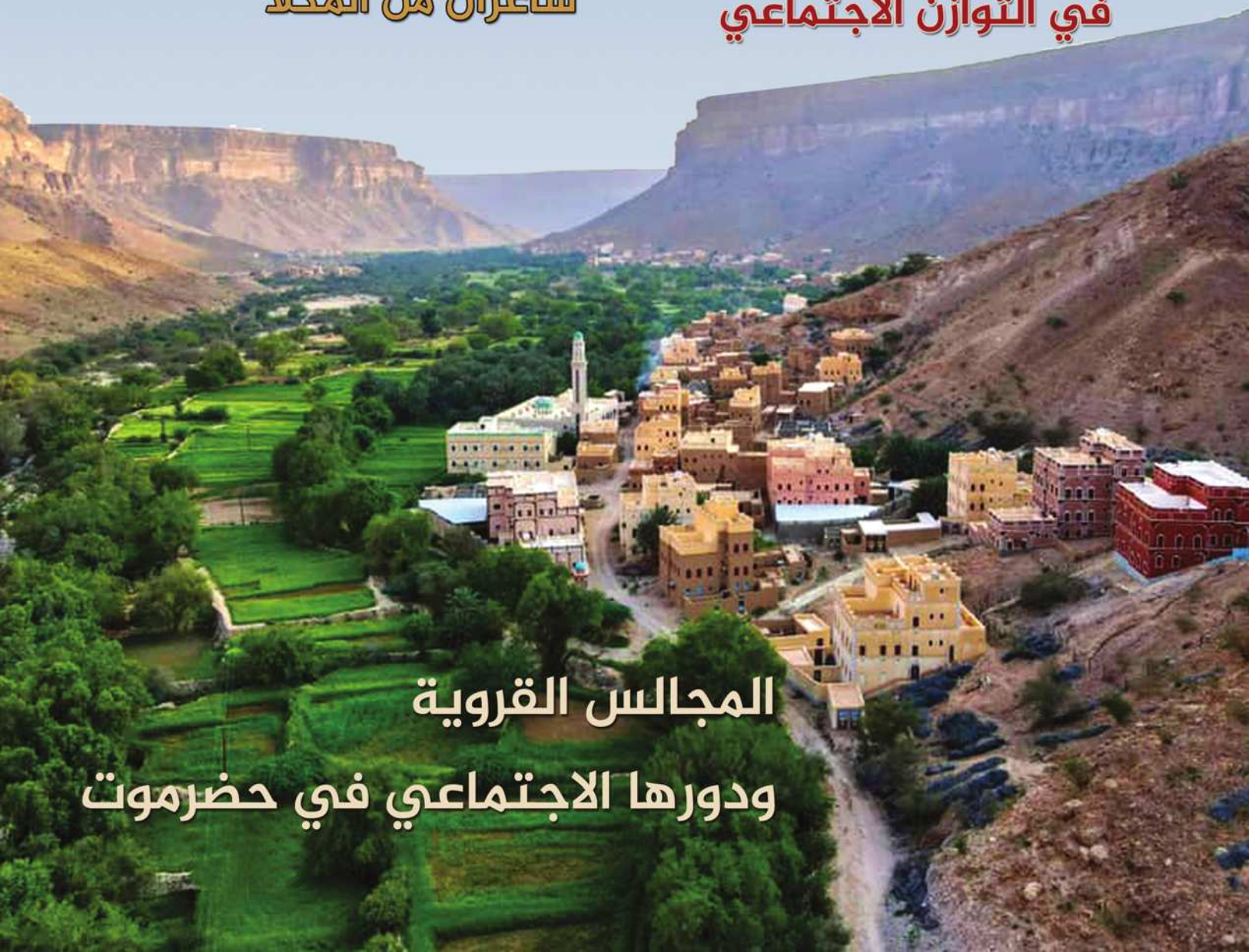
مجلة فصلية - السنة السادسة - العدد (24 - 25)

ملف خاص عن كتاب الأستاذ سالم مفلح

(قضايا تاريخية من حضرموت، من التاريخ السري للاستعمار البريطاني، التزوير واستلاب الهوية)

أثر جمعية الحق في التوازن الاجتماعي

سعيد دحي و طاهر عاطف.. شاعران من المكلا



المجالس القروية ودورها الاجتماعي في حضرموت

من أعلام حضرموت



الأستاذ المؤرخ والباحث

عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي

(1936– 2013م)

حضرموت الثقافية

مجلة فصلية

السنة السادسة العدد (24 - 25)

ابريل - سبتمبر 2022م

تصدر عن مركز حضرموت

للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

رئيس مجلس الإدارة

الأستاذ محمد سالم بن علي جابر

المشرف العام

أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

رئيس التحرير

د. عبدالقادر علي باعيسى

سكرتير التحرير

أنور سالم باكركر

السكرتير الفني

حسن أحمد بلجعد

التدقيق اللغوي

د. جمال رمضان حديجان

الهيئة الاستشارية

أ.د. عبدالله حسين البار

أ. د. عبدالله صالح بابعير

أ. د. ناجي جعفر الكثيري

أ. د. مسعود سعيد عمشوش

أ.د. خالد يسلم بلخشر

د. حسن صالح الغلام العمودي

د. طه حسين الحضرمي

د. أحمد سعيد عبيدون

د. صادق عمر مكنون

التنفيذ الطباعي

مطابع وحدين الحديثة للأوفست - المكلا

- المواضيع المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

- ترتيب المواد جاء وفق ضرورات فنّية إخراجية.

- المجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تتسلمها للنشر، سواء نُشرت أم لم تُنشر. ولا تلتزم بنشر المقالات المرسلة إليها بخط اليد.

مراسلات المجلة

hc.magazine16@gmail.com

Baaesa-١@hotmail.com

موقعنا على الشبكة الإلكترونية

www.hadramout.center

العنوان: المكلا - حي الشهيد - (معهد باشريف سابقًا) - ت. ٣٥٠١٢٥

محتويات العدد

حديث البداية

- معرض الرياض الدولي للكتاب٢٠٢٢م ..... رئيس التحرير 4

أضواء

- مناصب عينات ودورهم في إصلاح ذات البَيْن في يافع في ضوء وثائق تاريخية تُنشر لأول مرة (بني بكر أنموذجًا)

أ.د. علي صالح الخلاقي..... 14

- حضارم أبولو وأثر مدرسة أبولو في شعرهم..... عمر عوض خريص.... 23

ملف خاص عن كتاب الأستاذ سالم مفلح (قضايا تاريخية من حضرموت، من التاريخ السري للاستعمار البريطاني، التزوير واستلاب الهوية)

- ملاحظات على كتاب (قضايا تاريخية من حضرموت من التاريخ السري للاستعمار البريطاني التزوير واستلاب الهوية)..... أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي....34
- تفنيد ادعاء مفلح بتزوير مصادر تاريخ حضرموت "تاريخ شنبل" انموذجا.....أ.د. محمد يسلم عبدالنور....42
- مُساءلة الأنساق البارزة في لغة النقد الداخلي للرؤية النقديّة المفلحيّة في كتاب (التزوير واستلاب الهويّة) لسالم فرج مُفلِح نقد (تاريخ شنبل) أنموذجًا ..... د. زهير برك الهويمل.... 48
- تأثير الوجود العثماني في تقويض البنية الاجتماعية في المجتمع الحضرمي - حسب مشروع الرؤية - للباحث سالم مفلح..... سالم القاضي باوزير....67
- الملف السرّي للاستعمار من خلال كتاب مفلح..... عوض سالم بن حمدين.... 77

دراسات

- فن الرسائل في حضرموت في القرن ١٣هـ.. مكاتبات الحبيب حسن بن صالح البحر أنموذجا... أ.د. مسعود عمشوش...82
- أثر جمعية الحق في التوازن الاجتماعي ..... أ.د. محمد عبدالقادر محمد العيدروس..... 92
- المجالس القروية ودورها الاجتماعي في حضرموت في القرن العشرين الميلادي.... صالح مبارك عصبان...103
- الأسماك والأحياء البحرية في بحر العرب.. ساحل حضرموت (أنموذجًا) ..... أ. عمر خميس بامتيرف... 110

نقد

- سعيد دحي و طاهر عاطف.. شاعران من المكلا ..... أ.د. عبدالله حسين البار.. 115

ترجمة

- أرضٌ بلا ظِلال ..... ترجمة: د. خالد عوض بن مخاشن....125

شخصيات

- الدكتور سالم محمد سالم باموْمن.. الرجُل المثال ..... عمر عبدالله بامطرف.. 129
- من أبرز أعلام مدرسة مكارم الأخلاق بمدينة الشحر ..... عادل حاج باعكيم... 143

كتابات

- الحب ذلك المغضوب عليه..... د. سعيد الجريري...150
- ألحان دان الحفة والتجربة المحضارية..... د. عبدالباسط سعيد الغرابي....152
- باكثير... ولحظة تأمل ..... أكرم أحمد باشكيل.... 155

إبداع

- انطفاء (سرد) ..... صابر عبدالله بارشيد.. 156
- الشعر (قصيدة) ..... د . أبوبكر محسن الحامد... 158
- تفاحة (قصيدة) ..... أ.د. عمر علوي بن شهاب.. 159
- شوق (قصيدة) ..... سالم بن زين باحميد.... 160

توقيع قلم

- "قتِل تحت حصن"..... أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي... 161

صورة الغلاف: تصوير/ محمد باواكد

العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

معرض الرياض الدولي للكتاب 2022م



د. عبدالقادر علي باعيسى
رئيس التحرير

عندما يقام معرض للكتاب في القاهرة أو الرياض أو الشارقة أو في غيرها من البلدان وتستمر دورته السنوية دون انقطاع يتحول إلى تجربة ثقافية مرتبطة بمكان معين وزمان معين لها خصوصيتها وعوامل تفعيلها المتمثلة -فضلاً عن الإعداد الجيد والحديث للمعرض- في إقامة الندوات، وتنشيط الحوارات، وإجراء اللقاءات، واستضافة الشخصيات المتميزة أدبيًا وثقافيًا، وازدياد عدد الزوار من الجنسين ومن أعمار مختلفة.

وكل واحدة من مجريات هذه التجربة الثقافية تشير إلى انتقال أرقى في العام القادم يرصد اتجاهاته القائمون على المعرض، سواء من حيث توسيع مساحته المكانية، وازدياد دور العرض فيه، وتنوعها، ونوعيتها، والارتقاء بمستوى النشاطات الثقافية والحوارية فيه، وذلك ما لمسناه في معرض الرياض الدولي للكتاب لهذا العام ٢٠٢٢م الذي أشار الزملاء إلى اختلافه النوعي عن المعارض السابقة.

العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

وقد أتيحت لي فرصة زيارة المعرض بمعية الأستاذ محمد سالم بن علي جابر والأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي، وصادف في الأيام الأولى التي سبقت افتتاحه أن حضرنا ندوة عن النشر الالكتروني والصوتي للكتاب أسهم فيها ناشرون وخبراء من بلدان عربية وأجنبية رأينا من خلالها أن بعض البلدان الأجنبية والعربية قطعت شوطًا في هذا المجال تماشيًا مع تطلعاتها الثقافية والحضارية المعاصرة، فضلاً عن التسويقية، إلى درجة تشعر معها بالمفارقة التاريخية بين ما يجري في بلادنا وما يجري في بعض البلدان العربية المجاورة من غير أن نذهب بعيدا إلى بلدان العالم الأكثر تطوراً.

وبهذا كان حضورنا يقدم دليلاً متواضعا إن لم نقل معدومًا عن آليات نشر الكتاب الالكتروني والصوتي، وفاعلية تسويقه، وتنميط نماذج قرائه، ورسم آفاقه المستقبلية، وإن كنا حاضرين من خلال إصدارات دار الوفاق ومركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر ورقيًا طبعًا من غير أن يعدمنا هذا النظر إلى الإرهاصات المستقبلية لصناعة الكتاب ونشره بالطرائق الحديثة، فقد عرفنا من بعض ندوات المعرض ما يتوازى مع ما يمكن معرفته من مضامين بعض الكتب المعروضة فيه، ذلك لأننا كنا حريصين على تفهم هذه التجارب الجديدة التي يتحدث عنها الآخرون أمرًا واقعًا ويعملون على تطويرها، فالكتاب لا يجدد نفسه بمضامينه حسب، بل بكيفية التعامل التقني الجديد معه، وتقديمه بشكل مختلف تماشيًا مع التطور الالكتروني الحادث الذي يأخذ حيزًا كبيراً من اهتمام التنظيرات الثقافية والتسويقية المعاصرة مما لم يكن يلتفت إليه من قبل.

مركز حضرموت يوقع اتفاقيتي تعاون مع مركز العز بن عبدالسلام الثقافي بالسودان





إعلام المركز:

شهدت قاعة فندق فوياج بمدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية عقد اتفاقيتي تعاون مشترك بين مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر - ومقره (حضرموت - المكلا)، ومركز العز بن عبدالسلام الثقافي - ومقره (السودان الخرطوم).

تهدف الاتفاقية الأولى (ومدتها ٤ سنوات قابلة للتجديد) إلى العمل المشترك بين المركزين على تشجيع العمل البحثي وتطويره وتسهيل إجراء الأبحاث والدراسات والاستشارات المشتركة بين الطرفين، والاستفادة من خبرات كوادر الطرفين العلمية من خلال تبادل الزيارات العلمية والثقافية المشتركة والإسهام في الأنشطة التي يتبناها الطرفان معًا أو أحدهما بصفة منفردة، والمشاركة الفاعلة في المحاضرات، وحلقات النقاش، والندوات، والمؤتمرات والأفلام الوثائقية التي يتبناها الطرفان معًا، أو أحدهما بصفة مستقلة، وتسهيل الاستفادة من منشآت البنية التحتية للطرفين من أجل إنجاح الأنشطة العلمية والثقافية التي يتبناها الطرفان معًا، أو أحد الطرفين بصفة مستقلة، وتبادل المطبوعات من الكتب، والدوريات، والنشرات العلمية، والنشر في المجلات العلمية والدوريات التي تصدر من الطرفين.

بينما ركزت الاتفاقية الثانية (ومدتها عام واحد قابل للتجديد عند الحاجة) على البحث في الأرشيف السوداني الذي يزخر بالكثير من الوثائق التاريخية التي توثق تاريخ السودان والسودانيين وكل من هاجر إليه واتخذه وطنًا، وحيث إن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر يُعنى بجمع الوثائق التي توثق للهجرات الحضرمية في جميع أصقاع العالم ومنها السودان، فقد اتفق الطرفان على أن يتولى مركز العز بن عبدالسلام الثقافي بالبحث في الأرشيف السوداني عن الوثائق التي تؤرخ للوجود الحضرمي في بلاد السودان عبر التاريخ وجمع صور منها وأرشفتها لصالح مركز حضرموت، فكما هو معلوم أن الحضارمة هاجروا إلى أصقاع كثيرة من العالم، ومن البلدان التي وصلوا إليها (السودان الشقيق) الذي فتح بروح الأخوة الإسلامية ذراعيه لاستقبال أفواج المهاجرين الحضارم عبر مسافات تاريخية متنوعة، وقد نتج عن هذه الهجرة تلاقح ثقافي ومصاهرة بين الشعبين وصار الحضارم مكوناً أصيلاً في نسيج المجتمع السوداني.

وقع الاتفاقيتين عن مركز حضرموت الأستاذ محمد بن سالم بن علي جابر رئيس مجلس إدارة المركز.

وعن مركز العز بن عبدالسلام البروفيسور عز الدين عمر أحمد موسى رئيس المركز ومؤسسه.

وقد حضر توقيع الاتفاقيتين المهندس محمد أحمد باجنيد الذي تربطه صلة وثيقة بالمركزين والقائمين عليهما.

قيادة المركز في زيارة للسفير بامخرمة



إعلام المركز:

قام الأستاذ محمد سالم بن علي جابر رئيس مجلس إدارة مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر يرافقه أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز و د. عبدالقادر علي باعيسى مدير إدارة الإعلام والثقافة بزيارة للأستاذ ضياء الدين بامخرمة سفير جمهورية جيبوتي لدى المملكة العربية السعودية حيث استقبلهم سعادته في مكتبه بالسفارة معرباً عن سروره بهذه الزيارة وبالإنجازات الثقافية المتعددة لمركز حضرموت للدراسات التاريخية، ومشيراً إلى حضوره مؤتمر (فعالية دور الحضارم في إندونيسيا) الذي عقده المركز بمدينة جاكرتا في العام ٢٠١٧م وأنه كان حدثا نوعيا ثقافيا مميزا.

وعليه فقد تبادل الطرفان إمكانية عقد مؤتمر مماثل عن الحضارمة في شرق إفريقيا. وفي آخر اللقاء قدم أ. د. عبدالله الجعيدي عددا من إصدارات المركز هدية لسعادة السفير.

د. طه حسين هديل يستقبل وفد مركز حضرموت



إعلام المركز:

استقبل أ. د. طه حسين هديل الملحق الثقافي بمكتبه بسفارة بلادنا لدى المملكة العربية السعوية الأستاذ محمد سالم بن علي جابر رئيس مجلس إدارة مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر و أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي مدير المركز و د. عبدالقادر علي باعيسى مدير إدارة الإعلام والثقافة معربا عن سعادته بهذه الزيارة لاسيما أنه كان وما زال من أبرز الأساتذة المسهمين في نشاطات المركز العلمية في المؤتمرات والندوات وحلقات النقاش، وجرى خلال اللقاء اطلاعه على أبرز النشاطات التي قام بها المركز مؤخرا، ومن جهته ثمن سعادة أ. د. هديل ما يقوم به المركز من نشاط علمي يعد نفسه شاهدا عليه من خلال إسهاماته في نشاطات المركز العلمية.

في ضيافة الشيخ باجخيف بجدة



إعلام المركز:

استضاف الشيخ عمر سالم باجخيف مدير دار المنهاج للنشر والتوزيع، ونائب رئيس جمعية الناشرين السعوديين بمنزله العامر بجدة أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، والأستاذ عبدالرحمن علي بلفقيه مدير مركز تريم للدراسات والنشر، و د. عبدالقادر علي باعيسى مدير إدارة الإعلام والثقافة بالمركز، وجرى خلال اللقاء تبادل أوجه التعاون بين هذه الأطراف الثلاثة لما فيه خدمة الثقافة والتاريخ والتراث الحضرمي، والثقافة عامة، وقد أعرب الشيخ باجخيف عن سعادته بهذه الزيارة التي أتاحت له التعرف على بعض الشخصيات الحضرمية في الجانب الثقافي عموما، وجانب الاهتمام بالكتاب ونشره خصوصا، فيما أعرب الضيوف عن سعادتهم بهذا اللقاء شاكرين للشيخ باجخيف حسن استقباله وكرم ضيافته.

8
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

حلقة نقاش عن كتاب (التزوير واستلاب الهوية)



إعلام المركز:

نفذ مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر حلقة نقاش عن كتاب (قضايا تاريخية من حضرموت، من التاريخ السري للاستعمار البريطاني، التزوير واستلاب الهوية) للأستاذ سالم فرج مفلح (رحمه الله) أسهم فيها أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي، أ. د. محمد يسلم عبدالنور، د. زهير بـرك الهويمل، أ. سالم القاضي باوزير، أ. عوض سالم حمدين،











وقد أثرت المداخلات سواء التي قيلت عقب الحلقة في القاعة مباشرة أو عبر الإنترنت (الزوم واليوتيوب) ما جاء في الأوراق المقدمة من وجهات نظر حول الكتاب.



وقد استعرضت الأوراق المقدمة للحلقة وجهات نظر مختلفة أشادت بالكتاب من جهة وفندت ما فيه من آراء كأي موضوع علمي قابل للنقاش والمداخلة والإثراء.

المحافظ بن ماضي يوجه بتظاهرة علمية وثقافية وفنية سنوية بمدينة الشحر عرفانًا بتاريخها وإرثها الحضاري



أكد محافظ حضرموت الأستاذ مبخوت مبارك بن ماضي، أن مدينة الشحر عظيمة بإرثها وشواهدها التاريخية، وأنها تستحق فعالية وتظاهرة علمية وثقافية تُعيد للشحر شيئًا من تاريخها بوصفها عاصمة الفن والثقافة.

ووجه المحافظ، بدراسة التأسيس لفعالية ثقافية وعلمية وفنية سنوية بمدينة الشحر، تُعنى بالتذكير بتاريخ الشحر وحضرموت، وتنطلق من مناسبة الاحتفاء بالذكرى الـ ٥٠٠ لملحمة الغزو البرتغالي للمدينة، الذي يوافق الـ٢٨ من فبراير ٢٠٢٣م.

وبحث المحافظ بن ماضي، خلال لقائه اليوم بالمكلا، قيادتي مركز حضرموت للدراسات التاريخية، ومؤسسة حضرموت للثقافة، التصورات لإقامة تظاهرة علمية وثقافية وفنية بمدينة الشحر العام القادم، تُوسّس لمهرجان ثقافي وعلمي سنوي، يشمل أبحاث ودراسات وفعاليات علمية وثقافية وفنية وتراثية، تعكس تاريخ الشحر، وحضرموت بشكل عام.

واستمع محافظ حضرموت، من رئيس مركز حضرموت للدراسات التاريخية الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي، والمدير التنفيذي لمؤسسة حضرموت للثقافة شروق الرمادي، الى نشاطات المركز والمؤسسة في مجالات الثقافة والتاريخ والفن والمسرح، والتنسيق المتبادل لإحياء الحركة الثقافية.

وتسلّم المحافظ، خلال اللقاء نسخة من الإصدار الجديد للباحث البروفيسور عبدالله الجعيدي، بعنوان "تأملات منتصف الطريق"، مشيداً بالكتاب الذي يحوي نماذج من مقالات مختلفة، ومعتبراً إياه "تأملات لمنتصف العُمر".

الاحتفاء بالذكرى الـ ٥٠٠ للمقاومة الشعبية للغزو البرتغالي على الشحر

إعلام المركز:



عُقد اجتماع مشترك بين مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر ومؤسسة حضرموت للثقافة ضم أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز والأستاذة شروق صالح الرمادي المدير التنفيذي لمركز حضرموت للثقافة و د.عبدالقادر علي باعيسى مستشار مؤسسة حضرموت للثقافة ومدير إدارة الإعلام والثقافة بالمركز والدكتورة سارة عثمان العجيلي منسق الشراكات والتعاون الدولي في المؤسسة والأستاذ عبدالرحيم ماهر باوزير سكرتير المدير التنفيذي في المؤسسة، تم فيه مناقشة التصورات الأولية لتنفيذ الفعالية الكبيرة المتعلقة بالذكرى الـ ٥٠٠ للمقاومة الشعبية في مدينة الشحر للغزو البرتغالي عليها في ٢٨/ فبراير/ ١٥٢٣م وكيفية تفعيل هذا الحدث الكبير تاريخيًا وعلميًا وشعبيًا وتراثيًا.

مؤسسة آل كثير للتنمية في زيارة لمركز حضرموت



إعلام المركز:

تزمع مؤسسة آل كثير للتنمية إنشاء موسوعة خاصة بآل كثير ومن هذا المنطلق قام د. سعيد جعفر بن طالب الكثيري رئيس مؤسسة آل كثير للتنمية رئيس اللجنة التنفيذية للموسوعة الكثيرية والأستاذ حسن عبدالله البرقي الكثيري سكرتير مجلس قبيلة آل كثير نائب رئيس اللجنة التنفيذية للموسوعة الكثيرية والقاضي محمد علي بن طالب الكثيري عضو مجلس قبيلة آل كثير والأستاذ عبدالله فضل بن سيف الكثيري عضو اللجنة التنفيذية للموسوعة الكثيرية بزيارة إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر حيث اجتمعوا بـ أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز والدكتور عبدالقادر علي باعيسى مدير إدارة الإعلام والثقافة واستعرضوا الخطوط العامة لإنشاء الموسوعة الكثيرية طالبين من المركز تنويرهم في هذا الشأن بوصفه يتبنى مشروع الموسوعة الحضرمية الشاملة.

وقد جرى خلال اللقاء عرض بعض الأفكار العامة حول هذا الموضوع على أن يتم تنسيق لقاءات مستقبلية لما فيه خدمة حضرموت تراثاً وثقافةً وإنساناً، وفي هذا السياق تم تبادل الإصدارات من المجلات الصادرة من الطرفين.

وفي آخر اللقاء طاف الوفد الضيف بمكاتب المركز مبدين إعجابهم بالخطوات الجيدة التي قطعها في مجال رسالته.

ياسر بن هلابي في زيارة للمركز

إعلام المركز:

قام الأخ ياسر خالد بن هلابي بزيارة ودية إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، وقد قدم له أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز شرحاً وافياً عن نشاطات المركز المتعددة، فيما أعرب الأخ بن هلابي عن سعادته بهذه الزيارة وتعرفه على المركز عن كثب من خلال اطلاعه على مكاتب الإدارات المختلفة.



11
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

رئيس مركز حضرموت يزور مؤسسة الموانئ بالمكلا



إعلام المركز:

قام أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر يرافقه د. عبدالقادر علي باعيسى مدير إدارة الإعلام والثقافة بالمركز بزيارة إلى مؤسسة موانئ البحر العربي بمحافظة حضرموت، وكان في استقبالهم الأستاذ سالم علي باسمير مدير المؤسسة، وجرى خلال اللقاء مناقشة إجراءات التواصل بين الجهتين لما فيه خدمة الثقافة ودعمها في حضرموت ليؤدي المركز من خلال ذلك دوره المنوط به، وقد أعرب الأستاذ باسمير عن سعادته بهذه الزيارة راجيا للمركز كل نجاح وتوفيق داعيا الجهات المعنية إلى دعم المركز وتفعيل نشاطاته.

رئيس مركز حضرموت يلتقي القائم عن شيخ قبيلة بني تميم وطائلة بني ظنة



إعلام المركز:

التقى أ. د. عبدالله سعيد بن جسار الجعيدي رئيس مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر في إطار زيارته العلمية والعملية لوادي حضرموت التقى بالمقدم أنور منصور بن يماني التميمي القائم عن شيخ قبيلة بني تميم وطائلة بني ظنة وذلك بغرض بحث التعاون المشترك بين الطرفين لإقامة ندوة علمية عن سلطنة آل يماني في تريم.

حضر اللقاء الشيخ العبد بن سعيد التميمي، والمقدم محسن صالح بن يماني، والمقدم نجم سالم بن يماني، والمهندس صالح سالم بن يماني، ومن جانب مركز حضرموت للدراسات التاريخية حضر أ. د. محمد يسلم عبدالنور رئيس موسوعة الأعلام بالموسوعة الحضرمية.



12
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

رئيس المركز يستقبل إدارة مركز اللغات بجامعة حضرموت

إعلام المركز:

قامت الأستاذة منى العماري والأستاذة نبيلة باحفي من مركز اللغات بجامعة حضرموت بزيارة إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، بهدف الاستفادة من معلومات المركز في علاقة حضرموت بثقافة البلدان المختلفة التي هاجر إليها الحضارم في الهند وجنوبي شرق آسيا وغيرها، وقد أطلعهم أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي رئيس المركز على ما يمكن للمركز أن يسهم



به في هذا المجال، راجيا لهم التوفيق والنجاح في إدارة المركز.

حضر اللقاء د. عبدالقادر باعيسى مدير دائرة الإعلام والثقافة بالمركز.

الأستاذ الخطيب في زيارة لمركز حضرموت

إعلام المركز:

قام الأستاذ أحمد سعد الخطيب المدير التنفيذي لمؤسسة المدينة للإنتاج والتوزيع الإعلامي بمدينة تريم، يرافقه الأستاذ مبارك أحمد باخريصة عضو إدارة مركز الرناد للتراث والآثار والعمارة بتريم بزيارة إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، استقبلهم خلالها أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي رئيس المركز و د. عبدالقادر علي باعيسى مدير إدارة الإعلام والثقافة بالمركز، وجرى خلال اللقاء الحديث عن إمكانية استفادة المركز من خبرة



النشاط الإعلامي لمؤسسة المدينة للإنتاج الفني، بهدف تفعيل النشاط الإعلامي بالمركز، وقد أبدى الأستاذ الخطيب استعداده لذلك، وتسهيل بعض الأمور في سبيل إنجاح مهام المركز في المجال الإعلامي.

حضر اللقاء الأستاذ عبدالقادر سعيد بصعر الخبير الإعلامي المعروف.

الأستاذ برعية في زيارة للمركز

إعلام المركز:

قام الأستاذ عبدالله برعية مدير شركة إسناد للإنتاج الإعلامي والتسويق بزيارة إلى مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بدعوة من إدارة المركز، وتم في اللقاء مناقشة الاستفادة من خبرة شركة إسناد في رفد المركز



بالكادر الإعلامي المؤهل والنشط بما يعمل على إبراز دور المركز ونشاطه الحثيث في المجال التاريخي والثقافي.

13
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

إصدارات جديدة للمركز



إعلام المركز:

تم تزويد جناح مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر في مكتبة دار حضرموت للدراسات والنشر بعدد من عنوانات الكتب الجديدة من إصدارات المركز وهي: تأملات منتصف الطريق لـ أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي. المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام لـ أنور حسن السكوتي. السلطان غالب بن عوض القعيطي شهادة للتاريخ لـ أ. صالح حسين الفردي. كتاب السلطنة القعيطية الإدارة التقليدية والرسمية والثورة لـ أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي. كتاب الصراع الكسادي البريكي لـ أ. د. علي صالح الخلاقي. كتاب الطب الشعبي في حضرموت لـ أ. صبري هادي عفيف، كتاب الدولة الكثيرية في حضرموت لـ أ. يسلم صالح بن دهلوس. كتاب فتاوى قضائية لـ أ. محسن علوي باعلوي. كتاب حضرموت قراءات في النصوص لـ أ. د. عبدالله سعيد الجعيدي.

ويأتي هذا في إطار التعاون المشترك بين الطرفين لما فيه خدمة الثقافة والتاريخ الحضرمي.

مشاركة مركز حضرموت في فعاليات أسبوع البلدة بمتحف المكلا

إعلام المركز:

شارك مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر في فعاليات أسبوع البلدة بمتحف المكلا من ٢٤-٢٨ يوليو ٢٠٢٢م والذي تنظمه الهيئة العامة للآثار والمتاحف بمناسبة موسم البلدة السنوي بجناح خاص لإصدارات المركز من الكتب وأعداد من مجلة حضرموت الثقافية.



ويأتي هذا إسهامًا من المركز في تنشيط الواقع الثقافي في المحافظة ومد جسور التواصل مع الهيئات ذات الاختصاصات القريبة من مهام المركز.

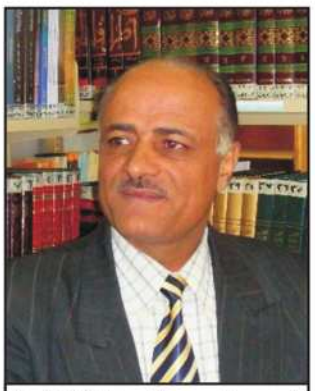
ويقدر عدد العنوانات المشارك بها من الكتب ما ينيف على ٢٠ عنواناً وما ينيف على ٢٠ عدداً من أعداد مجلة حضرموت الثقافية.

14
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

مناصب عينات ودورهم في إصلاح ذات البَيْن في يافع

(١ - ٢)

في ضوء وثائق تاريخية تُنشر لأول مرة (بني بكر أنموذجًا)



أ.د. علي صالح الخلاقي*

توطئة:

يتناول هذا البحث موضوعًا مهماً من تاريخنا المعاصر بالنظر لأهمية ذلك الدور الذي قام به سادة حضرموت، وتأثيرهم الروحي الذي وجد له قبولاً في عموم مناطق يافع وبقية مناطق الجنوب، لا سيما منذ مطلع القرن العاشر الهجري، بعد سقوط الدولة الطاهرية كآخر الدول المستقلة وكذلك انتهاء وجود الأتراك؛ إذْ برز التأثير الروحي لسادة حضرموت جليًا في المنظومة القبلية، التي حلت محل الدويلات المركزية، ونظمت شؤون القبائل وإدارة أمورهم، وقوَّت من مكانتهم ودورهم، وجعلت لهم شأنًا في صياغة التاريخ وصناعته، وهو ما انعكس على مجمل الأحداث اللاحقة، ليس في يافع فحسب، بل في حضرموت، وكذا في وقف المد الزيدي وصدِّه، المتطلِّع للسيطرة على حضرموت ومناطق الجنوب عامة. ومثل هذا التأثير لم يأت من فراغ؛ فهناك عرى وثيقة جامعة بين يافع وحضرموت، تعود بجذورها إلى زمن موغل في القِدَم، ثم توطدت وترسخت على مر التاريخ، وبلغت ذروتها في القرن العاشر الهجري وما تلاه من أحداث.

ولبلدة عينات الحضرمية ومناصبها مكانة روحية خاصة في منطقة يافع، وقد بدأ الاتصال الروحي بين يافع والسادة العلويين آل الشيخ أبي بكر بن سالم منذ عصر الشيخ أبي بكر بن سالم بن عبدالله بن عبدالرحمن السقاف العلوي، المولود سنة ٩١٩هـ، والمتوفَّى سنة ٩٩٢هـ، وكان يحظى وابنه الحسين بمكانة خاصة من التجلَّة والتعظيم، ويعدُّونهما من أولياء الله الصالحين، وقد أرسلا مجموعة من أقاربهما السادة من بني هاشم، وتلامذتهما الفقهاء، وعلى رأسهم الشيخ علي بن أحمد بن هرهرة إلى بلاد يافع بناء على طلب من قبائلها، ليعلِّموا أهلها، ويصلحوا ذات البين عند نشوب النزاعات والفتن القَبَلية، ويتولوا القيام بالأعمال الشرعية، وجمع العشور والنذور والصدقات المخصصة لهما ولذريتهما والأوقاف، التي تصل إلى عينات دون انقطاع كواجب ديني مُلزم(١).

وكان الحسين بن الشيخ أبي بكر قد وصل إلى يافع في طريق عودته من الحرمين الشريفين مرشداً وداعيًا إلى الله سنة ١٠٢٧هـ فأحبَّته قبائل يافع محبةً عظيمةً، واتخذوه مرجعًا للكثير من مشاكلهم، وقد أسس مسجداً في قرية "عنتر"، واشترى من ماله الخاص كثيراً من الأراضي المتنازع عليها، فأوقفها على كثير من أوجه البر وفض الخصومات. وعند رحيله طلب من أهالي يافع أن يجعلوا عليهم الشيخ علي بن أحمد هرهرة سلطانًا عليهم في يافع العليا(٢).

استمر تأثير الشيخ أبي بكر بن سالم وذريته من بعده، مناصب عينات، حتى أننا نجد الاعتقاد ببركتهم وتأثيرهم الروحي ملحوظًا في الذاكرة الجَمْعيَّة وفي الموروث الشعبي وفي الأشعار اليافعية، وظلت عينات حتى عقود قريبة مضت، قِبْلةً يتجه إليها اليافعيون في مناسبات كثيرة، سواء لغرض الزيارة والتبرك أو استجابة لنجدة أو غوث أو لحل مشاكل قائمة، ويرسلون إليها العشير والنذور من الحبوب والبُن والنقود، وتزخر خزائن الوثائق الأسرية اليافعية بالكثير من رسائل مناصب عينات الموجهة إلى سلاطين يافع ومشايخها وأعيانها عن عدد من القضايا والمشكلات، والحض على أداء الفرائض والواجبات الدينية، وعلى إيصال العشور والنذور، التي كانت تخصصها القبائل اليافعية لهم، وتتوعد بالويل والثبور وعواقب الأمور لمن يقصر فيها.

وبنو بكر هي كُبرى التجمعات السكانية في يافع، وتنتمي قبليًا إلى مكتب الضُّبي، أحد مكاتب يافع العشرة. واختيارنا للحديث عن بني بكر أنموذجًا في العلاقة مع مناصب عينات، لم يكن محض صدفة، وإنما لأنها ارتبطت بعلاقات مميزة مع مناصب عينات، ومع الكيانات والإمارات التي نشأت في حضرموت بشكل عام، فضلاً عن تأثيرها الواضح في مجريات الأحداث السياسية والاجتماعية، سواء عبر شيوخها آل دينيش (عُقال بني بكر)، أو عبر قُضاتها آل عزالدين البكري، الذين اشتهروا بلقب (قضاة يافعيين)، وكذا مشاركة رجالاتها وحضورهم القوي في كثير من الأحداث، وانتشار مثاويهم في أكثر من منطقة في حضرموت، وبالتحديد في سيئون ومريمة وسَدْبَة ومنطقة بابكر في ضواحي القطن وفي القطن وغيل باوزير والمكلا والديس الشرقية والشحر وتريم(٣).

وتكشف الوثائق والمراسلات التي يزخر بها أرشيف أسرة قضاة بني بكر آل عزالدين وفقهائهم، وأرشيف مشايخ بني بكر (آل دينيش) كثيراً من جوانب ذلك الحضور الفاعل، والعلاقات التاريخية، والتأثير المتبادل بين يافع وحضرموت، لا سيما التأثير الروحي والسلطة الدينية التي كانت لسادة عينات ومناصبها، وعلى الأخص الصلة المميزة بين عينات وبني بكر، وتأثير الأحداث المهمة وانعكاسها على الطرفين، واستجابة كل منهما لنجدة الآخر عند الضرورة، أو حين تلوح بوادر الخطر على أي منهما، كما حدث - على سبيل المثال - عند نجدة بني بكر لعينات في أثناء فتنة صاحب عينات وابن يماني(٤)، وكذا تجاوب مناصب عينات وتدخلهم في إصلاح ذات البين، وحل الخلافات الداخلية التي نشأت في بني بكر - على سبيل المثال - ومن ذلك خلاف بني بكر مع الفقهاء، ثم الفشل، كما وصفه منصب عينات، الذي حصل في بيت المشيخة (آل دينيش) لاختيار خلف للشيخ المتوفى ناصر بن عوض دينيش، وهو ما سنتعرض له في هذه البحث استناداً إلى الوثائق التاريخية والرسائل الموجهة من مناصب عينات إلى مشايخ بني بكر وفقهائهم وإلى السلطان عمر بن قحطان بن هرهرة عن تلك الخلافات التي نشأت في بني بكر، وبلغ صداها إلى عينات، وسنتعرض لهاتين الحادثتين حسب أقدميتها الزمنية.

ويلزمنا في البدء توجيه الشكر الجزيل للأخ الفاضل الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين الذي أتاح لنا الاستفادة من هذه الوثائق التاريخية النفيسة وغيرها الكثير، التي تكشف جوانب غامضة من تاريخنا الحديث والمعاصر،

وجميع الوثائق المستفاد منها في هذا البحث من أرشيفه باستثناء وثيقة واحدة من أرشيف الشيخ قاسم صالح محمد بن دينيش البكري والشكر موصول له على ذلك.

المبحث الأول
خلاف بني بكر والفقهاء وموقف عينات

الفقيه: لغةً، العالم بأصول الشريعة وأحكامها، وقاضي الشرع من يقضي بين النّاس بحُكم الشرّع الإسلامي. ولفقهاء بني بكر وقضاتها مكانة مهمة ومميزة في المنظومة القبلية ليس فقط في بني بكر، بل في عموم يافع، ولا غرابة في ذلك فهم بيت علم وصلاح وتقوى، ولقبوا بـ(قُضاة يافعيين)، وغالبهم تلقوا علومهم الدينية والشرعية وتخرجوا في مدارس حضرموت الدينية، وارتبطوا بعلاقة وطيدة ومميزة مع مركز الثقل الديني والروحي في عينات بشكل خاص، ومع كل الكيانات السياسية في حضرموت، وكان لهم إلى جانب مشايخ (عقال) بني بكر حضورهم القوي والفاعل في الحياة السياسية والاجتماعية في حضرموت، الذي يعكس مكانتهم المهمة، ودورهم المحوري في كثير من الأحداث على مستوى يافع وحضرموت، ومثّلوا مراجع ثقة في العلوم الشرعية والدينية، يُرجَع إليهم في مثل هذه الأمور وفي كتابة الوثائق بأنواعها، مثل وثائق الملكية (السجول والبصائر)، والعهود بين القبائل، وعقود الأنكحة وغيرها، ولهم دورهم في حل النزاعات؛ لقدرتهم على المزاوجة بين الأعراف القبلية والأمور الشرعية، فضلاً عن دورهم الرئيس في إمامة الناس بالصلاة، ووعظهم في الأعياد وفي الجُمَع. وكانوا بمثابة مستشارين، سواء لمشايخ القرى أو أقسام المكاتب (العقال) أو لشيوخ المكاتب، وكذا السلاطين.

عينات وإقامة فقهاء بني بكر:

تبيّن الوثائق التاريخية المحفوظة بخزائن آل عزالدين البكري علاقتهم الخاصة وارتباطهم بمناصب عينات، ومن عينات يتم بشكل خاص إقامة (نائب الشرع) في يافع من فقهاء آل عزالدين، الذي يعيِّنه ويقيمه صاحب عينات، وهذه الإنابة لم تحدث على مستوى يافع – حسب علمنا – إلا مع قضاة بني بكر وفقهائهم، وهو ما يعني أن فقهاء بني بكر هم نُوَّاب صاحب عينات في بني بكر خاصة ويافع عامة في الأمور الشرعية وفي الخطب وعقود الأنكحة وإمامة المساجد وضمام الصداق وغير ذلك، كما تفصح عن ذلك الوثيقة الآتية الخاصة بإقامة وإنابة الفقهاء أولاد علي بن حيدر عزالدين.

نص الوثيقة رقم (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

أما بعد فقد أقمت وأنَبْت ووليت المحبين الفقهاء أولاد الفقيه علي بن حيدر بن عزالدين حسبما هم عليه في جهة بني بكر في خدمة الشريعة المطهرة وفي الخطب وعقود الأنكحة وإمامة المساجد وضمام(٥) الصداق وكل عادة مرتبة بأيديهم على عوائدهم السابقة لا عليهم مقلوب وهم على الله وعلينا خط أسود بأوجاهنا وما يجبرهم يجبرنا وما غَوَّش(٦) عليهم غوش علينا والنيابة والإقامة للكبير منهم في السن وهو الفقيه أحمد بن علي الذي قده قائم بالجهة ومن بعده الأكبر في السن والأعلم، ولا لغيرهم نيابة ولا إقامة ومن تعرض عليهم أو غوش عليهم في أدنى حال فقد تعرض لسخطنا وهي بوجهه والقدرة تفنيه وخطّنا شاهداً بيدهم يعلم من وقف عليه يعتمده ومن تعداه لومه من نفسه والله خير الشاهدين.

ختم برسم الشيخ أحمد بن الشيخ علي

الشرح والتعليق:

– الوثيقة أعلاه أمر قاطع ونافذ، أشبه بالقرارات أو المراسيم الرسمية في عصرنا، ولها قوة القانون النافذ؛ لأنها صادرة عن المرجعية الدينية والروحية ليافع، فهي تحمل ختم منصب عينات الشيخ أحمد بن عليّ بن أحمد بن عليّ بن سالم



بن أحمد بن الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم، الذي خلف أباه وتولى المنصب بين سنة (١١٤٢ - ١١٧٧ هـ)، ولعلها من أقدم الرسائل التي وصلت إلينا بختمه.

- بعد البسملة والصلاة على النبي جاءت صيغة الأمر مباشرة بقوله: "أقمت وأنبْت ووليت المحبين الفقهاء أولاد الفقيه علي بن حيدر بن عزالدين". وقضى الأمر بتثبيتهم في مكانتهم وحسبما هم عليه في جهة بني بكر في خدمة الشريعة المطهرة وفي الخطب وعقود الأنكحة وإمامة المساجد وضمام الصداق وكل عادة مرتبة بأيديهم على عوائدهم السابقة.

- ما يلفت الانتباه ورود عبارة (لا عليهم مقلوب)، التي تشي ببداية الخلاف أو الانقلاب الناشئ حينها ضد الفقهاء أولاد الفقيه علي بن حيدر بن عزالدين داخل بني بكر، وبلوغ صداه إلى صاحب الأمر في عينات، عبر منظومة التواصل القائمة حينها، من خلال الرُّسل والرسائل التي لا تنقطع بين يافع وعينات.

- بيَّنت هذه الوثيقة المكانة الخاصة للفقهاء لدى صاحب عينات، الذي أغاضه وأغضبه ما حدث ضدهم، فكان تجاوبه السريع بإصدار قراره الواضح والمُلزم والمانع لأي مساس بمكانتهم، واعتبر الانقلاب عليهم تجاوزًا لحدود الله، كما في قوله: "وهم على الله وعلينا خط أسود بأوجاهنا وما يجبرهم يجبرنا وما غوَّش عليهم غوش علينا". ويبدو أن معنى قوله: (وهم خط أسْوَد) تعادل قولنا الآن: (خط أحمر)، أي: لا يُمس ولا يمكن السماح بتجاوزه. أما قوله: (بأوجاهنا) فتعني في العُرف القبلي: عهدٌ غليظٌ بشأنهم من قِبَل صاحب الأمر لا يُنقض مهما كانت التبعات، فضلاً عن إقراره بأن ما يرضيهم (يجبرهم) يرضيه وما يكدر (يغوِّش) عليهم يكدر عليه.

- حدَّد منصب عينات في الأمر طريقة اختيار الفقهاء بأن تكون أوليَّة النيابة والإقامة للكبير منهم في السن، وذكر بالاسم الفقيه أحمد بن علي بن حيدر عزالدين، الذي يعد أكبر إخوته والقائم حينها بنيابة الشرع، ويخلفه من بعده الأكبر في السن والأعلم، ولا لغيرهم نيابة ولا إقامة، وقد ربط الأقدمية بالسّن بشرط لازم، وهو أن يكون الأعلم؛ لأهمية الفقهاء في الأمور الشرعية التي تتطلب التبحر في الفقه وعلوم الدين.

- هدَّد في نهاية الأمر بالويل والثبور وسوء الأمور كل من يعترض عليهم أو يغوِّش عليهم، فإنه يكون بذلك كما قال: "قد تعرض لسخطنا وهي بوجهه والقُدرة تفنيه، وخطّنا شاهداً بيدهم، يعلم من وقف عليه يعتمده، ومن تعداه لومه من نفسه".

عينات تطلب تدخُّل السلطان بن هرهرة:

كان ليافع سلطنتان، هما: السلطنة العفيفية، وحاضرتها "القارة"، وتتبعها خمسة مكاتب، هي: يهر، كلد، السعدي، ذي ناخب، واليزيدي. والسلطنة الهرهرية، وحاضرتها "المحجبة"، وتتبعها خمسة مكاتب، هي: لبعوس، الضُبي، الموسطة، الحضارم، المفلحي. ويقف على رأس كل منهما سلطان، وهو أرفع سلطة في الترتيب

القَبَلي على مستوى السلطنة. والسلطان هو رأس المنظومة القبلية في يافع(٧)، و يمثل الحكَم أو المرجع الأعلى للمكاتب والقبائل المنضوية في إطار السلطنة، ويتصرف وفقًا لمصلحة المجتمع، وبتنسيق وباستشارة مع مشايخ المكاتب والعُقال.

وآل هرهرة هم سلاطين يافع بني مالك، ومؤسس هذه الأسرة السلاطينية في يافع هو العلامة الشيخ علي بن أحمد بن هرهرة، الذي نصَّبه مولى عينات السيد الشيخ أبوبكر بن سالم، قبل أن تدركه الوفاة سنة ٩٩٢ هجرية، مُصلحًا ومرشدًا دينيًّا في يافع، فقام بتعليم أهلها، والقيام بالأعمال الشرعية، وإصلاح ذات البين، وجمع مخصصات عينات من العشور والنذور والصدقات...إلخ.

ومن سلاطين آل هرهرة السطان عمر بن قحطان بن عمر بن صالح بن أحمد بن علي هرهرة (ت ١٢٠٥ هـ)، الذي عاصر أحداث الانقلاب على فقهاء بني بكر، وطلب منه منصب عينات الشيخ أحمد بن عليّ بن أحمد بن عليّ بن سالم بن أحمد بن الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم (تولى بين عامي ١١٤٢ - ١١٧٧ هـ) التدخل لإقامة الفقهاء آل عزالدين على عوائدهم، وإفشال الانقلاب الذي حصل عليهم بإقامة شخص آخر من غيرهم. وفيما يأتي نص رسالة منصب عينات(٨).

نص الوثيقة رقم (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الله تعالى يلحظ ويحفظ ويخص ويحرس ويمن بالعافية والتوفيق على المحب الصادق والوفي ورسوله الملحوظ بعين العناية الشاملة الربانية الجناب العالي المؤيد بالله تعالى الشيخ الأكرم عمر قحطان بن الشيخ عمر بن الشيخ صالح بن الشيخ أحمد بن الشيخ علي هرهرة حفظه الله تعالى آمين وبعد:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، موجب الكتاب خير وعافية، لا يخفى عليكم يا محب من شان المحبين الفقهاء آل عزالدين أولاد الفقيه علي بن حيدر بلغ إلينا حصل عليهم انقلاب واختلاف وتغوش من المحبين بني بكر خلاف ما يعتقدون وأقاموا رجل غيره لا يعرف شي واشغلنا ونحن علينا هذا الحال لأن الفقهاء آل عزالدين ناس ما يقصرون واقامتهم من نحنا وما يجبرهم يجبرنا وما غوش عليهم غوش علينا ونسهن من المحبين إلا مزيد الجبر لهم والاجلال والاحترام، والقصد يا محب أنها صدرت كتب للمحبين بني بكر وأهل بني بك وتحتمنا عليهم بإجراء الفقهاء على عوائدهم وأن لا يقلب عليهم مقلوب ويكون لهم مزيد الاجلال والاحترام والقصد يا محب أنك تجمع المحبين بني بكر وأهل ين دينيش وتقوم على بني بكر وتزجرهم وتقيم الفقهاء على عوائدهم السابقة لا يقلب عليهم مقلوب واشهر القول ان إقامتهم من نحنا ويجرون على عوائدهم وهم منا وإلينا وعلينا ومن جبرهم جبرنا ومن غوش عليهم أو تنكر عليهم أو قلب عليهم مقلوب فقد تعرض لسخطنا والقدرة تصيبه. وأنت يا محب قُم وجدّ في الأمور جميعاً ونحن سعدتك ونصرتك وأمرك من أمرنا ونصيبك من نصيبنا ومن أطاعك أطاعنا ومن خالفك خالفنا وإنّما عليك الجد في الأمور والتمام علينا طَيِّب نفسك قد أيدناك وألحفناك وأسقيناك وازددناك زيادات وقد النصر والولاية معك منا ولا عادك معارض ولا معاند من عاند أو عارض أصابته القدرة ونحن خصمه ونحن لم نزل ندعوك ومعتنون بك ولا ننساك ولا نغفل عنك الساعة الواحدة وأمورك مشموله ويحصل لك المطالب والمقاصد والنصر وكل أمر تعزم عليه فأنا معك وقبلك حاضر أينما كنت وأنا معك امنع على نطقي هو يعينك..[ناقص لتلف في الوثيقة].

ختم برسم الشيخ أحمد بن الشيخ علي (١١٤٢ - ١١٧٧ هـ)



الشرح والتعليق:

- تكشف الرسالة عن أن آل بني بكر هم من انقلب على الفقهاء آل عزالدين أولاد الفقيه علي بن حيدر بإقامتهم شخصًا آخر من غير آل عزالدين، لا نعرف من هو لعدم ذكر اسمه أو نسبه، وجُلُّ ما نعرف عنه أنه حسب رسالة منصب عينات (لا يعرف شيء)، كما لا نعرف بعد أسباب ودواعي هذا الانقلاب.

- بما أن خبر الانقلاب قد اتسع نطاقه وبلغ منصب عينات فقد حسم موقفه بإنابة الفقهاء أولاد الفقيه علي بن حيدر بن عزالدين، والإشادة بهم مجدَّدًا، ووصفهم بالمحبِّين، وأنهم لم يقصِّروا في مهامهم، وما يجبرهم يجبر خاطره، ويأمل لهم بمزيد من الإجلال والاحترام.

- ولما لسلاطين آل هرهرة من سلطة ومكانة فقد طلب التدخل من قبل السلطان قحطان بن عمر بحكم ما له من تأثير وكلمة مسموعة، لإبطال ذلك الانقلاب، موضحًا له أنه قد أرسل من جانبه رسائل إلى المحبين بني بكر، تحتم عليهم إبقاء الفقهاء على مكانتهم، وعدم قبول الانقلاب عليهم.

- حدَّد منصب عينات مهمته للتدخل بالقول: "والقصد يا محب أنك تجمع المحبين بني بكر وأهل بن دينيش وتقوم على بني بكر وتزجرهم وتقيم الفقهاء على عوائدهم السابقة لا يقلب عليهم مقلوب وأشْهِر القول ان إقامتهم من نحنا ويجرون على عوائدهم وهم منا وإلينا وعلينا ومن جبرهم جبرنا ومن غوش عليهم أو تنكر عليهم أو قلب عليهم مقلوب فقد تعرض لسخطنا والقدرة تصيبه".

- وحثه في الرسالة على القيام بجد في الأمور جميعًا، وأن أمره من أمرهم، ومن أطاعه أطاعهم، ومن خالفه خالفهم، وأنهم قد أيَّدوه والنصر والولاية معه منهم...إلخ من عبارات التأييد والدعاء التقليدية.

عينات تفصح عن سبب الانقلاب على الفقهاء:

ما كان لنا أن نعرف حصول هذا الخلاف أو الانقلاب على فقهاء بني بكر، كما وصفه منصب عينات، ولا أسبابه، لولا الحصول على هذه الوثائق النفيسة التي تكشف لنا ما غمض من أحداث، وها هي رسالة منصب عينات الموجهة إلى كل من: القاضي الفقيه أحمد بن علي والفقيه عبدالله بن علي والفقيه أحمد بن حيدر، تكشف جوانب من هذا الغموض وتبين لنا أسباب الخلاف أو الانقلاب، وتعالوا نتعرف أولاً على نص الرسالة، ثم نتعرض لها بالشرح والتعليق.

نص الوثيقة رقم (٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الله تعالى يلحظ ويحفظ ويخص ويحرس ويمن بالعافية والتوفيق على المحبين الصادقين إلى الله ورسوله الملحوظين القاضي الفقيه أحمد بن علي والفقيه عبدالله بن علي والفقيه أحمد بن حيدر حفظهم الله تعالى وبعد السلام ورحمة الله وبركاته.

موجب الكتاب خير وعافية لا يخفى عليكم يا محبين، بلغ إلينا ما جرى عليكم من بني بكر من غير كتب منكم وصدرت منا كتب للمحبين بني بكر وأهل بن دينيش وكتاب للمحب الشيخ عمر بن قحطان بن الشيخ عمر وكتاب للخادم معوضة، والكُتب في شأنكم قاطعة في

إقامتكم وإجراء عوائدكم وحسبما تستمعون منها وفيها من التشديد كفاية وصدرت نيابة اقفوا عليها وأنتم قوموا عند قولنا ولا لنا معارض ولا معاند، وعليكم يا فقيه أحمد بالصبر وضمام الناس ومن اشغلك لا تراكزه نحن كافينك وادفع الأمور إلينا ونحن القائمين لك ومعتنون بك وأنت الله الله قدك تدخل وتخرج أنت والناس على مليح وأولادك أدّبهم وقُم عليهم الله الله كذلك لا يراكزون أحد وإخوانك مثل، والله الله في إقامة الدين الله الله حتى يقوم الله معك في الدنيا والآخرة ولا تراكز أحد على الدين المقام بالبصر ومن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها، كما قال الله في القرآن، وعليك بنفسك لا يضرك من ضل أنت وأولادك ونحن داعون لك بصلاح أموركم ظاهرها وباطنها والسلام من الوالد علوي بن الشيخ والأولاد والأصناء عبدالرحمن وصالح وسلموا لنا على المحبين أولادكم والجميع والسلام.

برسم الشيخ أحمد بن الشيخ علي (١١٤٢ - ١١٧٧هـ)



الشرح والتعليق:

- هذه الرسالة مهمة بالنسبة لنا؛ لكونها تعرفنا على أسباب المشكلة التي نجهلها حتى الآن، فبعد السلام يذكرهم منصب عينات بأنه قد بلغ إليه ما جرى من انقلاب بني بكر عليهم من غير كتب منهم، أي من مصادر أخرى، وأنه قد أصدر كُتُبًا للمحبين بني بكر وأهل بن دينيش، وكتابًا للمحب الشيخ عمر بن قحطان بن الشيخ عمر وكتاب للخادم معوضة، وجميعها قاطعة بشأن إقامتهم وإجراء عوائدهم، كما يذكرهم بصدور أمره لإقامتهم في نيابة الشرع.

- يوجه منصب عينات في رسالته النصح لرأس أسرة الفقهاء حينها أحمد بن علي بن حيدر عزالدين لمواجهة المشكلة بالصبر وجمع الناس، وعدم الدخول في جدال أو نزاع بمن يشغله، وإحالة الأمور إلى المنصب للبت فيها، يقول مخاطبًا إياه: "وعليكم يا فقيه أحمد بالصبر وضمام الناس ومن أشغلك لا تراكزه نحن كافينك وادفع الأمور إلينا ونحن القائمين لك ومعتنون بك".

- نعلم أن لكل مشكلة سببًا، ولا يعقل أن تحصل مشكلة بدون سبب، وها هي الرسالة تدخل في ذكر السبب المباشر لانقلاب بني بكر على الفقهاء؛ إذ بَدَرَت تصرفات وسلوكيات مسيئة من أولاد الفقيه أحمد بن علي ومن إخوانه دفعت بني بكر إلى عدم القبول بهم والدخول معهم في نزاع أو تكبرّ (مراكزة)، بدليل مخاطبته له ناصحًا بالتعامل الحسن (المليح) مع الناس وآمرًا إياه بتأديب أولاده وإخوانه وأن يقُوم عليهم؛ إذْ يخاطبه بقوله: "وأنت الله الله قدك تَدخُل وتخَرُج أنت والناس على مليح، وأولادك أدّبهم وقُم عليهم الله الله كذلك لا يراكزون أحد، وأخوانك مثل".

- وهناك سبب آخر يخص الفقيه أحمد بن علي الذي عُرف بورعه وتَقواه، يتمثل بتشدده في أمر دينه وعقيدته بصورة مُبالغ فيها في تعامله مع الناس، فيلقى عنتًا منهم وتقصيرًا؛ لانهماكهم بأمور حياتهم وأحوالهم ومطامع الدنيا، ولهذا ينصحه أن يتعامل معهم باللين والتساهل، ويتبع سبيل الموعظة الحسنة، وأن يجادلهم بالَّتي هي أحسن، ويتعامل معهم بمنطق الناصح المرشد، لا المُملي ولا المسيطر، عملاً



بقـوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَبْصرَ فَلِنَفْسه وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها ﴾، ونصحه أن لا يخاصم (يراكز) أحدًا على الدّين، بدليل مخاطبته له ناصحـاً بقـوله: "والله الله في إقـامة الدين الله الله حـتى يقـــوم الله معك في الدنيا والآخرة، ولا تراكز أحد على الدين المقام بالبصر ومن أبـصر فلنفسـه ومن عمي فعليها ، كما قال الله في القرآن، وعليك بنفسك لا يضرك من ضل أنت وأولادك".

- ويختتم الرسالة بالدعاء للفقيه بصلاح أموره ظاهرها وباطنها، ثم يبلغه السلام من أهل عينات الجميع.

ثبات موقف عينات مع الفقهاء:

ظل موقف منصب عينات السيد الشيخ أحمد بن عليّ بن أحمد بن عليّ بن سالم بن أحمد بن الحسين بـن الشـيخ أبي بـكر بـن سـالم (١١٤٢-١١٧٧هـ) ثابـتًا إلى جانب فقهاء بني بكر، منافحًا عنهم، وناصحًا لهم، كما يتبين ذلك في رسائله كلها إليهم وإلى غيرهم، وهو ما يؤكده مجدَّدًا في رسـالته الآتية الموجهة إلى الفقـهاء: أحمد بـن علي حـيدر البـكري وعبـدالله بـن علي البـكري وكافة الفقـهاء آل عزالدين(٩).

نص الوثيقة رقم (٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الله تعالى يلحـــظ ويحفظ ويخص ويحرس ويحمي ويمن بالعافية والتوفيق على المحبـين الصادقـين في الله ورسـوله الملحوظين الفقهاء: أحمد بن علي حيدر البكري وعبـدالله بن علي البـكري وكافة الفقـهاء آل عزالدين حـفظهم الله تعالى آمين وبلغهم أتم السلام.

يا محبـين بـعد وصول كتب المحبـين بـني بـكر الذي من عندنا صحبة الشيخ علي عوض فأنتم البركة فيكم فقد الله الله الرياض وعايدت كلاً يرجع إلى محله، ومن شـان بـني بكر فهذاك لقل محبتهم بمخالفتهم لخطوطنا ولا يصيدون خير وأنتم محبـين منا وإلينا وعد لنا وداعون لكم ومعتنون بكم ظاهراً وباطن ويعجل لكم مطلوبـكم ومقـصودكم والخير والبركة والعوض في الحال والمال والدعاء مبذول.

والسلام من الوالد علوي عبدالله صالح

إضافة جانبية:

ونحن شاهدين أنكم مجبرون بني بكر على جميع المطالب ختم برسم الشيخ أحمد بن الشيخ علي (١١٤٢ - ١١٧٧هـ)

الشرح والتعليق:

- هذه الرسالة عادية، فبعد السلام يبلغهم منصب عينات السيد أحمد بن علي بوصول كُتب بني بـكر التي من عنده، أي من جهة حـضرموت، بصحبـة الشـيخ علي عوض، ويدعو لهم بالبركة، ويحثهم على الصبر وبه تعود الأمور إلى محلها، يقول: "الله الله الرياض وعايدات كلاً يرجع إلى محله".

- يشير إلى أن ما حصل من بـني بـكر سببـه قلّة محبـتهم له بمخالفتهم لرسائله، وأنهم لن يصيدوا خيراً.

- يختتم الرسالة بالتأكيد على مكانة الفقـهاء بقـوله: "أنتم محبين منا وإلينا وعد لنا وداعون لكم ومعتنون بكم ظاهراً وباطنًا ويعجل لكم مطلوبكم ومقصودكم والخير والبركة والعوض في الحال والمال والدعاء مبذول".

22
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

نص الوثيقة رقم (٥) (١٠)

الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

حفظ الله بحفظه وجمَّل حال المحب الملحوظ المخلص في محبته المحفوظ الفقيه المبارك حيدر بن علي البكري، حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وصل كتابكم الكريم وما شرحتم تحققناه بتهنية عيد الحج الأكبر، والثواب الأوفر، جعله الله عائداً علينا وعليكم والمسلمين بعوايده الجميلة، على طاعة الله ورسوله، وعلى ما يحب ويرضى، وما ذكرتم من شان بني بكر وما جرى منهم فنحن يا محب معكم، وما نطقنا يوفى بقدرة الله تعالى، وأنت محب مخلص ولك زيادة. ومن جهة الحداد فهو خادمنا وإلينا ولا يدخل في أمور يافع، والدعاء لك مبذول بنيل كل سول ومأمول، وعلى الله الإجابة والقبول.

وسلموا على المحبين أولادك علي حيدر وحيدر بن أحمد وعبدالله والمحبين الجميع والسلام.

والسلام من الوالد علوي والأصناء عبدالرحمن وصالح والولد أبوبكر أحمد.

ختم برسم الشيخ أحمد بن الشيخ علي (١١٤٢ - ١١٧٧هـ)



الشرح والتعليق:

- الرسالة موجهة من منصب عينات الشيخ أحمد بن علي إلى الفقيه حيدر بن علي البكري، وبعد السلام، يذكر وصول كتاب الفقيه، والتحقق من كل ما جاء فيه.

- يرد على التهنئة بعيد الأضحى المبارك (عيد الحج الأكبر، والثواب الأوفر)، داعيًا الله أن يعيده على الجميع بعوائده الجميلة، وعلى طاعة الله ورسوله، وعلى ما يحب ويرضى.

- وبخصوص ما جرى من بني بكر تجاه الفقهاء يؤكد لهم مجددًا أنه معهم، وما نطق به يُوفى بقدرة الله تعالى، ويصفه بالقول "وأنت محب مخلص ولك زيادة".

- يذكر في الرسالة أن الحداد خادمهم، ولم يذكر اسمه الكامل، والمقصود أنه هو من يقوم بخدمتهم في جمع العشير والنذور والصدقات المخصصة لمناصب عينات، وأشار أن لا دخل له في أمور يافع، وإشارته تلك تشي بأن الحداد ربما تجاوز صلاحياته المحددة مما أغضب الفقهاء، فطمنهم منصب عينات.

- يختتم الرسالة كالعادة ببذل الدعاء لنيل كل سول ومأمول، وعلى الله الإجابة والقبول.

---

* أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة عدن.

الهوامش:

١) انظر: الموسوعة اليافعية، نادر سعد عبادي بن حلبوب العُمري، م/ ١، ج١: ص٨٢- ٨٣.

٢) هداية الأخيار في سيرة الداعي إلى الله محمد الهدار، حسين بن محمد الهدار ص ٤٣٩، وكذا صحيفة (الأيام) ١٣ نوفمبر ٢٠٠٣م، العدد (٤٠٢٤).

٣) انظر: يافع في حضرموت، تأليف: طارق بن سالم سعد الموسطي وآخرون، م/ ٨، ج/ ١٢ من الموسوعة اليافعية، دار الوفاق- عدن، ط١، ٢٠١٣م، ٣٨٨- ٣٨٩.

٤) انظر بحثنا: فتنة صاحب عينات وابن يماني ونجدة يافع في وثائق تاريخية تُنشر لأول مرة (١٢٣٨ - ١٢٣٩هـ)، مجلة حضرموت الثقافية، العدد (٢٠) يونيو ٢٠٢١م، الصفحات ٧- ٢٢.

٥) كُبت (ظلم وطلم) والأصح ضمام، أي ضم الأشياء أو جمع بعضها إلى بعض.

٦) غوَّش: أثار ضوضاء وضجة وصخباً.

٧) انظر: معجم الأسلاف والأعراف القبلية في بلاد يافع، د. علي صالح الخلاقي، ٢٠٢٠م، (حرف السين- سلطان).

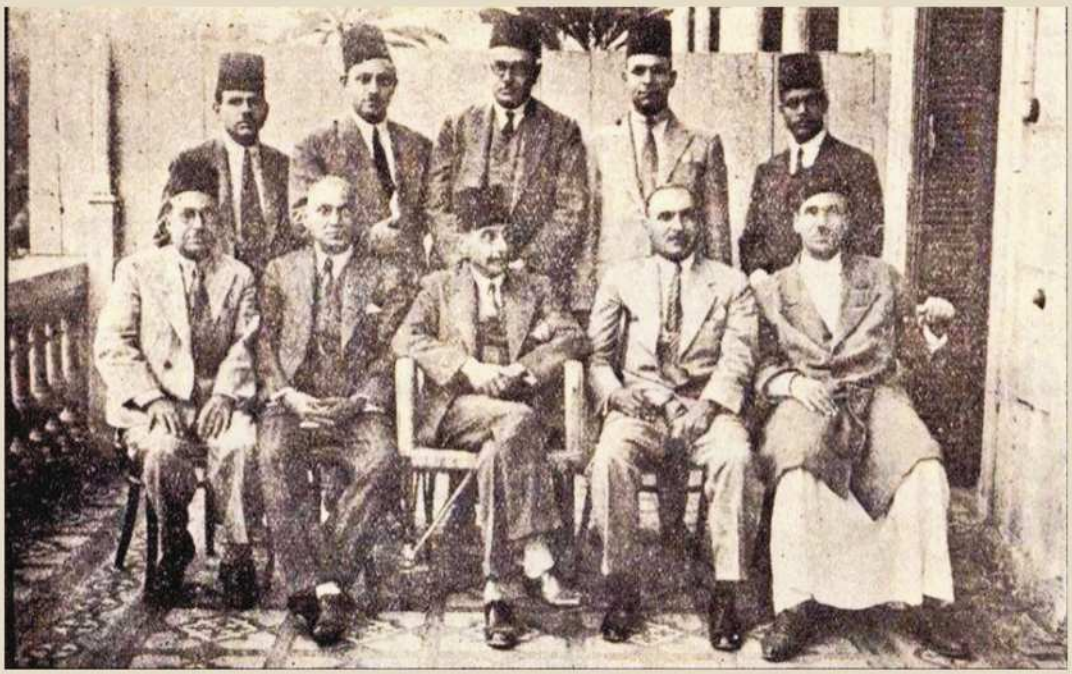
٨) انظر صورة الوثيقة رقم (٢) من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري.

٩) انظر صورة الوثيقة رقم (٤) من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري.

١٠) انظر صورة الوثيقة رقم (٥) من محفوظات الشيخ ناصر علي محمد الفقيه بن عزالدين البكري.

23
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

حضارم أبولو وأثر مدرسة أبولو في شعرهم





عمر عوض خريص

ظهرت في أربعينيات(١) القرن المنصرم في مصر جماعة أبولو كهيئة أدبية جديدة، تعنى بالشعر العربي عناية فائقة، وتحاول التجديد فيه لمواكبة الآداب العالمية، ففي سبتمبر ١٩٣٢م أعلن عنها الشاعر المصري الدكتور أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ـ١٩٥٥م)، واختاروا لها اسم (أبولو)، وتضم الجماعة عدداً من الأدباء والشعراء والنقَّاد بين الشيوخ والشباب، وفي الرابع عشر من أكتوبر (١٩٣٢م) عقدت جلستها الأولى في دار أمير الشعراء أحمد شوقي، وانتخب شوقي رئيساً لها، وخليل مطران وأحمد محرم نائبين للرئيس، وأحمد زكي أبو شادي أميناً عاماً، ولكن الموت لم يمهل أمير الشعراء، وغادر هذه الدنيا الفانية في أكتوبر ١٩٣٢م، بعد أيام من توليه رئاسة المجموعة، فخلفه الشاعر الأديب خليل مطران، وأثرت هذه الجماعة في مسار الشعر العربي؛ إذ استجاب جل شعراء العربية في مصر وخارجها لدعوتها وتحقيق أهدافها، وعرفت في تاريخ الأدب العربي بمدرسة أبولو، انتسب إليها الكثير من الشعراء، منهم من همَّ مباشرة بحمل عضويتها، ومنهم من هم بعيداً عنها في أصقاع الأرض فانتسبوا إليها، وقد عنيت الجماعة عناية خاصة بالشعر العربي، وسعتْ إلى تطور مضامينه، وتحريره من بعض القيود القديمة في البنية

الشعرية، وقد جعلت لنشر أهدافها وتحقيقها وسائل النشر، منها نشر دواوين الشعراء، وإصدار مجلة (أبولو) تحمل رؤاهم وإنتاجهم الشعري والنقدي، وهي كما قيل عنها في سياق البحث (ودعوة أبولو لا تبعد عن الدعوة الرومانسية هذه فقد دعا أدباؤها ونقادها إلى:

١ـ الثورة على التقليد، والدعوة إلى الأصالة والفطرة الشعرية والعاطفية الصادقة، وإطلاق النفس على سجيتها، وإلى الطلاقة الفنية، والبعد عن الافتعال، وإلى التناول الفني السليم للفكرة والمعاني والموضوع.

٢ـ البساطة في التعبير والتفكير، وفي اللفظ والمعنى والأخيلة، ويتبع ذلك التحرر من القوالب والصيغ المحفوظة وأساليب القدماء.

٣ـ تركيز الأسلوب والرجوع إلى النفس والذات وإلى العاطفة الإنسانية الصادقة، والاتجاه إلى الشعر الغنائي العاطفي، وإلى التأمل الصوفي.

٤ـ الغناء بالطبيعة الجميلة، وبالريف الساحر.

٥ـ الغناء بالوحدة والألم والسأم، والقلق النفسي والعذاب الروحي.

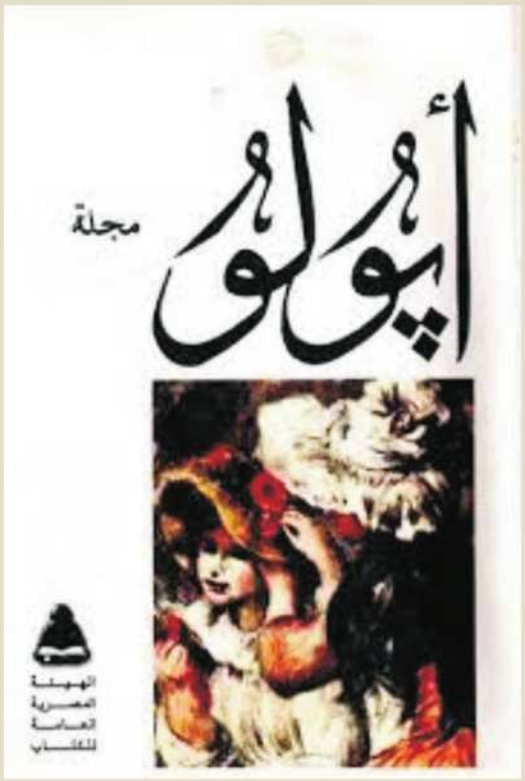
٦ـ العناية بالوحدة العضوية للقصيدة، وبالانسجام الموسيقي.

وهذا الاتجاه العام لمدرسة أبولو هو نفس الاتجاه الرومانسي في الآداب الأوربية)(٢).

وصل أثر هذه المدرسة إلى الشعراء الحضارم، فتأثر بها شاعران كبيران من شعراء حضرموت هما، الشاعر صالح بن علي الحامد، والشاعر علي أحمد باكثير؛ إذْ كانت لهما مساهمات ومشاركات في مجلة أبولو، حملت كل سمات مدرسة أبولو، كما كان طريق التجديد في أشعارهما على نهجها فيما بعد.

المجلة:

تعدُّ مجلة (أبولو) منبراً شعرياً لأعضاء هذه المدرسة، وهي لسان حالها، ونالت من الشهرة ما نالت في أوساط الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، بل امتدت إلى أقاصي الشرق والغرب، لذا نرى مشاركات الكثير من الشعراء بقصائدهم من مهجرهم، والمجلة حين



صدورها كانت حدثًا قوميًا قيل عنه (عن أبولو يقول الشاعر حسن كامل الصيرفي: كان تكوين جماعة أبولو، حدثًا تاريخيًا في عالم الأدب، كما كانت مجلة أبولو حدثًا تاريخيًا في عالم الصحافة؛ حيث تنفرد صحيفة بالشعر فتناصره على شتى ألوانه ومذاهبه، وتحتفي بالشعراء من كل قطر على تفاوت أعمارهم ومواهبهم، وتفتح في رحابه ذراعيها لتحتضن كل المواهب، ما عرف منها ومالم يعرف، وما كان قد كشف الغطاء ومالم يكشف، وحسبي أن أذكر هنا أنه بين دفتي ثمانية وعشرين عدداً صدرت هذه المجلة منذ سبتمبر سنة ١٩٣٢ حتى ديسمبر ١٩٣٤ ضمت ثلاثة

25
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

آلاف وثلاثمائة صحيفة، احتوت على أكثر من سبعمائة قصيدة وأربعمائة وخمسين دراسة ونقد، بأقلام ثلاثمائة وعشرة من الشعراء والكتاب)(٣).

وكان نصيب شاعرينا الحامد وباكثير في نشر قصائدهم هي خمس عشر قصيدة ومقطوعة، وهن ـ للحامد، بعد وداع الأصيل ـ في الفستان الأصفر ـ هل تذكرين ـ دمعة على ولد ـ سمراء ـ صباح الشاعر ـ ملك ـ تحت صورتي ـ نسمات الربيع ـ دوحة الوادي، أما لباكثير فهي ـ واقفة بالباب ـ الرفيق المضاع ـ وحي سمراء ـ في الأزبكية ـ وحي الشاطي ـ أمس واليوم.

وسوف نأتي على تفصيل هذه القصائد وبيان أثر مدرسة أبولو في شعريهما، وإيراد نماذج منها، حتى تتضح الرؤية.

قصائد الشاعر الحامد:

نشر الشاعر الكبير صالح بن علي الحامد (١٩٠٣ـ١٩٦٧) تسع قصائد ومقطوعة في أعداد مجلة أبولو، ابتداء من أكتوبر ١٩٣٣م إلى ديسمبر ١٩٣٤م، وهي :

١. قصيدة: بعد وداع الأصيل:

وهي القصيدة الأولى التي نشرها الشاعر صالح الحامد في مجلة أبولو في عدد أكتوبر ١٩٣٣م، وتحمل الصفحة رقم (١١٠) المجلد الأول المجموعة الكاملة لمجلة أبولو، وهي القصيدة التي تحمل الصفحة رقم (٩) في ديوانه (نسمات الربيع)(٤)، وقد أبدل الشاعر كلمة (بعد) من عنوان القصيدة فأصبحت في الديوان (عند وداع الأصيل)، والديوان طبع في (١٩٣٦م)، كما أبدل في متن القصيدة كلمة و أحدة في البيت السادس عشر من القصيدة؛ إذ جاء في أبولو هكذا:

والزهر يهدي مع أنفاسها رسائلا من عرفه العاطر

فأصلحه في ديوانه هكذا:

والزهر يهدي طي أنفاسها رسائلا من عرفه العاطر



الشاعر صالح بن علي الحامد

وهذا مما يتعهد الشاعر شعره بالتنقيح والتصليح، وسوف يمر بنا كل تنقيحاته في أبياته، فهناك أكثر من قصيدة تم تنقيحها، وهي خصلة تحمد له، وقصيدة (عند وداع الأصيل) من أجود شعره مبنى ومعنى، يقول فيها:

نظرت والأفق بديع خصيب والكون بادٍ في جلالٍ مهيب
البحر في هدأته خاشع والشمس عجلى قد دنت للمغيب
ألقت على الكون سنًى باهراً كالذهب الذائب أو كاللهيب
هاجمها جيش الدجى فانزوت صفراء في لون الهزيم الكئيب
والروض موشى النواحي بدا من صبغة الشمس بلونٍ عجيب
ياحسنه ! حين يرى زاهراً يهتز في برد الأصيل القشيب

وتستمر القصيدة في ثلاثين بيتًا، في ثلاثة مقاطع مختلفة القافية، كل مقطع عشرة أبيات، وفيها نرى أثر مدرسة أبولو وتأثيرها في صياغة شعره، ففي هذه القصيدة كأنها لوحة رسام، مصداقًا لقولهم: (وتنتقل القصيدة عند مدرسة (أبولو) من التعبير بالألفاظ والجمل إلى تعبير بالصور الشعرية، وهذا أهم ما تطورت إليه القصيدة الجديدة، ويشير إلى ذلك إبراهيم ناجي في مقال له نشره في مجلة (أبولو) عدد ديسمبر سنة ١٩٣٢م، فيقول (الشعر

موسيقى وخيال وإقناع وصور))(٥)، وكل هذا نجده في قصائد الحامد، يعمل بها كمجدد للشعر العربي ورائد من رواده في حضرموت خاصة والوطن العربي عامة، ومن هذه القصيدة في المقطع الثالث:

حين توافينا على نجوة تضل عنها حائماتُ الظنون
ورُمتُ أن أشكوه بعض الهوى فسابقتني مُرسلاتُ الشئون
تعطلت كل اللغى بيننا واستبدلت عنها لغات العيونْ.

وأخذ د. مبارك حسن الخليفة على الحامد استعماله لمفردات سائدة في الشعر القديم حين قال: (استعمل الحامد بعض المفردات قليلة الورود عند قلة من الشعراء، فهو يستعمل (لغى) جمعًا لكلمة (لغة) التي تجمع عادة لغات)(٦)، ثم أورد البيت الأخير مما أوردناه، ونحن نرى أن مرد حكم د. مبارك تصنيفه للحامد بأنه من مدرسة الديوان، إلا أن مدرسة أبولو أتت بعدها، وأخذت محاسنها، وزادت عليها من جراءة التجديد في المضمون والشكل والتأثر بالآداب الأوروبية، وأما كلمة (لغى) فليست نكرة، ولكنها مجددة في اللهجة العربية، تفهمها العامة قبل الخاصة، وذلك مما تسمعه كل يوم جمعة حينما يعتلي الخطيب المنبر، يأتي المؤذن بحديث (من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت أو صه فقد لغى ومن لغى فلا جمعة له)، واللغى هنا الحديث الجانبي.

٢. قصيدة :في الفستان الأصفر:

وفي عدد فبراير ١٩٣٤م من أبولو نشرت قصيدته (في الفستان الأصفر)، ولم تحمل اسمه الصريح، بل رمز لها هكذا (ص. ح. العلوي)، وهي القصيدة نفسها التي تحمل الصفحة رقم (٦٢) من ديوانه (نسمات الربيع) بزيادة علامة التعجب على العنوان، وهي في خمسة عشر بيتًا، قال في مطلعها:

برزت في مئزرها الأصفرْ كشهاب الصبح وقد أسفرْ
كالدرة، بل منها أسنى كالزهرة، بل منها أنضرْ
سنحت في الشارع مارحة في الخز كما سنح الجؤذرْ
صلى ذو اللهو لها عجباً والناسك سبح أو كبرْ
والعاشق طالع في دهشٍ لجلال الموقف والمنظر

إلى قوله:

حيت بتحية ذي غنجٍ نفحت نفح الوردِ الأعطرْ
بفمٍ ـ ياحسن لآلئه ـ يفتر الكونُ إذا يفترْ
يتمنى العاشقُ لو يفنى سُكراً من باردهِ السكرْ
فيبل بلثم منضده قلباً يلتهب كالمجمرْ.

وفي تنقيحه لديوانه استبدل كلمة (مارحة) بكلمة (مائسة)، و(ذو اللهو) بـ(المفتون)، و(عجبًا) بـ(عظما)، و(والعاشق) بـ(والشاعر)، و(حيت) بـ(منت)، و(العاشق) بـ(الواله)، وقد وفق في تغيير هذه المفردات مما أضافت للنص الشعري إشراقًا، وفي الصورة رونقًا.

٣. قصيدة: دمعة على ولد:

نشرت في عدد مارس ١٩٣٤م في الصفحة (٦١٣)، في باب الرثاء، وهي في (٢٦) بيتًا، وعليها نشرت صورته لأول مرة، وتأتي في ديوانه (نسمات الربيع) في الصفحة (٦٧)، بتغيير في العنوان وهو (دمعة والد)، في (٢٥) بيتًا، حذف منها البيت التاسع عشر في الديوان وهو:

خلقت مليئًا بالحبور فلم تكن
ترى قط إلا باسماً ضاحك السن.

وقدم في الديوان للقصيدة بقوله: (كان الناظم غائبًا عن وطنه حضرموت، فجاءه نعي ابنه الوحيد وهو بمهجره بسنقافورة سنة ١٣٥٠ هجرية) ـ وقال فيها:

قفوا فانظروا قلبي فقد ذاب من حزني
فأرسلته دمعًا حكى هاطل المزنِ
وهاهو في المنديل والردن نابض
تعالوا فجسوا نبض قلبي على ردني

دعوني فما أبكي على فقد ذاهب

ولكنما أبكي على فلذةٍ مني.

وقد غيرَّ كلمة (ذاهب) في الديوان بكلمة (منفسٍ)، وغيرَّ في هذه الأبيات:

لعمري لقد وافى الكتاب بنعيه

فدارت بي الغبراء مما رأت عيني

وغامت في عيني الدموع غزيرة

وطحت سليب العقل مرتبك الذهن.

فغيرها كالآتي:

فيا شؤم يوم جاءني فيه نعيه

ظللت به بين الورى شارد الذهن

وعيَّ لساني فانبرى الدمع للملا

يترجم ماقد عيٍّ عن بثه لسني

وغيرَّ أيضًا في هذا البيت:

ومالك قد وسدت فرشاً في الثرى

وألبست بعد الخزّ ثوبا من القطن

فأبدله في الديوان:

ومالك قد بدلت فرشاً من الثرى

وبعد الثياب الكثر ثوباً من القطن.

وأيضًا:

وأنت تنادي: يا أبي: وتجيئني

فأعطيك مأوى من حناني ومن حضني

وأوليك ضماً للضلوع وللحشا

ولثماً لنفسي كان أحلا من المنِ.

ففي الديوان استبدل بـ (وأنت تنادي) قوله: (كأنك تدعو)، وفي البيت الثاني كلمة (وللحشا) بكلمة (محببًا)، وفي البيت الحادي والعشرين في الديوان غيرَّ من (بثثتك أحلامي) بالمجلة إلى (منحتك أحلامي) بالديوان.

٤. قصيدة: هل تذكرين:

نشرت في عدد مايو ١٩٣٤م صفحة (٨٥٦)، باب (شعر الحب) وهي في ثمان رباعيات متعدد القافية، وهي تحمل الصفحة رقم (٥٨) في ديوان (نسمات الربيع)، قال في مطلعها:

هل تذكرين وأنت والأتراب في القصر المنيرْ

تمرحن أملاكاً مجنحة بأفواف الحريرْ

لما انسللت لموعدي في روعة الرشأ الغريرْ

فنزا الفؤاد إليك من جذل وحاول أن يطير

ومن تغييره في هذه القصيدة البيت التالي وفيه قال:

ووعيت من فيك المعطر نور أحلام الحياة

فأبدلها في الديوان قائلاً:

وعببت من فمك المعطر نور أحلام الحياة

وأيضًا البيت التالي:

طارت مشاعرنا فكل من جميع الكون ساه

فأبدل (من) بـ (عن)، وأظنها تصحيح لخطأ مطبعي ورد في المجلة.

وأبدل أيضًا كلمة في البيت الآتي:

وشممت من أنفاسك الظمياء أنفاس الزهور

فابدل بـ (شممت) كلمة (ونشقت).

٥. قصيدة: سمراء:

نشرت في عدد مايو ١٩٣٤م صفحة (٨٥٨)، باب (شعر الحب)، وهي في الديوان تحمل الصفحة رقم (٣٨) في اثني عشر بيتًا قال فيها:

سمراء نحوك هام قلبي راجياً

لوعاش كالعصفور بين يديكِ

راضٍ بذل الأسرِ حولك عمره

عن عيشه بين الربى والأيك

ولئن نأيت فكم بعثت على النوى

روحي على ظهر الخيال إليكِ

ترعاك من خلف النجوم وتارةً
تهوى إذا يهوى الصباح عليكِ

وأبدل في الديوان كلمة (نحوك) بكلمة (كم لك) في البيت الأول وأبدل كلمة (راضٍ) بكلمة (جذلاً)، كما جاء تغيير في كلمات الأبيات الآتية:

ومنحته قبلي إليك فهل أتى
ليزف قبلاتي إلى شفتيكِ

ماكنت أدري الحب إلا أنه
حمةُ سرت للقلب من عينيكِ

وعجزت أفقه سر حسنك أو أرى
من أين نبع السحر من جفنيكِ.

ففي الديوان تم استبدال هذه المفردات (ومنحته) بـ (أودعته)، و(أفقه سر) بـ(أدرك كُنْهَ).

٦. قصيدة: صباح الشاعر:

نشرت في عدد مايو ١٩٣٤م، صفحة (٨٦٥)، باب (وحي الطبيعة)، في (٢١ بيتًا)، وهي بالصفحة (٧) بالديوان، قال في مطلعها:

أيها الشاعر أستفق ذهب الليل فقم-ويك-حي نُور صباحكْ
وأستمد الأحلام من نوره الضاحي ورفرف حياله بجنحكْ

إلى قوله:

أيها الروض أنني جئت أستوحي معاني الجلال من أدواحكْ
استمد الجمال من حسنك الغض وسحر الألحان من صداحكْ

ولم يغير في القصيدة إلا مفردة واحدة في البيت الرابع عشر، وهي (استمد) أبدلها بـ(أتملى).

٧. قصيدة: ملك:

نشرت في عدد أكتوبر ١٩٣٤م، صفحة (٢٣٢)، باب (شعر الحب)، في (١٨ بيتًا)، وفي ديوان (نسمات الربيع) صفحة (٣٦)، من أبياتها الأولى:

ياملك الرحمة في الأرض من علمك القسوة، من علمكْ؟
نبع حنانٍ كنت بين الورى من ذا الذي بالظلم غذى دمكْ؟
اصميتني ظلماً بسهم الهوى عُدني حناناً وأحبني بلسمكْ
عهدت بالعطف، ولو للعدى فكيف تعدو قاتلاً مغرمك؟
أخوك هاروتُ مضى، والذي ألهمه سحرّ الورى ألهمكْ
طلم هاروت دراه الورى وأنت لَمّا يكشفوا طلسمكْ؟.

وفي المطلع هذا أبدل بعض الكلمات وهي البيت الثالث كلمة (ظلماً) فصارت بالديوان (عمدًا) وكلمة (حنانًا) في الشطر الثاني بكلمة (بعطف)، وفي البيت الرابع (عهدت بالعطف) فصارت بالديوان (جلبت ذا عطف)، وفي البيت الرابع أبدل (وأنت) بـ(لم أنت)، وبقية القصيدة لم يمسها التغيير والتنقيح.

٨. مقطوعة: تحت صورتي:

نشرت في عدد أكتوبر ١٩٣٤م، صفحة (٢٣٧)، باب (الشعر الفلسفي)، وهي في (٥ أبيات)، رفقها مع صورته المنشورة بالمجلة، واضافها الحامد الى ديوانه (نسمات الربيع) في الصفحة (٦٤) بعنوان (صورتي)، قال فيها:

هذه صورتي إليك فلا تعجب إذاً من بشاشتي وابتسامي
حاربتني أيام دهري فضحكي حذر من شماتة الأيامِ
هذه صورتي لديك ستبقى غضة في شبابها كل عامِ
سوف تبقى ذكرى الشباب أذا شبتُ، وذكرى الحياة بعد حمامي
وإذا ماسموتُ في عالم الروح ستحيا في عالم الأجسامِ.

ولم يُبدل فيها غير (إذا) في البيت الرابع، فأبدلها بـ(متى).

٩. قصيدة: نسمات الربيع:

نشرت في عدد ديسمبر ١٩٣٤م، صفحة (٦٨٠)، باب (وحي الطبيعة) في (٣٤ بيتًا)، وهي في الصفحة (١٨) من ديوان (نسمات الربيع)، الذي يحمل سم القصيدة نفسه، ومطلعها:

أفعمت صدرى من شذاكِ الوديع فعاودي يانسمات الربيعْ
في بردك العذب وهذا الشذى داعي التآمٍ للفؤاد الصديعْ
فاشفي فؤاداً بالجوى ذائبًا كلف حبًا فوق مايستطيعْ

إلى قوله:

هبي فهذا الكون في منظرٍ ضاحٍ وهذا الروض حالٍ مريعْ

مرتفع، منخفض، معجب وطيه مبدٍ جلال الرفيعْ

فيه جمال وحيه فوق ما تخيل الشعرُ وفوق البديعْ

صب الأصيلُ النور في وشيهِ ناراً تلظى أو نضاراً يميعْ.

وفي الديوان أصلح البيت الثامن، فعاد:

حوى جمالاً وصفه فوق ما تخيل الشعر وفوق البديعْ.

وقدمه على البيت السابع فاصبح في الديوان رقم (٧)، وأبدل أيضًا في البيت رقم (٢٣) إذ كان:

هبي صبا لستِ سوى نفحة مشبعةٍ من سحر هذا (الربيع)

فأبدل في الديوان:

هبي فما أنت سوى نفحة مشبعةٍ من سحر هذا (الربيع)

وفي البيت (٢٧) أبدل كلمة (ريعانة) بـ(سحرية)، وفي البيت (٣٠) في الشطر الأول كلمة (التقى) بـ(الهوى)، وفي الشطر الثاني كلمة (والحب) بكلمة (والطهر).

١٠. قصيدة: دوحة الوادي:

نشرت في عدد ديسمبر ١٩٣٤م، صفحة (٥٩٢)، باب (الشعر الوجداني)، في (٢٧ بيتًا)، وفي (نسمات الربيع) صفحة (٥٦)، جاء في مطلعها:

أيا دوحة الوادي سلامًا معطراً

ينوبُ به عني النسيم متى هبا

يضمك في لطف الحنون مخاصراً

ويلثم إجلالاً لرهبتك التربُا

سلوتُ عهودًا بعد عهدك عذبة

وما كنت يومًا ساليًا عهدك العذبا

تلوحين دوني للخيال كمسرح

به تعرض الأيام ريعانة قشبا.

وقد أبدل في الديوان في البيت الثاني (يضمك) بـ(وضمك)، وكلمة (ويلثم) بـ(وقبل)، كما أبدل في البيت الرابع (كمسرح) بـ(كشاشة)، وكلمة (ريعانة) بـ(مزدانة)، أما في البيت (٢٤) وهو قوله:

قراتُ عليها أنها بي صبةٌ كما أنا لم أبرح بها هائما صبا.

فأبدل فيه بالديوان إلى (تدل بصمت أنها بي صبة)، وبقصائد عدد ديسمبر يكون الحامد آخر ما نشر في أبولو، وقد توقفت المجلة بعده عن الصدور.

قصائد الشاعر باكثير:

ونشر الشاعر والأديب الحضرمي والعربي الكبير علي أحمد باكثير (١٩١٠ـ١٩٦٨م) في مجلة أبولو ست قصائد، ابتدأ من عدد مايو ١٩٣٤ـ ديسمبر ١٩٣٤م، ولعل هذه القصائد ممن احتواه ديوانه المخطوط (المصريات)، وهو الديوان الذي وعد د.محمد أبوبكر حميد بإصداره قريبًا، وهي بشرى نزفها للأدباء وقُرَّاء الأدب.



علي أحمد باكثير

١. قصيدة: واقفة بالباب:

نشرت في عدد مايو ١٩٣٤م، صفحة (٨٦٢)، باب (شعر الحب)، في (٢٥ بيتًا)، يقول في مطلعها:

قولي بعذب لماك ـ وهو أليتي ـ

ماذا وقوفك في الصباح أمامي؟

هلا تركت فتى يعالج درسه

يبغي الصعود إلى المقام السامي؟

مازال مجتمع الخواطر ماضيا

في حل كل عويصة بسلامِ

حتى وقفتي له ببابك والتقى

نظراكما فهوى بغير حسامِ

إلى قوله آخرها:

النور والروض المنور والضحى

لك يا مليحةُ من ذوي الأرحام

أبدى لعين الفن حسنك كله

تتقدمي (بالفن) ألفي عامِ

فالفن من عشاق حسنك يقتفي

باللثم منكِ مواطن الأقدامِ

لو شف منك رداء جسمك مرة

لشفيته من غلةٍ وأوامِ

وهذه القصيدة هي الأولى التي نشرها باكثير في أبولو، وزينت الصفحة بصورته، وكتب تحتها (الشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير)، واستشهد بالبيت الأخير منها د. أحمد عبدالله السومحي في كتابه (علي أحمد باكثير: حياته ـ شعره الوطني والإسلامي)؛ إذ قال (كما تحدث عن نواح حسيَّة في المرأة وذلك مثل قوله:

لو شف منك رداء جسمك مرة لشفيته من غلةٍ وأوامِ.

ـ إلى قوله: غير أن هذه المآخذ في نظري لم تكن ذات خطر كبير؛ ذلك أن شاعرنا قد قال هذه الفلتات وهو في بواكير عمره، ومن الطبيعي أن يتغزل شاب في ربيع العمر، وأن تصدر منه هذه الألفاظ، والتصورات، على أن شعر باكثير الغزلي في فترة النضوج قد خلا من مثل هذه الأمور)(٧)، وأرى أن هذه هي من أثر مدرسة أبولو في شعره حينما قدم القاهرة، وربطته علاقات ودية مع شعراء أبولو مثلما سيأتي في سياق شعره المنشور في مجلة أبولو.

٢. قصيدة: الرفيق المضاع:

نشرت في عدد يونيو ١٩٣٤م، صفحة (٩٧٦)، باب (الوجدانيات) في (٢٤ بيتًا)، قدمها بقوله: (إلى صديقي الأديبين المبدعين الشاعر صالح جودت (٨)، والشاعرة جميلة العلايلي (٩) إشارة إلى واقعة حال)، قال في مطلعها:

عج بالأديبة والأديب أو بالحبيبة والحبيب

واسألهما ـ في رقةٍ ـ ماشان خلكما الغريب؟

خلفتماه وحده أمر لعمركما عجيب

سأل الشوارع عنكما وسؤاله فيها مريب

حيران يمشي والدموع لها بخديه صبيب

لم يدر: حق مارآهُ قبلُ أم حلم غريب!

وقد استشهد د. السومحي بأبيات منها في كتابه المذكور آنفًا (١٠)؛ إذ كتب منها (١٤ بيتًا)، وأشار الى مصدره في أبولو.

٣. قصيدة: وحي سمراء:

نشرت في عدد يونيو ١٩٣٤م، صفحة (٩٩١)، باب (شعر الحب)، في (٢٠ بيتًا)، قال في مطلعها:

على عينيك ياسمراء مصداق النبوآت

أقاما لوجود الله آياتٍ وآياتِ

ترقرق فيهما نور كخمر في زجاجاتِ

هما نفذا إلى قلبي فذابت فيهما ذاتي.

كصوفيين في المحراب لجّا في المناجاةِ.

وفي ختامها:

وفي نهديك ياسمراء ما يقضي بإسكاتي

فلا أسطيع قولاً غير أناتٍ وآهاتِ.

ولعل قصيدته هذه (وحي سمراء) هي من وحي قصيدة الحامد (سمراء) المنشورة في عدد (مايو ١٩٣٤م) من مجلة أبولو.

٤. قصيدة: في الأزبكية (النظرة المفسرة):

نشرت في عدد يونيو ١٩٣٤م، صفحة (١٠٢٢)، باب (شعر الوطنية والاجتماع) في (٣٣بيتًا)، فيها يقول:

في (الأزبكية) والنسيم عليل والجوُ وضاحُ الجبينِ صقيلُ
ينساب حُلمُ العيد في أثنائه وكأن خفق نسيمه تهليلُ
وكأنه خدٌ أسيلٌ، ريقٌ نضرٌ، ورجع نسيمه تقبيلُ
وكأن حاليةُ العذارى أملت ورنت إليه، فزانه التأميلُ!
من حسنها ودلالها وأريجها صورٌ ترف خِلاله وشكولُ.

وفي ختامها:

أواه للفنان عف إزاره! كم ذا يذوب فؤاده المتبولُ!
ظمآن، والماء المثلج دونه ملءُ الكؤس، وما إليه سبيلُ!
تتبع التقوى خطى أقدامه وكأنما هو وحده المسئولُ
وتراقب الأخلاقُ لحظَ جفونه وحسابها عند (الضمير) طويل!.

٥. قصيدة: وحي الشاطئ:

نشرت في عدد سبتمبر ١٩٣٤، صفحة (٧٩)، باب (الشعر الوصفي)، في (١٤ بيتًا)، ولجمالها نوردها هنا كاملة:

بالله حدثنا حديثك يا جمال بلاتقيهْ
ماذا رأيت على (ستالي باي) بالإسكندريهْ؟

* * *

أشهدت أنصاف الكواسي ينتثرن على الشواطي
مثل الكواكب في السماء أو اللآلىء في البساط؟

* * *

أأرحت جِسمك من متاعبه، ولقلبك من أساه؟
وكرعت من ماء الحياة فعدت ممتلئا حياه!

* * *

أم عدت موقوذًا بسهمٍ صوبته إليك عَين ؟
فعرفت أن على جفون الغيدِ حيناً أي حين

* * *

ماذا لقيت من النهود؟ وويلتاه على النهود!
متنزيات في الترائبِ كالولائدِ في المهود!

* * *

نزق يمورُ بها على رغم الصلابةِ والجمود!
برمت بدغدغةِ الوجود فآهٍ من عبث الوجود!

* * *

مترهبات في حلى بيضٍ قلانسهن سود!
يُرحَمن من طولِ القيام وليس يَعرفن السجود.

* * *

الأبيات الستة الأخيرة من القصيدة أوردها د. السوسوة في كتابه(١١)، وأشار لمصدره في أبولو.

٦. قصيدة: أمس. واليوم:

نشرت في عدد ديسمبر ١٩٣٤، صفحة (٧٤٦)، باب (الشعر الوجداني)، في (١٦ بيتًا)، عنون الأبيات الأولى منها (١٢ بيتًا) بعنوان (أمس)، والأربعة الأبيات الأخيرة بعنوان (واليوم)، جاء في مطلع أمس:

يا حبيبي بردُ العقدُ ولم يبرد على الرشف ـ صداى
وانقضى أو أوشكَ الليلُ ولما أقض من فيكَ مُنَاى!

* * *

آه ما أحلاكَ في قلبي وعيني وذراعي ولساني!
ليتني أفنى بعينيك فأحيا في نعيمٍ غير فانِ.

* * *

أما رباعية (واليوم):

وانطوى العهدُ، وافردتُ لأشقى عائشاً في نصف روحِ
ليته نصفٌ سليمٌ غير ممنيٍّ بأشتاتِ الجـــروحِ
فلأمت بعدكَ كي ألقاكَ، أو فـلأ حيي بالذكرى لحين
وعزائي في يقيـــن أنني ألقاكَ في دار اليقين

هذه القصيدة أوردها كاملة د. السوسوة في كتابه(١٢)، وأشار الى المرجع (مجلة أبولو).

32
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

الخلاصة:

من النماذج الواردة المنشورة في مجلة أبولو في أعدادها المذكورة نستطيع معرفة تأثر الشاعرين الحامد وباكثير بمدرسة أبولو وارتباطهما بها، ففيهما يبين للقارئ قبل الدارس هذا الأثر والتوجه، وهي بلا شك مرحلة من مراحل حياتهما الشعرية قبل أن يتأثرا بقناعات أخرى، وإسهامهما في إثراء مجلة أبولو بقصائدهما هو حضورٌ في ديوان الشعر العربي الحديث عبر هذه المدرسة الرائدة، ولمدرسة أبولو أعلام من الشعراء ارتبط شاعرانا بهم وجدانيًا وفنيًا، حتى ما بين فئة الشباب، فنشدان باكثير عن رفيقيه الشاعرين (صالح جودت، وجميلة العلايلي) وبثهما شكواه يدل على حميمية العلاقة وصدق المشاعر، وإذا نظرنا في دواوين الشاعر الحامد نرى أثر مدرسة أبولو واضحًا وجليًا في مسار حياته الشعرية، رغم نسب النقاد له للرومانسية المجردة، في حين ظلت رومانسية الحامد تنظمها مفاهيم مدرسة أبولو، وقد خالطت شعر باكثير في المرحلة المصرية بعد أبولو تأثيرات أخرى، حتى ابتكر قصيدة الشعر المرسل أو الحر مثلما عرف، وربما أبعدته المسرحية بعد ذلك عن الشعر فهجره ولم يعود إليه إلا نادرًا، لهذا نرى أن لحضرموت وشاعريها العملاقين ريادة وإسهامًا في تجديد الشعر العربي الحديث وتثبيت دعائمه، فرحم الله شاعرينا الحامد وباكثير وجزاهما عنا كل خير.

الهوامش:

١) يشكل على بعض النقاد والدارسين للأدب تحديد الحقبة الزمنية وتصنيفها، والصحيحة هي إن كل عقد في القرن يشكل حقبة، فالعشر السنوات الأولى في القرن العشرين مثلاً (١ـ ١٠) هي العشرية، ومن (١١ـ ٢٠) هي العشرينيات، ومن (٢١ـ ٣٠) هي الثلاثينيات، ومن (٣١ـ ٤٠) هي الأربعينيات وهكذا إلى آخر القرن، وقد أوجد د. عبد العزيز المقالح العذر للدارسين في خلطك للحقب في قوله: (فالخمسينيات عقد كامل من الزمن، والعقد في عصرنا لم يعد مجرد عشر سنوات بل صار عهداً أو عصراً تنشأ أثناءه وتتلاشى مذاهب أدبية وفكرية كما حدث ـ على سبيل المثال ـ للوجودية التي ظهرت في الوطن العربي خلال الخمسينيات ثم تلاشت في الستينيات ولم يعد يسمع عنها كثراً الآن). في كتابه (دراسات في الرواية والقصة القصيرة في اليمن) ص (١٤٧).

٢) مدخل إلى دراسة أبولو ـ الجماعة والمجلة: د. محمد عبد المنعم خفاجي ـ د. عبدالعزيز شرف ـ المجموعة الكاملة مجلة أبولو (المجلد الأول) ص (٣٠) المقدمة.

٣) المصدر السابق، ص (٢٤).

٤) ديوان نسمات الربيع ، الأعمال الشعرية الكاملة: تريم للدراسات والنشر.

٥) المجموعة الكاملة لمجلة أبولو ـ المجلد الأول ص (٢٠ـ ٢١).

٦) صالح الحامد بين التقليد والتجديد، د. مبارك حسن خليفة ـ مطبوعات جامعة عدن ١٩٥٥م ـ ص ١٤.

٧) علي أحمد باكثير: حياته ـ شعره الوطني والإسلامي: د. أحمد عبدالله السومحي: إصدارات نادي جدة الأدبي ـ الطبعة الأولى: ص (١٨٦ـ ١٨٧).

٨) الشاعر صالح جودت (١٩١٢ـ ١٩٧٦م)، شاعر مصري مجيد، يعد أحد أركان مدرسة أبولو الشعرية، له دواوين شعرية كثيرة منها (ديوان صالح جودت ـ ١٩٣٤م) وديوان (ألحان مصرية ـ ١٩٦٨م) وديوان (الله والنيل والحب ـ ١٩٧٣م).

٩) الشاعرة جميلة العلايلي (١٩٠٧ـ ١٩٩١م)، شاعرة مصرية مجيدة، ارتبطت بمدرسة أبولو الشعرية شاعرة وناقدة، ولها من الدواوين الشعرية (صدى أحلامي ١٩٣٦م)، (صدى إيماني ـ ١٩٧٦م)، (نبضات شاعرة ١٩٨١م).

١٠) علي أحمد باكثير ـ حياته ـ شعره الوطني والإسلامي، ص (٦٣ـ ٦٤).

١١) المصدر السابق، ص (١٨٦ـ ١٨٧).

١٢) المصدر السابق، ص (٤٦).



ملف خاص عن كتاب الأستاذ سالم مفلح (قضايا تاريخية من حضرموت، من التاريخ السري للاستعمار البريطاني، التزوير واستلاب الهوية)

ملاحظات على كتاب: (قضايا تاريخية من حضرموت من التاريخ السري للاستعمار البريطاني التزوير واستلاب الهوية)

أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

تفنيد ادعاء مفلح بتزوير مصادر تاريخ حضرموت "تاريخ شنبل" أنموذجا

أ.د. محمد يسلم عبدالنور

مُساءلة الأنساق البارزة في لغة النقد الداخلي للرؤية النقديّة المفلحيّة في كتاب (التزوير واستلاب الهويّة) لسالم فرج مُفلِح نقد (تاريخ شنبل) أنموذجًا

د. زهير برك الهويمل

تأثير الوجود العثماني في تقويض البنية الاجتماعية في المجتمع الحضرمي - حسب مشروع الرؤية - للباحث سالم مفلح

سالم القاضي باوزير

الملف السرّي للاستعمار من خلال كتاب مفلح

عوض سالم بن حمدين

34
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

ملاحظات على كتاب
(قضايا تاريخية من حضرموت من التاريخ السري للاستعمار البريطاني التزوير واستلاب الهوية)



أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

يعد هذا الكتاب الثاني للباحث والمؤرخ سالم فرج مفلح (يرحمه الله)، وقد قوبل في الأوساط الثقافية الحضرمية بوجهات نظر متنوعة المشارب والتوجهات؛ فبينما انطلق البعض من قناعاته الشخصية لأطروحات المؤرخ مفلح، هناك من وجد في آرائه الجريئة الناقدة للمدرسة الصوفية الحضرمية جبهةً معزِّزة لمواقفهم الضدِّية تجاهها، وفي المقابل ظهرت وجهات نظر مغايرة تراوحت بين الرفض الكامل أو التحفظ.

لهذا ما إن صدر الكتاب حتى اندفع إليه المتحمِّسون؛ للاحتفاء به، بوصفه كشفًا جديدًا أو دراسة فريدة، وذلك بتنظيم ندوة علمية تم اختيار محاورها من فكرة الكتاب نفسه، وعندما عرض عليّ أحد الأصدقاء المشاركة في هذه الندوة، تحفظت في البداية من منطلق أن التعاطي العلمي مع الكتب الصادرة يتم عادة بعقد حلقات نقاش مفتوحة الفضاءات، تضع الكتاب في سياقه العلمي؛ بوصفه اجتهاداً بشرياً قابلاً للنقد الموضوعي، ومما عزَّز من تحفظي في تلك الأثناء ما لاحظته من أن الجهات المنظمة للندوة -وقد أكون مخطئًا - تقدمت عندهم قضية الترويج للكتاب، والاحتفاء به على قضية النقاش العلمي المستقل، لكن بعد قراءتي للكتاب وجدت من المناسب الإدلاء بدلوي والمشاركة سواءً في ندوة، أو حلقة نقاش، أو بنشره في المجلات الثقافية، ومواقع التواصل الاجتماعي، فذلك يتسق مع اهتماماتي في قراءة المؤلفات التاريخية، التي أجد فيها إثراءً للمشهد الثقافي الحضرمي، ثم بعد قراءتي المتأنية للكتاب تقدم الواجب العلمي النقدي على غيره من الدوافع الأخرى.

وبداية لابد من الإشارة إلى أن قراءتي المنشورة عام ٢٠٠٨م لكتاب المؤرخ مفلح الأول بعنوان: (حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة؛ العاشر والسابع عشر للميلاد بين الأباضية والمعتزلة- مشروع رؤية)،

35
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م



يمكن عدُّها جزءًا أصيلاً من هذه الملاحظات على هذا الكتاب الثاني، الذي يُعدُّ امتداداً عضوياً لرؤية المؤلف التي تبحث بدرجة أساسية في قضية التحولات المذهبية في العصر الوسيط في حضرموت، على خلاف ما هو سائد أو متعارف عليه؛ بمعنى آخر إن قناعاتي المتحفظة على الكتاب الأول لم تتزحزح، بل أسهم الكتاب الجديد في تثبيتها وتجاوزها؛ لهذا ودرءًا للتكرار وجدت من المفيد الربط بينهما، وذلك ليكون ملحقًا لهذه القراءة في نهاية هذا المقال.

وإذا عملنا مقارنة علمية أولية بين الكتابين فلن تكون لصالح الكتاب الثاني البتة؛ لأن الأستاذ سالم مفلح قد ظهر في الأول بمظهر المؤرخ الحصيف المستميت المسيطر على الفكرة المركزية لموضوع كتابه، بعكس ما ظهر في هذا الكتاب (الثاني)؛ إذ بدا ملحقًا أو مستدركًا لسابقه؛ ففيه نجد شخصيات (مفلحيّة) تجمعت في المكان الخطأ بخطاب متنافر غير متسق، فيه ما فيه من أسلوب المؤرِّخ المدقق، وغضب الثوري، وسطحية النسق الدارج فاختلط الحابل بالنابل، فكان ذلك على حساب هوية النّص؛ لهذا سلب مفلح نفسَه من مكانه الحصين في كتابه الأول، الذي وإن اختلفنا معه لكننا نحترم وجهة نظره وقدرناها.

وحتى نبتعد عن الحديث العام ولندلل على ما قلناه، ولأهمية القضايا التي يثيرها الكتاب، ممكن أن نحدد بتركيز شديد ملاحظاتنا في النقاط الآتية:

* إنَّ عنوان الكتاب أقرب للمنحى الدعائي التسويقي، وفيه من الارتباك الذي لا يعكس مضمونه؛ فالمعروف في عنوانات الكتب هو اختزالها لفكرة الكتاب بعنوان عريض، ولا بأس من عنوان صغير توضيحي يحدد مسار الكتاب واتجاهاته. أما في غلاف هذا الكتاب فجاء العنوان الأول بخط خفيف (قضايا تاريخية من حضرموت من التاريخ السري للاستعمار البريطاني)، وأسفل منه وبخط أعرض (التزوير واستلاب الهوية)، وهذا يجعل القارئ في حيرة عن أصل العنوان، ومدى علاقته بالمتن، وأيهما يجب أن يقدم، وقد يبدو هذا الترتيب شكليًّا لكن - وهذا الأهم - هو صيغة العنوان: (قضايا تاريخية من التاريخ السري للاستعمار البريطاني)، التي تحيل مباشرة إلى أن (جريمة) التزوير واستلاب الهوية الحضرمية، تم اكتشافها من الأرشيف الاستعماري البريطاني السري، وهو أمر قد يرفع سقف التوقعات في أن المؤلف استعان بكمٍّ هائل وجديد من ملفات ووثائق الأرشيف البريطاني، مكَّنته من كشف النقاب عن خفايا ذلك التاريخ، وأبعاد مؤامرة الاستعمار البريطاني وعملائه على حضرموت. لكن مع الاقتراب من صفحات الكتاب تتلاشى التوقعات، ويصطدم القارئ بهلامية العنوان، الذي لا يستند ولو على وثيقة تاريخية تسعفه ليرتبط مع مسمّاه، ولو من بعيد. ثم إن الإشارات التاريخية المتناثرة عن الدور البريطاني الخبيث في حضرموت سطحية، ومعروفة، ولا تمت للسرية بصلة لا

من قريب ولا من بعيد، بل اعترى بعضها أخطاء علمية تاريخية فادحة؛ سنشير إليها في النقطة الآتية.

* من أهم الأخطاء العلمية التي تؤكد أن معلومات المؤلف عن تاريخ الاستعمار البريطاني المباشر في المستعمرة عدن، وغير المباشر في بقية سلطنات ومشيخات الجنوب؛ غير دقيقة وبعضها وليدة سرديات خاصة في خيال المؤلف بعيدة عن حقائق التاريخ المعروفة؛ ما ذكره عن المستشار البريطاني (هارولد إنجرامس) بتحميله مسؤولية جريمة (مذبحة الحموم) عام ١٩١٩م، وأنها جرت بعلمه وتعاونه مع السلطنة القعيطية؛ لكسر شوكتهم، وعلى هذه السردية المتخيلة وصف المذبحة بأنها "كتلة ضخمة من الحقد الاستعماري الدفين" (ص١٧٧). ومعروف أن أول دخول لإنجرامس لحضرموت كان في عام ١٩٣٤م، عندما قام بجولة معلوماتية استخباراتية عن حضرموت نشرها عام ١٩٣٥م؛ في كتاب بعنوان (تقرير عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في حضرموت)، وقد تكرر اسم إنجرامس في الصفحات (١٧٦ - ١٧٧) خمس مرات بخصوص هذه الجريمة الكبرى؛ وهو الأمر الذي يؤكد أن إقحام إنجرامس في المذبحة لم يكن على سبيل السهو والخطأ الطباعي المغفور، ومعروف أن المستعمرين البريطانيين لا علاقة مباشرة لهم بهذه المذبحة، وأن تاريخ التدخل الاستعماري المباشر في شؤون حضرموت يعود إلى ثلاثينيات ذلك القرن (العشرين).

* ومما يؤكد عدم دقة المؤلف عن تاريخ الاستعمار البريطاني في حضرموت وضبابيته، وصفُهُ لإنجرامس في ذلك العام (١٩١٩م) بلقب (المستشار)، في حين أنَّ هذا اللقب الذي يُعدُّ شكلاً من أشكال التدخل البريطاني في المحميات البريطانية، ظهر بعد تاريخ المذبحة بثمانية عشر عامًا، عندما تقلّد إنجرامس هذا المنصب بعد توقيعه مع السلطان صالح بن غالب القعيطي اتفاقية الاستشارة عام ١٩٣٧م. كما أن سالم مفلح ذكر تاريخ المذبحة ١٩١٨م، وهذا غير صحيح والصواب ١٩١٩م، وقصة مذبحة الحموم كما تشير إليها الكثير من المصادر التي عاد إليها المؤلف يتحملها النائب عن السلطان (ناصر أحمد بوبك القعيطي) في الشحر، وأسرة السادة آل العيدروس الذين توسطوا؛ لغرض الصلح، ولا نريد الدخول في التفاصيل، ولكن هذه الضبابية التاريخية - ولن نقول التزوير التاريخي - التي بنى عليها معلوماته وعبارته الخطابية السابقة: "كتلة ضخمة من الحقد الاستعماري الدفين" تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن صوت الغضب الشعبي، والطرح المتهافت تقدم على رصانة المؤرخ وأمانته، وأن عبء عنوان الكتاب جعله يقحم المستعمرين البريطانيين في الزمان الخطأ، والمكان البعيد، وإن كنا لا ننكر سياستهم الخبيثة المدمِّرة أينما يحلون، وحتى بعد أن يرحلوا.

* وفي السياق نفسه حدّد في الكتاب عام اتفاقية عدن في (١٩١٧م)، وتكرر هذا الخطأ في مناسبات أخرى باستثناء (صفحة٢٩٤)، ذكر في فقرة واحدة عام ١٩١٧م، وذكر أيضًا عام ١٩١٨م، وهو العام الصحيح، وإذا قبل هذا الخطأ العلمي من طالب ماجستير، فإنه لن يقبل من كتاب يدّعي بأنه يبحث قضايا عميقة من التاريخ السري البريطاني، ومعروف أنه في أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م، كان لكل من السلطنتين الحضرميتين: الكثيرية والقعيطية موقفٌ مغايرٌ؛ ففي حين تعاطف القعيطيون مع بريطانيا ومالوا إليها، تعاطف الكثيريون مع العثمانيين، بل جرت بين السلطنتين في عام ١٩١٨م مناوشات سميت بحرب (قسبل)، ومن ثم فإن (معاهدة) أو (اتفاقية) عدن الشهيرة عام ١٩١٨م عقدت؛ لترتيب أوضاع ما بعد نهاية الحرب.

* ويستمر الكتاب في تقديم الدليل العلمي على عدم إحاطة مؤلفه بأبجديات تاريخ التغلغل الاستعماري في حضرموت، عن طريق معاهدات الصداقة مروراً بالحماية إلى معاهدات الاستشارة، ففي صفحة ٢٢٢ كتب: "في أواخر القرن الثالث عشر الهجري كان الاحتلال البريطاني قد ربط الدولتين القعيطية والكثيرية بمعاهدات الحماية والصداقة معتمداً في ذلك على ما تطلق عليه الدراسات النقدية الكولونيالية (عملاء الصفوة)" (انتهى الاقتباس). من المعروف أن السلطنة الكثيرية دخلت ضمنيًّا في معاهدة الحماية بموجب بنود معاهدة عام ١٩١٨م الموافق ١٣٣٦هـ؛ أي في منتصف العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري. فهل يعقل أن المؤلف لم يطلع على بنود هذه المعاهدة؟! وهل هو على غير دراية بأن من ارتبط بمعاهدات مع البريطانيين هم القعيطيون ابتداءً من عام ١٨٨٢م بمعاهدة الصداقة، ثم معاهدة الحماية عام ١٨٨٨م، ومعاهدة الصداقة متقدمة على الحماية، بينما قدم في النص المقتبس الحماية على الصداقة، وهذه ليست حقائق سرية، بل هي منشورة في كل الكتب التي تناولت هذه المرحلة، والتي عاد المؤلف إلى معظمها في مصادره.

* وفي (صفحة ٩٣)، يذكر: أن صلح إنجرامس سنة ١٩٣٤م أي قبل الوظيفة الرسمية لإنجرامس في حضرموت، في حين أن المعروف من إعلان الصلح أنه قد كان في عام ١٩٣٧م إلى عام ١٩٤٠م، ثم تم تجديده لعشر سنوات أخرى، وهناك أخطاء أخرى لكننا نكتفي بهذه الإشارات التي تؤكد أن معلومات المؤلف التاريخية عن الاستعمار البريطاني في حضرموت غير دقيقة، وبعضها يصل إلى الخطأ القاتل، الذي ينسف ما تقدم من أطروحاته، والمقدمات الخاطئة تؤدي ـ بلا شك ـ إلى نتائج خاطئة.

لكن لو تم إعادة ضبط العنوان فإننا قد نجد الثمين في الكتاب الذي يستحق المناقشة؛ خاصة قضية الهوية الحضرمية المسلوبة على حد وصف العنوان، وهي تحتل الصدارة في رؤية المؤلف؛ لهذا سيلاحظ القارئ تدفق شحنات مركزة لتأكيد هوية حضرموت الإباضية، ولا مشكلة في ذلك فهي وجهة نظر تاريخية خاصة، من حقه تبنِّيها والدفاع عنها، لكن المشكلة تكمن في استدعاء التاريخ ليتسيّد الحاضر، وغاب عن الكتاب أن الهويات الثقافية في المجتمعات البشرية متحركة، فهناك الكثير من الشعوب غيرت من لغاتها، وديانتها، على سبيل المثال مصر الفرعونية، ومصر القبطية، ومصر الرومانية، ومصر العربية. وهناك التغيرات المذهبية عند معتنقي الدين الواحد. وعلى أية حال فإن معظم التغييرات الثقافية المجتمعية تكون في بداياتها غير اختيارية، ومع مرور الزمن وتجذر حقائق الواقع يحدث ما يمكن وصفه بالقبول الجمعي للسائد الصامد، وخاصة عندما يكون محرك التغيرات من داخل المجتمع نفسه، وليس من خارجه؛ مثال على ذلك التحول العنيف أو القسري في المجتمع الإيراني الفارسي من مذهب أهل السنة إلى المذهب الجعفري الاثني عشري. وقريب من ذلك روما (إيطاليا) في عهد الإمبراطورية الرومانية الوثنية المقدسة، ثم عهد حكم البرابرة، وأخيراً روما المسيحية.

وما حدث في حضرموت في تاريخها الإسلامي والحديث والمعاصر هو تغيرات مذهبية في إطار الثقافة الإسلامية الجامعة، وأيًّا كانت مسببات هذه التغيرات، وتبعاتها الضارة فإن حضرموت تفاعلت مع الصراعات المذهبية، والتحولات السياسية؛ لهذا فإن التوقف عند ملمح ثقافي تاريخي بالدعوة (الثورية)؛ لإحيائه وقد صار في ذمة التاريخ، ولم يعد له مزاج مجتمعي، أو قبول عام، يعد ضربًا من التمنيات الخاصة – ولم نقل الهذيان –؛ لأنه بهذا المنطق

الغريب أولى بحضرموت المطالبة بثقافة مملكتها القديمة؛ التي كانت سائدة لما يقارب ألفَي عامٍ قبل الإسلام. ومن هنا تأتي الأهمية في الدراسات التاريخية الرصينة لفصل خطاب التاريخ – الذي يبحث عن الحقيقة؛ ليستمد منه التجربة والحكمة بوصفه كتلة واحدة بما له وما عليه – والخطاب التثويري؛ لتغيير الواقع بمحاولة نسف مراحل منتقاة من التاريخ، واستدعاء أخرى لجعلها المنقذ لحاضره.

ولتوضيح ما ذهبنا إليه بدايةً نشهد بعمق أطروحات المؤلف النقدية للمصادر الحضرمية، لكنه في تقديرنا لم يستطع الانفصال عن (مفلح) المناضل؛ صاحب القضية الوطنية التي لها مفرداتها الثورية والتنويرية المسموح بها في سياقاتها، ومكانها المستقل في ميادين النضال، وساحات الوغى، وأعمدة الصحف والمجلات، ومن أمثلة هذا الخطاب الثوري قوله في صفحة ٩: "ولهذا وجب تفكيك نصوص تلك الرؤية لاكتشاف خباياها، وأسرارها من أجل تجاوزها وإزاحتها من المشهد الوطني إلى غير رجعة؛ كشرط أساسي للنهضة والبناء"، وقوله في صفحة ١٠: "...إن معاناة شعبنا منذ وطئت أقدام المستعمرين الإنجليز إلى اليوم، هي نتيجة مباشرة لسياستهم التدميرية التي أخرجت شعبنا من التاريخ الإنساني ليصبح في عداد الشعوب المنقرضة وهي حية"، وقوله في ٥٣: "...لأنه أكمل طمس الهوية الحضرمية السياسية والثقافية والاجتماعية للشعب الحضرمي، وجعلها أثراً بعد عين، وأورث حالة عمى وطني دفع ثمنها الحضارمة غالياً من المعاناة والدماء والتمزق والتخلف والجهل".

في هذه النصوص المختارة حمّل المؤلف الاستعمار البريطاني، والمدرسة الحضرمية الصوفية كل الرزايا والمعاناة، ودعا خاصة إلى الثورة ضد (حضرموت الصوفية)؛ لأنها جاءت – كما يرى – على حساب (حضرموت الإباضية)، وهو بهذا يقدم افتراضاً غير مباشر مفاده؛ أنه لو قدر للمذهب الإباضي في حضرموت الامتداد ستكون الأمور أفضل، وهو افتراض لا يستطيع أحد أن يرفضه أو يقبله؛ لأنه لم يحدث، ولكن لا بأس من المقاربة مع الشقيقة (سلطنة عمان)، التي امتد فيها المذهب الإباضي في معظم أرجائها لقرون عدَّة، ومع هذا وإلى عام ١٩٧٠م – أي قبل وصول السلطان قابوس باني نهضة عمان الحديثة إلى سدة الحكم – كانت الأوضاع العامة فيها أكثر سوءاً مما هو عليه في حضرموت (الخرافية)، وسر الحكاية يكمن في أنَّ عُمَان تقدمت بإدارة وطنية سليمة ومخلصة، في حين أنَّ حضرموت تعثرت؛ لأسباب عدَّة ليس لها علاقة قريبة بالمذاهب الدينية وحركتها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

وفي الكتاب الكثير من مفردات الخطاب الثوري سنشير لبعضها عند الحديث عمّا وصفناه (بغضب النصوص)، لكن الجدير بالإشارة في هذا السياق إلى أن الكتاب الذي مدّ خطابه المعادي للصوفية حتى عصرنا الراهن، ودعا لإزاحتها كطريق وحيد نحو المستقبل المنشود، تغافل بشكل غريب عن واقع حضرموت الراهن، وانقسامها بين الصوفية (المحتلة لحضرموت)، وبين السلفية بكل أنواعها (الوافدة على حضرموت)، التي صار لها مؤخراً ثقلها الموازي. صحيح إن المؤلف المؤرخ سالم مفلح ينتمي ثقافياً للوسط السني الشافعي المعتدل غير المحسوب على الصوفية ولا على السلفية، لكن عدم إشارته إلى هذا التزاحم الذي يشترك أصحابه في القطيعة مع (هويتهم الإباضية الوطنية القديمة)، يثير الكثير من علامات الاستفهام.

إنَّ ضبابية معلومات المؤلف عن تاريخ الاستعمار البريطاني في حضرموت – كما سبقت الإشارة – جعلته يفترض وقائع لا مكان لها في التاريخ، ثم يشعلها بأسلوب ثوري

يمكن وصفه إيَّاها بـــ(غضب النص)، فهو يصب جام غضبه على المكتبة السلطانية، ويصفها بالشيطانية؛ لأنها احتضنت -بزعمه- كتابين متآمرين على حضرموت، وترك كل ما فيها من مؤلفات تعد بالآلاف، ثم ترك الاستعمار وما ينهبه من ثروات حضرموت، وصوّر مصير الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس بأنه قائم على مؤامرتهم لتأصيل الصوفية؛ كي تعيش في أمان، كل هذا بلا دليل علمي أو سراج منير، وفي هذا الصدد دمغ الكتاب بنصوص اتسمت بالطرح السطحي الملتحم بالغضب الشخصي من ذلك قوله: "غير إن إنشاء المكتبة في ظل الاستعمار البريطاني، لابد أن يكون وراءه هدف تدميري قاتل للهوية الوطنية"، وهنا لا تعليق لنا!.

وتأكيداً على نصوص الغضب التي ظهر فيها المؤلف شاهراً سيفه لا قلمه نلاحظه يستخدم ألفاظًا لا تليق بأهل القلم، وأصحاب المشاريع الثقافية الكبرى؛ لهذا ظهر الغضب في النصوص عند إصراره على قذف المتآمرين على هوية حضرموت ـ بحسب رأيه ـ بمفردات الشتيمة، مثل (دناءة، وخسة وخسيسة ونذالة وتبخيس قذارة وحقارة...وغيرها)، وهي تنتشر في الكتاب انتشار الغضب في الورق، وإذا قيل إن المؤلف حُرٌّ في أسلوبه، ومفرداته لتوصيل فكرته، وبلوغ غاياته، فإن أسلوب الغضب الجامح كثيراً ما يهز رؤية المؤرخ حتى لو عزّز آراءه واجتهاداته بالوثائق الدامغة.

وفي رأيي أن العنصر القوي في الكتاب يكمن في نقده التاريخي لبعض المؤلفات الحضرمية المشهورة في القرن العاشر الهجري وما بعده، لكن غلب على كثير من الاجتهادات أسلوب التأكيد من زاوية نظره الخاصة لقضايا تاريخية يصعب القطع فيها، وهذا جعله كمن يقرأ النص بعين واحدة، ومعروف أنه في غياب الأدلة الدامغة يستخدم المؤرخون عادة المنهجين الاستقرائي والاستنباطي؛ وهما من المناهج التي تقرب الصورة ولا تؤكدها؛ لهذا تجدهم كثيراً ما يستخدمون مفردات مرنة، مثل: ويبدو لنا، وفي اعتقادنا، ولعله ...إلخ، التي تحترم القارئ وترفع من قيمة المؤلف الذي هو غير ملزم بتأكيد ما غاب عنه الدليل القطعي؛ من أمثلة ذلك قوله: في صفحة ٢١ :"إن ما تم حذفه من نص الخبر هو (بن) في (يسر بن نجم)..."، وهو بهذا يختلق نصًّا جديداً ظنيًّا، ولا يذكر مصادره، وفي صفحة ٢٩ يورد أيضًا نصًّا من كتاب شنبل: "وقيل في السنة التي قبلها وصل السلطان جعفر"، ويعلق المؤرخ مفلح على النص بقوله: "وهل يعقل أن يكون غير متيقن من سنة حدوثه"، في حين أنَّ لفظة (قيل) تدل على المرونة، وليس الجزم وتتسق مع نصوص المصادر التي تعتمد على الحوليات، ومن الأمثلة التي تجعل استنتاجات المؤلف واهمة قوله: في صفحة ٤٥ : "من المؤكد أن يكون هذا الخبر منقولاً من مصدر تاريخي إباضي حضرمي، ولا بد أن صاحبه قد أورد كل تلك الأبعاد في صياغته الأصلية"؛ فهو هنا يؤكد ويقطع بدون ما يثبت استنتاجاته بمصادر تسنده، في حين أنَّ المؤلف لو استعان بمفردات مرنة - كما سبقت الإشارة - كأن يقول: ويبدو لنا.... إلخ، لكان أقوم، وأقوى لحُجَّته.

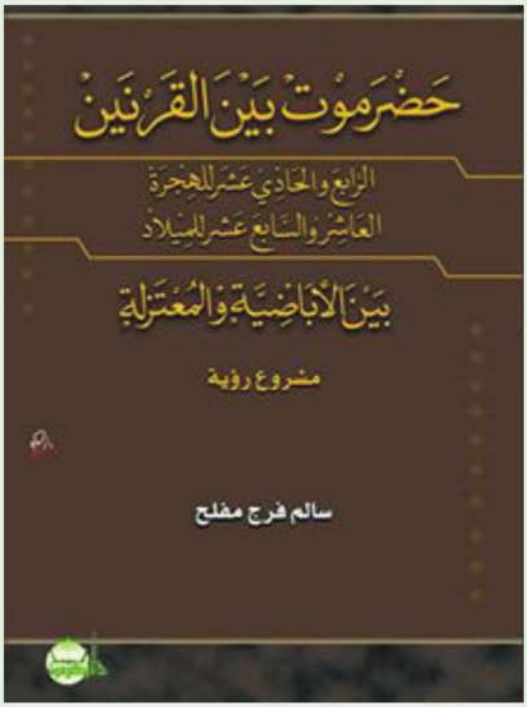
وفي تضاعيف صفحات الكتاب تستمر السرديات المتخيّلة التي تتعسف على النصوص بإسقاطات حديثة، لا تستوعبها المراحل السابقة فهو يستخدم مصطلح الشعب الحضرمي، والوطن الحضرمي، ويصوِّره كأنه لحمة سياسية متأصلة في التاريخ، ثم يقلّل من هذا الشعب من غير قصدٍ منه عندما يقول: إن أصحاب الرؤية السائدة شلوا حركته، وأنهم زرعوا فيه نفسية الإنسان المدجن بثقافة الهزيمة، والانكسار، وفي الآن ذاته تفترض إحدى السرديات شخصية الحضرمي المثالية النقية المقاومة، لاسيما عندما تحدث عن الهجوم الكثيري على بلدة قيدون

قال: "إن هذه الأفعال القبيحة يستحيل أن يقوم بها جنود حضارم في جيش بدر في حق أهلهم" (صفحة ٨٣)، وهذا التنزيه العاطفي للحضارمة المبالغ في رفعهم عن طبيعة المجتمعات الإنسانية، التي لا تخلو من وجود نماذج الخائن، والخانع، والمجرم، والبطل والشجاع والمخلص، وهذا الطرح الذي يسهل الرد عليه بمواقف تاريخية ومعاصرة نستنتج منه بأن هناك حضرموت مثالية متخيّلة تمنَّاها المؤلف، لكن الكتابة التاريخية الرصينة هي التي تعيد تصور الأحداث، وتقريبها كما كانت، وليس كما نحب ونتمنى.

والخلاصة أن الكتاب مزيج من التاريخ، والخطاب الوطني الثوري، والسرديات المتخيّلة، ولهذا سيُقرأ من زوايا نظر متنوعة، لكن هذا الثلاثية شبه المتنافرة في رأينا نحن طلبة علم التاريخ قلّلت من القيمة التاريخية للكتاب – مع ما سبق ذكره من نماذج لأخطاء تاريخية وصفناها بالقاتلة – ومعروف أن هوية المؤرخ المنهجية تضيع عندما يتحول إلى جبهة تضطره إلى التمترس في خندق ضيق لمواجهة عدو افتراضي يتصيّد هفواته، ومثالبه، وهو بهذا يحرم نفسه من الفضاء المفتوح حيث حرية التحليق، واتساع الرؤية، وسلاسة الهبوط.

ملحق.. وهو مقالنا عن كتاب مفلح الأول:

صدر مؤخَّرًا عن دار حضرموت للدراسات والنشر كتابٌ مهمٌّ بعنوان: (حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة؛ العاشر والسابع عشر للميلاد بين الإباضية والمعتزلة، مشروع رؤية) تأليف الأستاذ سالم فرج مفلح. وضّح فيه المؤلف رؤيته العامة للكتاب بأنه يحاول تقديم مشروع رؤية، تعالج بعضًا من العيوب الكثيرة، التي يعانيها المكتوب عن تاريخ حضرموت الوسيط، وخلاصة ما أراد أن يقوله المؤلف: هو إن الأوضاع المذهبية والعقائدية والسياسية في حضرموت في العصر الوسيط لم تكن سنيّة، بل كانت بين الإباضية والاعتزال، وظلت



كذلك حتى العصر الحديث عندما ظهر على مسرح الأحداث السلطان بدر بن عبدالله الكثيري (بو طويرق).

ولأن المؤلف قدّم رؤية مغايرة عما هو معروف ومكتوب ومتداول عن تاريخ حضرموت السياسي والمذهبي، فقد أثرى هذا الطرح الكثير من الجدل والنقاش في الأوساط الثقافية المهتمة بتاريخ حضرموت، وتعدّدت الآراء والمواقف حوله، بين التعاطي المرن، والإعجاب المفرط، والرفض المطلق.

وما سأسجله هنا يدخل في باب التعاطي المرن مع هذا الكتاب المثير؛ عن طريق ملاحظات عامة وعابرة، دوَّنْتُها في أثناء القراءة، حاولتُ أن تكون بعيدة عن لغة الذم، والمدح، أو اقتناص الأخطاء.

لقد انطلق المؤلف من منهجية واضحة وهي الشك تارة، والرفض والتحييد تارة أخرى لغالب ما وصلنا من الموروث الثقافي لفترة الدراسة المتناولة، والتي تتعارض في أطروحتها مع الفرضيات المسبقة للمؤلف، ولكنه يعود إلى نصوص محددة لصالح مشروع بحثه، وقد وجد ضالته في نصوص أدبية يرى أنها أفلتت من يد الاغتيال، وواقع الحال أن المؤلف معذورٌ بعض الشيء عندما لجأ إلى بعض النصوص

الأدبية، واجتهد في قراءتها وحاول استنطاقها؛ لاستجلاء جانب من الحقيقة التاريخية الغائبة والمغيبة. وفي اعتقادي أن الاستخلاصات التي خرج بها المؤلف لا تتحمل البناء المعرفي الكبير، والجديد الذي حاول أن يبرزه في مشروع الرؤية.

إن القراءة المجددة لأحداث التاريخ لابد أن تكون متجددة ومتأنية؛ لأن حقيقة الماضي لا تنكشف دفعة واحدة، بل عبر درجات ومراحل متتابعة وبوجوه جديدة، ولكن يشترط عند القراءة المتجددة للتاريخ ومصادره الابتعاد قدر الإمكان عن هيمنة الفرضيات المسبقة، ومنطق اقتناص السقطات.

والكتاب جمع بين محاولة تأكيد رؤية خاصة عند المؤلف ومشروع الرؤية، وكنتُ أظن قبل قراءتي للكتاب بأنني سوف أغرق في بحر من التساؤلات، أو سأمتد مع خطوط عامة عبر قرون عديدة من تاريخ حضرموت الوسيط والحديث، وإذا بنا نوجَّهُ من البداية وعن دراية إلى ما أراد أن يؤكده المؤلف، واضعًا أمامنا مقدماته ودافعاً لنا بلطف إلى نتائجه، وفي اعتقادي أن المؤلف وعن وعي منه ترك للباحثين والمهتمين فضاءً واسعًا لاختيار تساؤلاتهم، ورمى حجارته في المياه الراكدة؛ حتى تتسع دوائر المعرفة وتحتوي التساؤلات.

ولا شك في أن المؤلف كباحث موضوعي يتمنّى ظهور الحقيقة التاريخية، أو ما يقرب إليها وإن بدت على عكس ما يرى، وإن كنت مع من تشكّك في أكثر أطروحات المؤلف، فإن هذا الشك أو الرفض يستجوب طرح الدليل العلمي المغاير، وهذا كما يبدو هدف معلن للمؤلف لاستدراج (الناس) نحو إعادة قراءة التاريخ، وإن أمكن إعادة كتابته.

ومن الأمور التي لفتت النظر في الكتاب؛ ذلك البعد المذهبي الطاغي للأحداث السياسية التي شهدتها حضرموت في فترة الدراسة، وقد صرح المؤلف في أكثر من موضع أن صراع القوى المتنافسة في حضرموت، هو صراع مذهبي بغطاء سياسي وليس العكس، وهذا الطرح الصارم يجرد الأحداث التاريخية من كونها حركة بشرية، تتأرجح فيها أولويات الصراع البشري وفقًا لمتغيرات المصالح، وتنوع المؤثرات، وتغير موازين القوى.

ومما يلفت النظر أيضًا في هذا الكتاب أن المؤلف رفض الرواية السائدة على وجود التصوف في حضرموت، قبل القرن العاشر الهجري، وميّز بين الزهد الذي كان سائداً في حضرموت والتصوف، وإذا كان تاريخ حضرموت إلى القرن الثامن الهجري يكتنفه الكثير من الغموض حسب اتفاق معظم المؤرخين، فإن الفترة اللاحقة تمثل حالة انفراج نسبي؛ إذ يستطيع الباحث الصبور انتزاع مادته التاريخية من مصادر الموروث الديني والاجتماعي الحضرمي، هذا فضلاً عن المصادر اليمنية الأخرى التي تناولت أحداث اليمن بشكل عام، وهذا من شأنه تصحيح بعض الآراء التي وردت في مشروع الرؤية. وعلى سبيل المثال يظهر ذلك واضحًا عند الانقسام الداخلي المذهبي المسيَّس بين أمراء السلطنة الكثيرية في بداية القرن الحادي عشر الهجري، وتدخل الدولة القاسمية الزيدية فيه. فبالعودة إلى المصادر القاسمية، مثل (تحفة الأسماع والأبصار) للجرموزي، و(طبق الحلوى) لابن الوزير، و(تاريخ اليمن) لحسام الدين الملقب أبو طالب لا نجد النفَس المذهبي عند تناولهم للعلاقات القاسمية الكثيرية، ونستنتج من هذه المصادر أن الصراع كان سياسيًا بأهداف متنوعة.

إن الهزة الفكرية التي تعمَّدها الأستاذ سالم فرج مفلح جديرة بالتأمل وإمعان الفكر، وهي رؤية قد نختلف أو نتفق معها، لكنها في جوهرها دعوة صادقة، تبحث عن حقائق التاريخ، وتستفز الهمم، والكتاب (المشروع) - ككل المشاريع - يحتاج إلى العمل المؤسسي، والجهود المشتركة التكاملية المخلصة التي ترجع دائماً إلى التراث فتسبر غوره، وتمتص رحيقه ليعاد إنشاؤه نوراً يضيء الطريق.

42
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

تفنيد ادعاء مفلح بتزوير مصادر تاريخ حضرموت

"تاريخ شنبل" أنموذجا

المدخل:

صدر عن دار حضرموت للدراسات والنشر وبنفقة مؤسسة أحفاد العباس للتنمية كتاب: **قضايا تاريخية من حضرموت من التاريخ السري للاستعمار البريطاني (التزوير واستلاب الهوية)** للباحث سالم فرج مفلح (رحمه الله) الطبعة الأولى، ٢٠٢١م في (٣٩١ صفحة)، وقد أثار الكتاب لغطًا بين الباحثين والدراسين، وانقسموا فيه على قسمين: مؤيد ومعارض، رغم أن المعلومات والأفكار في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن الناشر، فهي تعبر عن المؤلف.



أ.د. محمد يسلم عبدالنور

جاء هذا الإصدار ليؤكد من جديد ما ذهب إليه المؤلف في مؤلفه الأول الصادر سنة ٢٠٠٦م الموسوم بـ: **حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة بين الإباضية والمعتزلة مشروع رؤية**، والقضية التي ناقشها المؤلف في كتابيه واحدة تتمحور في تعرض تاريخ حضرموت الإسلامي كله لتزوير وتحريف وتشويه لحقائقه على يد الأخلاف(١).

وبما أن حديثنا هنا ما جاء في كتابه الثاني، حري بنا أن نستعرض ولو سريعًا ما حوى بين دفتيه.

فقد جاء في ثلاثة أبواب: الأول منها عن المصادر التاريخية الحضرمية (تأملات نقدية أولية حول المصادر التاريخية الحضرمية) وأزمة المعرفة التاريخية الحضرمية، وسوف نفرد بالحديث عن ذلك في ورقتنا هذه.

أما الباب الثاني: فعن المسألة العقائدية والفقهية والاجتماعية، وتتلخص فكرة هذا الباب في أن حضرموت لم تعرف التحول إلى المذهب السني الصوفي وسيادته إلا في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) في عهد السلطان الكثيري بدر بن عبدالله أبو طويرق (ت٩٧٢هـ).

والباب الثالث والأخير عن المسألة القبلية، وفيه كان الحديث عن أنساب بعض القبائل الحضرمية على غير المعتاد والمتعارف عليه.

والحديث عماً جاء في الكتاب كله وتفنيده يطول ويطول، وحسبنا هنا أن نأخذ جزئية واحدة للمساحة والزمن المحدد لذلك، ولعلها تكفي لما جاء في الكتاب.

هذا فضلا عماً ورد في الكتاب من مغالطات علمية، واستخدام ألفاظ غير بحثية كالهدم والنسف والتدمير،

43
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

وإطلاق الأحكام المسبقة، والتناقض وعدم فهم المعلومة التاريخية أو لنقل عدم اطلاعه ومعرفته بجميع المعلومات في الحدث الواحد.

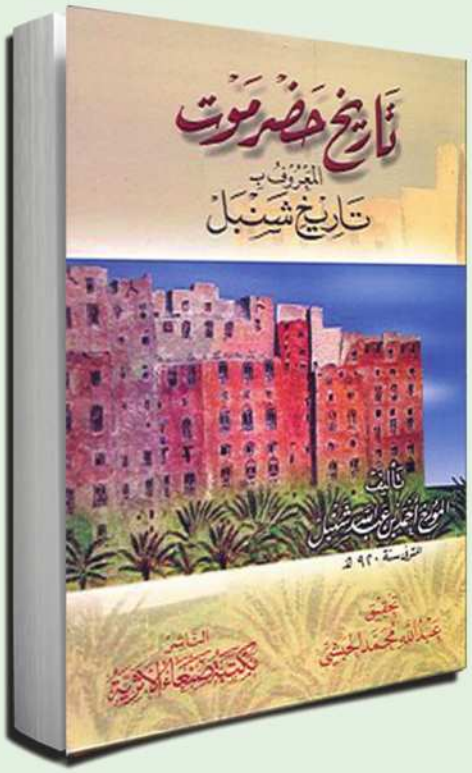
ما أشار إليه مفلح في الباب الأول من كتابه وكما أشرت إلى ذلك مسبقًا وهو ما تعرض له تاريخ حضرموت الإسلامي كله من تزوير وتحريف وتشويه لحقائقه على يد الأخلاف الذي أطلقه عليهم المؤرخ علوي بن طاهر الحداد (ت١٣٨٢هـ) في كتابه جني الشماريخ: إن الأخلاف رأوا في سيرة الأسلاف ما ينكرونها فعمدوا على إفنائها وإخفائها(٢).

هؤلاء الأخلاف - كما يقول مفلح - كانوا مرتبطين بالاستعمار البريطاني وخططه الرامية لتدمير الهوية الوطنية للشعب الحضرمي، مثل ما تفعله الحركة الاستعمارية الأوربية الغربية بالشعوب المستعمرة، كما فعلت مع شعب الجزائر وغيرها.

كما اتهم الاستعمار البريطاني بإعدام النتاج المعرفي الحضرمي، واصطناع نتاجٍ آخر بديل عنه مشوهًّ ومزوَّر، نعته بالتزوير والاستلاب، بل رمى أصابع الاتهام إلى من قام بهذا التزوير والوضع والتأليف وهو المؤرخ الحداد.

هذا وليثبت مفلح صحة كلامه أورد لنا خمسة نماذج لمصادر من تاريخ حضرموت ادَّعى أنها مزورة، هي تواريخ: شنبل، وبافقيه، وباسنجلة، وابن حميد الكندي، والعيدروس؛ إذ يرى أن هذه المصادر الخمسة من تاريخ حضرموت تم إعدادها في مطلع القرن الرابع عشر الهجري فترة الاستعمار البريطاني، في ظل حكومة القعيطي والكثيري(٣)، وهي فترة تأسست فيها حركة الإرشاد في إندونيسيا سنة ١٩١٤م.

ولعلنا هنا قبل أن نبدأ في التفنيد أن نشير إلى أن مفلحًا قد تناسى أو نسي مصادر تاريخية حضرمية أخرى، مثل: الجوهر الشفاف للخطيب التريمي (ت٨٥٥هـ)، والبهاء لابن حسان (ت٨١٨هـ)، والبرقة المشيقة للشيخ علي بن أبي بكر (ت٨٩٥هـ)، والدر الفاخر لباجمال (ت١٠١٩هـ)،



فهل يشملها ذلك التزوير الذي ادَّعاه مفلح على غيرها من تواريخ حضرموت.

وسنكتفي في التواريخ المزورة التي ذكرها بتاريخ واحد وهو أساس هذه التواريخ وأقدمها وربما نشير من هنا وهناك إلى ذكر البعض الآخر.

تاريخ شنبل: طعن مفلح في هذا المصدر من وجوهٍ عدَّة، سواءً كان في التاريخ نفسه أو تسميته أو عنوانه المضطرب، أو في انتساب التاريخ إلى مؤلفه، أو شخصية المؤلف غير المعروفة والمجهولة، أو في نسخ ذلك التاريخ، أو في حوادثه وما جاء فيها من تناقض بحسب فهمه -الخاطئ- وبحسب ما أخذه وتعقبه على محقق الكتاب (عبدالله محمد الحبشي).

١ - ادعى أن شخصية المؤلف غير معروفة ومجهولة وإنما أشهره مؤلفه المنسوب إليه، والتناقض في اسم مؤلفه، واستهزائه بلقبه شنبل، وأن اللقب يعني النعال، وأنه لا يوجد من ينعت بهذا في فروع أسرة آل أبي علوي(٤)، إلى غير ذلك من ادعاءاته، التي سنفندها جملة وتفصيلاً.

فالمؤرخ هو: أحمد (ت ٩٢٠هـ) بن عبدالله بن علوي شنبل بن حسن بن أحمد (ت عدن ٨٢١هـ) بن محمد أسد الله (ت٧٧٨هـ) بن حسن الترابي (ت ٧٢١هـ) بن علي بن الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي (ت٦٥٣هـ) ونمسك القلم هنا لشهرة ذلك النسب عند العام والخاص.

وحسن بن أحمد في عمود نسب مؤرخنا هو جد آل شنبل بالمخا وزيلع ومكة(٥).

وشنبل بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح الموحدة(٦)، وتعني قبله ورشفه وثاغمه ولثمه بمعنى واحد، وبنو شنبل بطن من العلويين بالحجاز(٧).

يعني لا نعال ولا حذاء ولا غيره، ولعل مفلحًا قد أخذ اللفظة من المجتمع العدني ويعنون بها النعال ولعل اللفظة هندية المصدر.

ترجم لشنبل عدد من المؤلفين فضلاً عمَّن ذكره(٨)، وليس حجة من لم يترجم واحد كالعيدروس مثلاً في النور السافر في عدم وجود الشخصية.

ومن خلال استعراض نسب المؤرخ يتبين لنا بجلاء نسبته إلى قبيلة السادة آل أبي علوي، أما ادعاء مفلح(٩) بأن الشلي لم ينسبه إلى آل أبي علوي، فهذا من المضحك؛ لأن كتابه المشرع الروي خاص بتراجم آل أبي علوي، ولو اطلع على اسم الكتاب لتأكد من ذلك، فهو كما هو مرقوم في طرة الغلاف بـ: **المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي.**

ويحتج مفلح بعدم وجود أسرة شنبل في فروع قبيلة آل أبي علوي، وإننا لا نجد منهم إلا المؤرخ المزعوم ووالده وابنته المزعومين(١٠)، وهنا نوضح أمورًا غابت عنه:

أن أسرة شنبل من الأسر العلوية، وهي من أعقاب علي بن الفقيه المقدم، كما بينت ذلك في عمود النسب، وهناك أربع أسر مع أسرة شنبل هي من أعقاب علي بن الفقيه المقدم نفسها، وتعرف بالشينات الخمسة، وهي: الشاطري، وباشيبان، والشيبة والحبشي(١١).

وأما إنه لا يوجد بوادي حضرموت اليوم من يحمل اسم أو لقب شنبل، فهذه أيضًا ليست حجة على عدم الوجود، فالأسرة موجودة وأعلامها كذلك معروفون في كتب تراجم السادة آل أبي علوي كما سأبينه لاحقًا، وهم أيضًا ما زالوا موجودين في الحجاز حتى القرن الثالث عشر الهجري كما ذكر المرتضى الزبيدي(١٢)، وربما انقرضوا بعد ذلك، أو دخل مسمى فرعهم في فرع آخر من فروع آل أبي علوي، كما أن هناك فروعًا أخرى من أسرة أبي علوي غير موجودة اليوم، ولا يدل هذا على عدم وجودهم، ومنهم: باشيبان، وكريسان، وباسندوة، والشلي، وغيرهم.

كما إنه ظهر من هذه الأسرة عددٌ من الأعلام ليس فقط المؤرخ ووالده وبنته؛ إذ تذكر المصادر منهم: عمه أبوبكر بن علوي شنبل (ت جدة ٩٠٦هـ) (١٣)، وأخاه علوي بن عبدالله المنقرض، وعمَّيه أيضًا محمد بن علوي الذي أعقب بالحبشة وأوسه وزيلع، وحسين بن علوي الذي رحل إلى زيلع، وجاور بمكة، وتوفي بها سنة ٩٣٢هـ(١٤).

٢- التاريخ ونسخه وطباعته: أشار الشلي إلى أن شنبل ألَّف تاريخًا مفيدًا في بابه، جمع فيه لطائف تاريخية، وأحكامًا شرعية، وفوائد بارعة ومواعظ نافعة(١٥)، كما وجدت نسخ من التاريخ في المكتبات الحضرمية، فهذا التاريخ - إذن - قد أثبت النسبة إلى مؤلفه، وربما إن الشلي لم يحسن وصف هذا التاريخ، ويعذر على ذلك؛ لعدم اطلاعه عليه، وإنما كان ينقل عنه بوساطة والده، الذي ينقل عنه كثيرًا.

ونستطيع أن نصف هذا التاريخ بانه تاريخ مختصر وعام لتاريخ حضرموت وحوادثه، واستطرادات إلى تاريخ اليمن والعالم الإسلامي، مرتب على السنين (التاريخ الحولي)، يبتدئ الموجود منه (النصف الأخير من سنة ٥٠١هـ إلى

سنة ٩٢٠هـ، وليس خاصًا بحضرموت فقط؛ فأول خبر فيه وفاة ابن المعلم الواسطي(١٦).

هل لهذا التاريخ مسمى وعنوان معين؟

لعلنا نقول إن المؤلف سمى تاريخه بتاريخ شنبل استنادًا إلى أقدم نسخة منه، وربما كانت هذه التسمية أيضًا من وضع النساخ؛ لعدم وضع المؤلف تسمية له(١٧)، كما وضعوا له تسمية التاريخ الأقدم الأكمل، ولعل هاتين التسميتين كافيتان له، فلا نحتاج إلى تسمية ثالثة والتي أطلقها عليه محققه وهي (تاريخ حضرموت).

فلا ضير من التسمية الأولى؛ فهناك كتب في التراث الإسلامي نسبت إلى مؤلفيها؛ لشهرتهم، رغم أن لها مسمى وضعه له مؤلفوه.

ونسخ هذا التاريخ كثيرة بمسمَّيَيْنِ، أقدمها نسخة المؤرخ علوي بن طاهر الحداد، التي نسخت سنة ١٠٣٢هـ، برسم علي بن أحمد بن عيسى الكثيري، والمحفوظة في مركز النور للدراسات والنشر، التابع لدار المصطفى للدراسات الإسلامية بتريم، وظلت مفقودة إلى أن تمكن المركز من امتلاكها في خطة مساعيه، الرامية للحفاظ على التراث الحضرمي، وتصوير معظم المكتبات الحضرمية، رغم أن مالكها (الحداد) أشار إليها في كتابه الشامل(١٨)، وهي التي مسماَّها النصف الأخير من تاريخ السيد شهاب الدين أحمد بن عبدالله بن علوي الشهير بشنبل، وتبدأ كما تبدأ به جميع النسخ من بداية القرن السادس الهجري، وواضح من المسمى أن هناك نصفًا آخر (الأول) ينتهي بنهاية القرن الخامس الهجري، وقد استفاد منه الحامد في تاريخه(١٩)، وهو إلى الآن ضائع ومفقود.

كما إن هناك نسخًا أخرى خُطَّت في القرن الرابع عشر الهجري، اتخذ بعضُها مسمى التاريخ الأقدم الأكمل، بعضها بخط محمد بن عوض بافضل (ت ١٣٦٩هـ)، وبعضها الآخر بخط عبدالله بن حسين رحيم بافضل (ت ١٤٠٠هـ) في مكتبات الاحقاف للمخطوطات بتريم، ومكتبة أحمد بن حسن العطاس بحريضة، وليس في مسمى هذه النسخ (تاريخ حضرموت).

وبهذا ينتفي ادعاء مفلح أن كل نسخ هذا التاريخ تنتمي إلى القرن الرابع عشر الهجري، وهي إما مجهولة الناسخ وإمَّا لها ناسخ معاصر(٢٠).

طبعات تاريخ شنبل:

طبع تاريخ شنبل ثلاث طبعات: الأولى كانت سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م المعروفة بطبعة شماخ المنفق عليها، والثانية كانت سنة ٢٠٠٣م عن مكتبة صنعاء الأثرية وهي طبعة مصورة من الأولى، والأخيرة عن مكتبة الإرشاد، صنعاء ٢٠٠٧م، وكلها بتحقيق عبدالله محمد الحبشي، وجعل له مسمًّى آخر رسمي هو (تاريخ حضرموت)، كما هو شأنه في الاتيان بمسميات عناوين كتب تاريخية حضرمية(٢١).

جاءت الطبعة الثالثة منه بعد أن زار الحبشي مركز النور، وعثر به على نسخة التاريخ الأصل أو الأم، مما اضطر إلى إعادة طباعته؛ ليجعلها كما قال أصلاً للتحقيق.

ولسنا هنا في مقام تقييم تحقيق الحبشي لكتاب شنبل أو غيره، وبالأخص الطبعة الأولى التي اعتمد عليها مفلح، ووجد بها من الإخفاقات والتناقضات التي كان الأَوْلَى بالمحقق أن يعمد إلى تبيينها وتوضحيها كما في خبر ولادة المؤلف؛ حيث جعل الناسخ شنبلاً اسماً لوالد المؤلف، وليس لقبًا لأسرته(٢٢). وحادثة سنة ٩٠٠هـ(٢٣)، وحادثة سنة ٩١٣هـ(٢٤)، وقيام الدول الكثيرية الثلاث في حضرموت(٢٥)، ولسنا هنا في مقام نقد التحقيق وما اعتراه من إخفاقات استند إليها مفلح في ادعاءاته.

أما إن شنبلاً لا يذكر وفاة بعض معاصريه، أو إنه يختصر أسماء الأعلام الحضارم في تاريخه، فالأول ليس حجة على

عدم اصطناع التاريخ؛ فلربما إنه نسي، أو تعمَّد ذلك، أو إنه نهج منهجًا هم خارج نطاقه، وأما الاختصار فربما إنه لم يكن له معرفة بنسب علماء حضرموت من غير أسرته، أو لشهرتهم، أو إن المصدر الذي أخذ منه اختصر في هؤلاء وأطنب في أولئك.

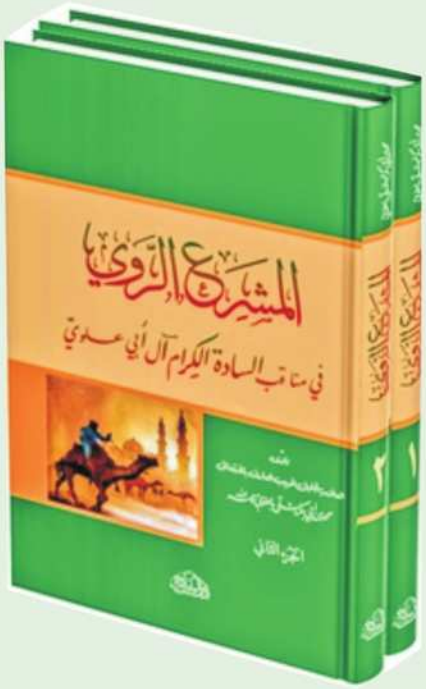
ولعلنا لا نطيل بإيراد تفاصيل أخرى بقدر ما نوجه دعوة لطلاب الدراسات العليا بالقيام بإعادة تحقيق النصوص والحوادث الحضرمية ودراستها في تاريخ شنبل؛ كون الحوادث الأخرى الإسلامية واليمنية قد نالت في مصادرها من العناية والتحقيق والدراسة.

ولعلنا نكتفي هنا بهذه الملاحظات عن شنبل وتاريخه وادعاءات مفلح عليه، ولو تتبعنا كل ما أورده لاحتاج منا إلى وقت وجهد يطول، وربما نفرد ذلك بالتفصيل في مناسبات قادمة.

أما التواريخ الأربعة الأخيرة، فكل ما قلناه عن شنبل كاف لدحض ما ادعاه عليه، ففي تاريخ الطيب بافقيه مثلاً فإن الراجح لدينا في تاريخ وفاته أنها في سنة ١٠٤٠هـ، وليس كما يذهب إليه بانها في سنة ١٠٠١هـ أو في سنة ١٠١١هـ؛ لأن ميلاده سنة ٩٧٠هـ وكل من ترجم له لم يشر إلى وفاته شابًّا، كما إنه اعتمد في تاريخه على كتاب تاريخ النور السافر للعيدروس (ت١٠٣٨هـ)، والعيدروس قد فرغ من كتابه سنة ١٠١٢هـ.

كما أن كتاب النور السافر للعيدروس الذي ادعى مفلح أنه شخصية مجهولة، وأن أول من ترجم له هو الشلي في السنا الباهر، ثم نقلها المحبي في خلاصة الأثر، وإن ثقافته ولغته هندية فكيف له أن يكتب تاريخًا باللغة العربية؟!(٢٦).

فنقول على وجه السرعة – وإن كان الأمر يحتاج إلى تفصيل في ذلك لا يسمح له الوقت المحدد –: إن العيدروس شخصية حقيقية؛ فهو: عبدالقادر بن شيخ (ت٩٩٠هـ) بن عبدالله (ت٩٤٤هـ) بن شيخ (ت٩١٩هـ) بن عبدالله



العيدروس (ت٨٦٥هـ) بن أبو بكر السكران (ت٨٢١هـ) بن عبدالرحمن السقاف (ت٨١٩هـ)، ونكتفي بذلك لشهرة نسب السقاف، ترجم لنفسه في كتابه النور السافر؛ فهي أول ترجمة له، عدد فيه أسماء كتبه، وغالبها باللغة العربية، ومعلوم أن كتاب النور السافر قد طبع ثلاث مرات: أولها ببغداد سنة ١٩٣٤م، والثانية ببيروت سنة ١٩٨٥م، والثالثة عن دار صادر سنة ٢٠٠١م، وأقدم نسخة له هي نسخة خطت له سنة ١٠١٥هـ ومحفوظة في مركز النور، فهو بهذا – أي تاريخه – ثابت النسبة إلى مؤلفه.

وكون المؤلف لغته وثقافته هندية ويصعب عليه تأليف كتابه باللغة العربية، فلعل هذا من المضحك؛ فمعظم كتبه باللغة العربية، فليس من المستحيل عليه تعلمها وإتقانها والتأليف فيها، فوالده حضرمي هاجر إلى الهند، واللغة والثقافة الإسلامية بها منتشرة، كما إننا نجد عكس ذلك من كان حضرميًا وهاجر إلى بلاد المهجر، فأتقن لغته ولغاته، وألف فيها، من أمثال العالم والفقيه والأصولي أبوبكر بن عبدالرحمن بن شهاب (ت١٣٤١هـ)، الذي ألف باللغة الأوردية، والعالم والمفتي المؤرخ علوي بن

طاهر الحداد (ت١٣٨٢هـ) الذي ألف باللغة الملايوية.

وهناك قضايا أخرى في كتاب مفلح تثير الجدل والرد عليه، من مثل عدم سيادة المذهب السني الصوفي في حضرموت إلا في القرن العاشر الهجري، في عهد السلطان بدر أبو طويرق، وعهد الأباضية بها، ومسجدا الخوقة والحمام (الحمام في عرف أهل وادي حضرموت هو المكان المسقوف من المسجد والمعد للصلاة في فصل الشتاء خلاف المكان الآخر المعروف بالضاحية المخصص للصلاة في فصل الصيف، وليس كما فهمه مفلح بأنه مكان التبول والاستنجاء)، وأيضًا مقتلة النائب الأيوبي في عدن عثمان الزنجيلي لعلماء تريم سنة ٥٧٦هـ، التي تذكر بأنها مذبحة أُعدَّت لعلماء تريم، وكل من أتى من الباحثين والدارسين أكد عليها بدون تردد، والأمر بعد التمحيص والبحث كان خلاف ذلك، كما أوضحته في رسالتي للدكتوراه(٢٧)، كما نترك أمورًا وقضايا أخرى في الكتاب سوف يتناولها الباحثون.

ولعلنا نعذر الأستاذ مفلحًا (رحمه الله) على ذلك؛ لقصور باعه وعلمه عن هذه الحقائق والمعلومات التاريخية، ولكنه يؤاخذ على الإفصاح عنها ونشرها، والشاعر يقول:

إذا ما قتلت الشيء علما فقل به وإياك والأمر الذي أنت جاهله

والهدف من هذه المتابعة ليس التجريح، بل التصحيح لأمور تاريخية، ربما بتقادم السنين تأخذ صبغة الصحة والاحتجاج، وأرجو ألا يجدني القارئ في ما قلته منحازًا لغير الحق، ولا يؤاخذني إذا وجد في كلامي بعض العبارات التي لا تروق له، فإن طبيعة الكلام النقدي غالبًا ما تكون جامدة، كما لا يظن بكلمة خرجت مني سوءًا أن تجد لها في الخير محملاً على ما يقوله سيدنا عمر بن الخطاب، وكم تمنيت أن يكون ذلك النقد والتفنيد والمتابعة على لسان غيري ولكفاني مؤونة الرد.

والله الموفق للصواب الذي نرومه دومًا.

الهوامش:

(١) مفلح: التزوير واستلاب الهوية ٧.

(٢) هذه العبارة هي من كلام شيخ الحداد: السيد أحمد بن حسن العطاس (ت١٣٣٤هـ) وعنى بالأخلاف أبناء الحضارمة الذين صاروا سنة وكان أسلافهم إباضية فأخفوا وأفنوا كل ما استطاعوا محوه عن تلك الحقبة، وغريب تحميل البعض لهذه العبارة ما لا تحتمله مع شدة وضوحها (الحداد: جني الشماريخ ٣٣).

(٣) مفلح: التزوير واستلاب الهوية ١٢٨.

(٤) مفلح: التزوير واستلاب الهوية ١٨، ١٩، ٢٣، ٢٦.

(٥) محمد ضياء شهاب: تعليقات شمس الظهيرة ٤٥١.

(٦) الشلي: السناء الباهر ١٢٤.

(٧) المرتضى الزبيدي: تاج العروس ٢٩/ ٢٩٩.

(٨) الشلي: المشرع الروي ٢/ ٦٧، السناء الباهر ١٢٤ -محمد ضياء شهاب: تعليقات شمس الظهيرة ٤٥١.

(٩) التزوير واستلاب الهوية ٥٤.

(١٠) التزوير واستلاب الهوية ٢٦.

(١١) الشاطري: المعجم اللطيف ١١٠.

(١٢) تاج العروس ٢٩/ ٢٩٩.

(١٣) شنبل: التاريخ ٢١٩.

(١٤) ضياء شهاب: تعليقات شمس الظهيرة ٤٥١.

(١٥) المشرع الروي ٢/ ٦٧، السنا الباهر ١٢٤.

(١٦) شنبل: التاريخ ٢٠.

(١٧) إذ لو وجد النصف الأول من هذا التاريخ لاهتدينا إلى مسماه، لأنه يعتاد أن يذكر المسمى في مقدمة المؤلف لكتابه.

(١٨) الشامل (طبعة برس٦) (طبعة مركز حضرموت بتحقيقنا ١/ ٢٥٨).

(١٩) تاريخ حضرموت ٢/ ٤٤٣.

(٢٠) التزوير واستلاب الهوية ٢٠.

(٢١) على سبيل المثال: تاريخ الشحر للطيب بافقيه (١٩٩٩م) وتاريخ حضرموت لابن حميد الكندي (٢٠٠٣م) وتاريخ الشحر لباسنجلة (٢٠٠٦م).

(٢٢) شنبل: التاريخ ١٩٣.

(٢٣) المصدر نفسه ٢١٢.

(٢٤) المصدر نفسه ٢٢٧ -مفلح: التزوير واستلاب الهوية ٣١.

(٢٥) شنبل: التاريخ ٢٢٧.

(٢٦) مفلح: التزوير واستلاب الهوية ١١٣، ١١٥.

(٢٧) الحياة العلمية في حضرموت في القرنين السابع والثامن للهجرة ١١٣.

48
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

مُساءلة الأنساق البارزة في لغة النقد الداخلي للرؤية النقديّة المفلحيّة

في كتاب (التزوير واستلاب الهويّة) لسالم فرج مُفلِح نقد (تاريخ شنبل) أنموذجًا



د. زهير برك الهويمل

يعاين هذا البحث الأنساق السياقية البارزة في لغة (الرؤية النقدية المفلحية) الداخلية، الموجهة لنقد كتاب (تاريخ شنبل)، فيكون بحثنا نقداً على نقد؛ إذ تتوجه هذه المساءلات النقدية لمشروع الرؤية المُفلحية على هذا الكتاب؛ بهدف الحصول على إجابات، من شأنها أن تكشف ما تضمره تلك الأنساق السياقية اللغوية البارزة؛ من أنساق خفية ـ أو مُضمَرة بتعبير غذاميٍّ ـ تتكشّف من خلال معاينة البارز منها، وهي تمارس نقدها في أسلوب لغته؛ بعيداً عن إطلاق الأحكام بالصحة أو البطلان، على الخبر التاريخي المعروض، من حيث هو فكرة أو حدث، نقله المشروع النقدي المُفلحي، من أي مصدر من المصادر، قديمة كانت أو حديثة؛ إلا ما استدعى فيه البناءُ السياقي ذاتُه ذلك.

فليست مهمة بحثنا تفنيد صحة الوقائع والأخبار التاريخية، المسرودة في مشروع الرؤية المُفلحية، أو الحكم ببطلانها؛ لأنّ ذلك منحًى تاريخي، تنأى دراستنا النقدية عن الانسياق في أتونه.

وحتى ينأى البحث عن الشخصنة في الطرح النقدي؛ سيتجنب ما استطاع ذكر الأسماء؛ ليكون التحليل نقداً لسياقات مطروحة، لا يتجاوزها إلى ذوات كَتبت أو فكّرت أو حَلّلت؛ لذا يسمّي بحثنا سياقات كتابي سالم مُفلِح (السياق النقدي)، وإن كانت تلك السياقات سياقات فكريةً تاريخية، أو نقدية تاريخية، فإنّ منهج تحليل الأنساق فيها هو منهج نقدي ثقافي، لكنه هنا ليس موجهًا لنصوص إبداعية، أو أدبية عامة، بل إلى سياقات نقدية تاريخية، ينظر نقدنا إلى كلٍّ منها باعتباره نصًّا مستقلاً، في خطوة يتجاوز فيها النقد الثقافي نقد النّص، إلى نقد نقد النّص؛ إذ ستقرأ دراستنا لغة السياقات النقدية المُفلحيّة، الموجَّهة في كتاب (التزوير واستلاب الهوية) إلى كتاب (تاريخ شنبل).

وعلى الرغم من كون النقد الثقافي قد نادى بموت النقد الأدبي فإن المناهج النقدية الحديثة لم تغن عن إسهام اللغويات الحديثة، فمثلاً من المفهومات المركزية في فكر ما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة أن المعنى غير ثابت، وفي ذلك لا يمكن تجاوز تنظير دي سوسير حول العلامة وعلاقة الدال والمدلول(١)؛

حتى إن النسق الجمالي عند الغذامي الذي أسماه (اختراع الفحل) في الشعر العربي، انطلق في تحليله من لفظة الفحل نفسها، أي من لغة النسق؛ لكنه في تحليله ونقده كانت دراسته من خارج النسق، وليس من تحت سقفه الثقافي؛ لذا سيُسائل بحثنا لغة السياق النقدي في أنساقه الظاهرة، في كتاب (التزوير واستلاب الهوية)، معتبراً سياق نقده لكتاب (تاريخ شنبل)، نصًّا نقديًّا تاريخيًّا للكتاب، يتوزّع على نصوصٍ داخلية لكل حالة يقف عليها بالتحليل والنقد؛ لذا فالسياق العام له إنما هو نسق بارز جماليٌّ، يُضمر نسقًا آخر قبيحًا، وكل نصٍّ داخليٍّ هو نسقٌ بارز كذلك يضمر آخر مضمراً.

وإنّ سمتي الجمال والقبح في الأنساق، ليست من تسميات بحثنا، بل هي سمات للأنساق التي يقوم عليها المنهج الثقافي، عند الدكتور عبدالله الغذامي(٢).

إن القارئ للنقد الثقافي الغذامي بعمق يعي -على الرغم من تصريح الغذاميٍّ بكونه نصًّا إبداعيًّا- أنه لا ينحصر في ماهية النص المتعارف عليه من لدن المؤسسة النقدية الرسمية، بل ينفتح على كل ما يوصف بأنه لغة، فهو ينظر إلى النَّصٍّ بوصفه حادثة ثقافية، وليس مجتلىً أدبيًّا حسب(٣).

ولعلّ أهم ركيزة يقوم عليها النقد الثقافي، في وجود التعارض في الأنساق كما يرى الغذامي: «حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب، أحدهما ظاهر والآخر مُضمَر، ويكون المضمر ناقضًا وناسخًا للظاهر»(٤).

ثم يلخص وظيفة مشروع النقد الثقافي في أنه يقوم بكشف حيل الثقافة -وأهمها الجمالية- في أنساقها البارزة، وهي تمرّر أنساقًا خفية قبيحة مضمرة(٥).

ولو تأملنا بعمق نسق (الاستفحال)، وهل المتنبي مبدع عظيم أم شحاذ عظيم؟ -بتساؤل غذامي- أي نسق اختراع الفحل، الذي سوّقته المؤسسات النقدية الرسميّة، نجد أن هذا التوصيف (الفحولي) للشعراء، وجد قيمته الأدبية في حاضنة نقدية، كما هو حال كتاب (طبقات فحول الشعراء)، الذي يتميز فيه فحل على فحل، وهو ميدان نقدي كبير في وعي الثقافة النقدية العربية، بل هو من أهم مصادرها.

إذن قيام نقدنا هنا على أنساق نقدية -وإن كانت تاريخية- ليس بدعًا في النقد الثقافي، بل هو موجودٌ -بنمطٍ تطبيقيٍّ- كما رأينا لدى المشرعن للنقد الثقافي نفسه.

معلوم في النقد بشتّى أنواعه، أن طبيعة النَّص أو الخطاب المدروس هي ما يحدّد نوع المنهج المناسب لدراسته؛ لذا كان اختيار المنهج الثقافي -في بُعده الإجرائي- لدراستنا هذه؛ حتى تكون للمساءلة النقدية لـ(السياق النقدي) -الذي حينما يرد في بحثنا فإن المقصود به سياق كتاب (التزوير والهوية)- أرضيةٌ منهجية وأساس يقوم عليه، غير مسلِّمين بسمة الجمال في الجميل منها، إلا من وجهة نظر كاتبه حسب، ومن تقبلها قبولاً جماليًّا.

في البدء لا نُخفي إعجابنا بالمنهجية النقدية الحديثة، التي اتبعها الكاتب في كتابه (التزوير واستلاب الهوية)، في معاينة النصوص التاريخية ونقدها، فهي آلية تخرج النقدَ والكتاباتِ التاريخيةَ عن دوامة تدوير التاريخ والأدب، التي انتهجتها كثير من المؤلفات والأبحاث التاريخية المعاصرة في بلادنا -باستثناء القليل النادر-، فأضعف هذا التدوير استنطاق النّص التاريخي، وحجّمه في كثير من الكتب والأبحاث التي نتلقاها في المؤتمرات والندوات التاريخية، التي لا تتجاوز السرد للأحداث في غالبها، الأمر الذي سيحجّم على مدار التدوير، المنتوج الفكري والحضاري للأحداث التاريخية، التي لا يمكن أن نصفها في كثير من الوقفات بأكثر من (المسرودة) إنْ صحَّ التعبير.

لكن حينما يتقفّى كاتب مناهج حديثة في تحليل النصوص التاريخية والأدبية ومعاينتها على حدٍّ سواء، عليه أن يكون مخلصًا للمنهج المتبَع، حياديًّا في معالجة القضايا المترابطة،

والأحداث المتسلسلة، إن على مسارات عمودية عميقة، وإن على مسارات أفقية واسعة، ممتدة مناكب دراستها وتحليلاتها.

إن الإخلاصَ للمنهج معناه أن يقف الكاتب عاريًا من النتائج التي يحاول بحثه الوصول إليها، قبل الخوض فيه، أن يكون مجرّدًا من رواسب ومعطيات مُسبقة، قد تقدح في حيادية نواياه في البحث، فيما لو بدت أو تفلتت في أسلوبه قبل الوصول علميًّا لتلك النتائج، فعليه أن يتقفّى خطوات منطقية يفضي كلٌّ منها إلى الأخرى، عن طريق النّهج الأبيستيمولوجي(٦)؛ أو ما يسمّى بالنظام المعرفي المحايد؛ بغية الوصول إلى نتائج عقلانية منطقية، مجرّدة من الجهوية الأيديولوجية، أو السياسية أو سواهما.

إنَّ بحثنا كما أسلفنا سيُعاين نصوص النقد الداخلي لكتاب (تاريخ شنبل)، الصادرة في كتاب (التزوير واستلاب الهوية)، غير معنيٍّ بنفي أو إثبات المادة الخبرية المعروضة، المقتبسة في الكتاب؛ إذ التفتيش التاريخي عن صحة الأخبار والأحداث -المقتبسة من كتب أخرى - ليس من صميم بحثنا، إلا ما فرضت فيه لغة السياق المدروس على البحث التثبت منه.

التساؤل الأول: أليس في هذا السياق تقصّدٌ لخلق لبس، وتضليل على القارئ؟!

يقول السياق النقدي: «إن القضية المركزية التي يعتني بها هذا الكتاب، هي نفسها قضية كتابي الأول، وهي ما تعرّض له تاريخ حضرموت الإسلامي كله، من تزوير وتحريف وتشويه لحقائقه على يد من أطلق عليهم المؤرخ علوي بن طاهر الحدّاد مصطلح (الأخلاف)»(٧).

حينما نقرأ هذا السياق النَّصي بعمق، وبدقة نلحظ فيه تقصّدًا لخلق لَبس يجعل القارئ العادي يظن أن المؤرخ علوي بن طاهر الحدّاد، لا يكتفي بنسبة مسمّى (الأخلاف) على الذين قاموا بتزوير وتحريف وتشويه تاريخ حضرموت الإسلامي -كما يدّعي السياق- حسب، بل ينسب إلى الحداد اتهامه إيّاهم بالتزوير والتحريف والتشويه.

وهو ما لا يقوله السياق صراحة هنا، ولكن أسلوب نظم السياق بهذه الصياغة يُلمح إليه، فينخدع القارئ العابر، بهذا الفخ السياقي، في فهم نسبة القول بالتزوير والتشويه والتحريف إلى الأخلاف، مع نسبة المسمّى إليهم. وهو ما لم يقله الحداد. وحين نتأمل بدقة أكثر خلو عبارة -(من تزوير وتحريف وتشويه...) -إلى آخر الفقرة من الفواصل، مع طولها مقارنةً بما قبلها، والتي حافظ السياق فيها على الفواصل، في جمل سابقة وأقصر سطرًا، يذهب لصالح قراءتنا من تقصّد؛ لخلق لَبس لدى القارئ وفخ يجرّه لفهم ما تقدّم شرحه آنفًا. فلا شك في أن علامات الترقيم هي لغة أخرى مصاحبة للغة، وتقول أحيانًا ما لا تقوله حروف اللغة.

ثَمَّ تساؤل يحضر في تحليل هذه الفقرة، ما القيمة التي سيجنيها القارئ، من معرفته أن الذي أطلق تسمية (الأخلاف)، على الأخلاف هو المؤرخ علوي بن طاهر الحدّاد؟ (نسق بارز).

أليس المقصود الأكبر لسياق النقد، هو أن يفهم المتلقي أن من اتهم الأخلاف بتزوير تاريخ حضرموت الإسلامي كله وتحريفه وتشويهه، هو المؤرخ علوي بن طاهر الحدّاد؟! (نسق مضمَر).

ثم ألا يجزم السياق النقدي هنا بأنّ تاريخ حضرموت الإسلامي (كلَّه)، مزوَّرٌ ومحرَّف ومشوَّه؟! ألم يتعامل مع هذا الأمر كونه مسلَّماً به ومن البديهيات؟!

لقد استطاع النظم السياقي في أسلوبه أن يبرز نسقًا جميلاً؛ في خدمته للرؤية التي ينظّر لها السياق النقدي، ومن يتقبّل طرحه قبولاً حسنًا، وهو أن من يشهد بأنّ الأخلاف قاموا بتزوير وتحريف وتشويه تاريخ حضرموت الإسلامي كلّه، شاهد من الأخلاف، وهو المؤرخ علوي بن طاهر الحدّاد.

لكن الإجابة عن السؤال السابق، والموجّه لهذا النسق البارز، يكشف ما يضمره من نسقٍ خفي.

لعلّ هذا النسق الذي ورد في مقدمة الكتاب يجسّد نمطًا يسوقنا إلى نسق آخر، ورد في النقد الداخلي لكتاب (تاريخ شنبل) -محل البحث- له بهذا النسق علاقة وصلة؛ ويؤكد الاستنباط السابق الذي وقف عليه بحثنا، لذا لزم الوقوف عنده بالتحليل والقراءة هنا.

التساؤل الثاني: لمَ التحريف في قول القائل، وتقويله ما لم يقل؟

يقول السياق النقدي الموجَّه لكتاب شنبل: -مقتبسًا كلامًا من مقدمة محقق كتاب (تاريخ شنبل) عبدالله محمد الحبشي: «... **ولهذا كان لا بد لمؤلّف شنبل هذا أن يكون عماد الكتابة التاريخية الحضرمية لتلك الفترة الطويلة بعد (أن اختفت كل المصادر التاريخية عن حضرموت- انظر مقدمة المحقق.)، بل بعد إخفاء وإفناء كل المصادر التاريخية الحضرمية كما قال المؤرخ علوي بن طاهر الحداد في مقولته المشهورة**»(٨).

إن المقولة المشهورة، التي ينسبها السياق النقدي للمؤرخ علوي بن طاهر الحدّاد، تنص على: (الأخلاف وجدوا في سيرة الأسلاف ما ينكرونه عليهم اليوم، فعمدوا إلى إخفائها وإفنائها). أورد السياق النقدي هذه المقولة -في كتاب (التزوير واستلاب الهوية)- كاستهلال في صفحة غير مرقمة؛ تسبق الصفحة السابعة عشرة.

بلا شك هذه المقولة تؤكد ما ذهب إليه بحثنا في مساءلته السابقة، من استنتاجات، لتقويها من منزلة الاستنباط المعرفي إلى منزلة اليقين المعرفي.

كما وردت هذه المقولة المنسوبة للمؤرخ الحداد، في السياق النقدي المناقض لنفسه؛ حين قال: «**ولم يذكر المؤرخ الحداد مصادره الحضرمية في مثل مقولته (إن الأخلاف وجدوا في سيرة الأسلاف ما ينكرونه اليوم، فعمدوا إلى إخفائها وإفنائها) التي نسبها إلى غيره سماعًا، وفي هذه الحالة لا يعتمد إلا أن يكون المؤرخ الحداد هو مصدرها وتنسب إليه لا إلى من قال إنه سمع منه**»(٩).

يلحظ القارئ أن العبارة التي جاءت بين القوسين؛ أو بتعبير السياق النقدي (المقولة المشهورة) المنسوبة للمؤرخ علوي الحدّاد، هي نفسها التي وردت في الاستهلال قبل الصفحة السابعة عشرة، بزيادة كلمة (عليهم) في الاستهلال بعد كلمة (اليوم).

في السياق السابق يقرُّ السياق النقدي ذاته بأن المقولة المشهورة ليست صحيحة النسبة للمؤرخ علوي الحدّاد، بل اقتصرت مهمة المؤرخ الحداد على نقلها عن شخص آخر سمعها منه، لكن السياق النقدي -وإن أقرّ الحدّاد بنقلها وعدم نسبتها إليه- يصر على نسبتها إليه، بصيغة: (لا يعتمد إلا أن يكون المؤرخ الحداد هو مصدرها)، ولم يقل: قائلها هنا بل قال مصدرها، وثمة بونٌ بين الصيغتين؛ في وجهة يشعرك السياق النقدي بإقراره ضمنًا، بعدم تقبل المتلقي لهذه النسبة المزعومة؛ لأنّ المنسوب إليه ينفي أن تكون النسبة له، بل لغيره، وهذا بشهادة السياق النقدي ذاته.

ومن المنطقي إن نفى شخص نسبة كلام له، فهو ليس له، مالم يثبت الناقل عكسه، فهل يمكن أن نجعل ذلك الكلام شعاراً بارزًا، ننسبه لذلك الشخص، ونبني عليه نتائج فكرية في مشوار بحثي، وفق منهج تاريخي حداثي؟!

أين السعي للوصول إلى نتائج موضوعية بعيداً عن الذاتية؟! كما تنص المدارس التاريخية الحديثة (١٠). وليس المقصود بالذاتية هنا ذاتية الأنا الساردة، بل كل الذوات المشخصِنة للحدث، أو الخبر المراد نقله أو نقده أو تحليله.

هذا المساق النقدي تنتفي فيه المنهجية العلمية للتحليل، وتبدو الشخصنة جلية، من خلال الإصرار والترصد بنسبة المقولة للحداد قبل العبارة حين قال في مثل مقولته،

وفي خاتمتها حين قال: وفي هذه الحالة لا يعتمد إلا أن يكون المؤرخ الحداد مصدرها، بأسلوب القصر الذي يتجاوز اليقين إلى التأكيد على نسبة المقولة للحدّاد دون سواه(١١)، مع كون السياق نفسه قد دحض هذه الشبهة إلى يقين نفي نسبة المقولة للحدّاد، ثم الحُظْ عزيزي القارئ الانزياح في السياق عن لفظة: (قائلها) إلى لفظة (مصدرها)، وهناك فرق بين اللفظتين. فالعجيب هو الإصرار على تلك النسبة للحداد، حتى والحدّاد يقرّ بأن المقولة ليست له!، لكن كما يقال: إذا عُرف السبب بطل العجب.

على الرغم من عدم معرفتنا بالسياق الذي جاءت فيه المقولة المشهورة في السياق النقدي، مزعومة النسبة للمؤرخ الحداد، والمناسبة التي سمع فيها الحداد الشخص الذي قالها، وهل أوردها الحداد، مؤيّدًا أو مناهضًا، فإن الحقيقة الثابتة لدى بحثنا ـ من خلال ما تقدم ـ هي عدم صحة نسبتها له.

وقد يتجلّى أن السياق النقدي يضع القارئ في وهم من التحليل المعرفي حين قال: «... **بل بعد إخفاء وإفناء كل المصادر التاريخية الحضرمية كما قال المؤرخ علوي بن طاهر الحدّاد في مقولته المشهورة وأثبتنا صحتها من خلال مباحث كتابنا المحتوي على مشروع الرؤية**»(١٢).

لم يحدّد السياق أين تم إثبات صحتها كما يدّعي، وهل المقصود من إثبات صحتها واقعيًّا كخبر تؤكد التحليلات العلمية صحة ما قدمه من حقيقة فكرية؟! أو المقصود إثبات صدق المقولة ونسبتها للمؤرخ علوي الحدّاد؟

نختم هذه المساءلة بسؤال أخير بما أن ما يسمّى مشروع الرؤية قد اتخذ في تحليلاته مناهج نقدية داخلية حديثة -وهو أمر يقدره بحثنا- تتطلب دقةً في التحليل والنقد، والالتزام بالمنهج البحثي، لماذا لم ينسب هذه المقولة -التي أسماها (مشهورة)، المزعومة النسبة للمؤرخ علوي الحدّاد- إلى مرجع وصفحة في أي موضع من المواضع التي وردت فيها، كما هو المتبَّع منهجيًّا في الاقتباسات؟! وهو أمر لا يجهله السياق النقدي، حيث التزمه في معظم اقتباساته النصية والضمنية في مشوار نقده هذا؟!

التساؤل الثالث: لمَ يستخدم السياق النقدي اللغة الكيدية المُشخصِنة؟!

يقول السياق النقدي: «**تزعم المخطوطة أن أصلها ينتمي إلى القرن العاشر الهجري، وحيث إن حياة المؤلف شنبل المزعوم انخرمت سنة ٩٢٠هـ، فإنه يلزم عن هذا أن تنتهي أخبار الكتاب بوفاة المؤلف في تلك السنة، فهل الأمر كذلك؟**

في سنة ٩١٣هـ: قُتلوا أولاد شيخ باشيخ إبراهيم وأخوه عقيل في طريق قرين سعد، وحولهم يسر بن نجم فقتل في دولة آل كثير الأولى في تريم»(١٣).

إن القارئ المحايد لهذا الخبر يتلقى لغة يتجرّد فيها الأسلوب التعبيري عن الحيادية في التعبير، وفي آلية النقد وهي تمارسه قبل الوصول إلى نتائج حتمية من المنقود، تستنبطه آلية النقد نفسُها؛ إذ لازال السياق في بداية نقد المخطوطة لكتاب شنبل، ولم يمر نقده بمراحل متسلسلة توصل إلى نتائج علمية، يبني عليها السياق رؤيته المنطقية؛ ليقنع بها القارئ، حيث افتتح الأسلوب السياقَ بـ(تزعم)، ومر فيه أيضًا قوله: (حياة شنبل المزعوم)، أما استخدام السياق للفظة (انخرمت) والتي يقصد بها (انتهت)، فتكشف عن مستوًى عدائيٍّ لا مع الكتاب المنقود، بل مع المؤلِّف ذاته، ففي تاج العروس: «خَرَم (فُلانًا) يَخْرِمُه خَرْمًا: شَقَّ وَتَرَةَ أَنْفِه»(١٤)، في هذا الأسلوب يتجلّى النسق المضمر للنسق البارز، وهو الأمر الذي تساءلت عن تعليله المساءلة محل التحليل.

أما الهدف الذي أراد السياق النقدي الوصول إليه من خلال هذا الاقتباس محل النقاش فكما يرى أن دولة آل كثير الأولى في تريم قامت سنة ٩٢٦هـ على يد السلطان بدر بن عبدالله الكثيري (أبو طويرق).

فكيف ذكر شنبل دولة آل كثير الأولى في تريم في الخبر السابق؟ وهو متوفٍّ سنة ٩٢٠هـ، وقيامها كان بعد وفاته. حتى توصّل في الأخير إلى استنتاج يقول: «**وهنا يسقط هذا الكتاب المنسوب لشنبل**»(١٥)، معتمدًا على اقتباس اقتبسه عن عبد السلام هارون في التحقيق يقول: «**... فالكتاب الذي تحشد فيه أخبار تاريخية، تالية لعصر مؤلفه الذي نسب إليه جدير بأن يسقط من حساب ذلك المؤلف**»(١٦).

للوقوف على هذه القضية قرأ الباحث كتاب شنبل، مفتشًا عمّا إذا كان عنده وجهة نظر تفيد قيام أي دولة لآل كثير في تريم، قبل العام الذي ذكره السياق النقدي وهو ٩٢٦هـ؛ لأن هذا من شأنه أن يغلق باب الجدل، فنحن هنا نسائل كتابًا على تواريخ وردت به، فهل في الكتاب نفسه تاريخ سابق لقيام دولة لآل كثير في تريم قبل وفاته؟

فكان الجواب نعم، لقد ذكر كتاب شنبل نفسه خبرين يؤكدان ذلك؛ سيكتفي بحثنا بهذا الخبر الذي يسرد فيه الكاتب الأخبار الواقعة في سنة ٨٨٩هـ: «**وفيها جيّش بدر بن محمد الكثيري على تريم، بمساعدة آل عامر فدخل تريم يوم الأربعاء الثاني والعشرين من جمادى الأولى ضحى، وقتل جماعة نحو خمسة وعشرين، أشهرهم علي بن عبدالله المنقوش، وعلي بن يماني جرّار الصبري وابن صبرة، وأربعة من آل دييخ، ومَلك البلادَ بدرٌ...**»(١٧).

كما هو ملاحظ من هذا الخبر الذي أورده شنبل في كتابه (تاريخ شنبل)؛ إنه يعي تمامًا ما يقول: من وجود قيام دولة أولى لآل كثير في تريم قبل عام ٩٢٠هـ؛ حيث ذكر الحادثة باليوم والشهر والعام، وذكر أسماء وتفاصيل دقيقة على ذلك. وبحثنا هنا ليس بصدد تقديم رأي في هذا الخلاف عن وجود أول دولة لآل كثير في تريم، وزمان قيامها - لأن ذلك ليس من مهام بحثنا - ولكن يكفي أن يقدم حجة على أن شنبلاً يؤمن بهذه الدولة الكثيرية في تريم، وكان على وعي بها، والتي تسبق العام ٩٢٠هـ - عام وفاة شنبل - بل أرّخ لها بالدقة التي مرت معنا. والعبارة الأخيرة في اقتباسنا (وملك البلادَ بدرٌ)، تؤكّد على قيام مُلك ودولة، وليس دخولاً عابرًا صال فيه بدر على تريم.

فهل يبقى للاستنتاج الذي قدمه السياق النقدي مكانٌ، من كون شنبل يؤرخ لما حدث بعد وفاته؟! وهو ما يستدعي بطلان كتابه كما يدّعي السياق النقدي؟!

بالتأكيد لا، وعلى الرغم من ذلك فبحثنا ليس معنيًّا بالانسياق خلف الجدل القائل بوجود دولة لآل كثير قبل عام ٩٢٠هـ، أم لا؛ لأننا كنا نبحث عن حضور هذا الأمر في كتاب شنبل، وأنّ الحدث قارٌّ في وعيه قبل أن يسطر الحادثة، التي اتخذها السياق النقدي حجة عليه.

عبارة عبدالسلام هارون واستدلال السياق النقدي بها:

لعلّ الحيادية في التحليل، والأمانة العلمية المغذية للتساؤلات التي ينشدها بحثنا تجعلنا نعود تارةً أخرى للعبارة التي اقتبسها السياق النقدي، عن عبدالسلام هارون، وهو يحاول إثبات عدم صحة نسبة كتاب شنبل؛ لنحلل نسقها البارز وهو الاعتماد على خبرة أهل الباع الطويل، في مسيرة التحقيق، ومن هؤلاء الأعلام، الدكتور عبدالسلام هارون؛ لذا توكّأ السياق النقدي - كما أوضحنا سابقًا - على قول الدكتور عبدالسلام هارون: «**...فالكتاب الذي تحشد فيه أخبار تاريخية، تالية لعصر مؤلفه الذي نسب إليه، جدير بأن يسقط من حساب ذلك المؤلف**».

هل وفّق السياق النقدي بالتوكُّؤ على هذه العبارة في المكان الذي اقتبست فيه؟!

لسنا هنا في مجال الحديث عن كون الحجة قد أدحضت، فيما يتعلق ببطلان القول: بأن شنبلاً يحكي أخبارًا لاحقة لوفاته، فقد انتهى حديثنا في هذا الشأن.

بل نحن هنا في معاينة سياق لغوي أمامنا على افتراض أن شنبلًا ما زال متهماً بسرد أحداث بعد وفاته، وذلك أدعى لمقاضاته نقديًّا، في قول السياق النقدي، الذي قدمه دليلاً على ذلك، كم عدد الأخبار التي أوردها السياق لشنبل يسرد فيها أخباراً حدثت بعد وفاته ٩٢٠هـ.

الجواب: أورد السياق خبراً واحداً، وهي حادثة مقتل أولاد شيخ باشيخ، التي مرت معنا من قبل.

السؤال الثاني: هل في كلام عبدالسلام هارون ما يدل على أن من ذكر له خبر واحد -من المؤرخين -في كتابه حدث بعد وفاته، فإن كتابه جدير بأن لا ينسب إليه؟!

هل قال هارون ذلك في الاقتباس الذي استعان به السياق النقدي؟

بالطبع لا أيضًا، الذي قاله الرجل: (الكتاب الذي تحُشد فيه أخبار تاريخية)، وهو من اقتباس سياق النقد نفسه، فهل الخبر الواحد = تحشد = أخبار؟!

ثمة مبالغة في الوعي الباطن لدى صوت السياق النقدي، يترجمها الانتخاب في آلية الاقتباس، هنا تُري السياقَ القليلَ مما يراه خطأً كثيراً في المنقود، هنا وهو نسق بارز جمالي، يتجلى في الغيرة على تاريخ حضرموت الحقيقي، لكنه يكشف نسقًا مضمراً حاول السياق البارز تمريره؛ وهو الكره المضمر لشخص المؤلِّف، وليس المؤلَّف كما تقدّم معنا في خطوات سابقة من البحث.

إن المبالغة في تضخيم ما يراه السياق النقدي خطأً في المنقود، والتي تمثل عدولاً عن منهجية البحث التاريخي المعرفي الأبيستيمولوجية، التي يعاين فيها الناقد نصًّا مجرّدًا، يحاكمه ويقاضيه بقواعد علمية منطقية، تعرّي قناعاته المسبقة من أي أحكام يتوخّى إصدارها، أو غايات مرئية يسعى للوصول إليها، وإلا سيتحول البحث إلى مجرد قطعٍ تحليلية متناثرة، يحاول بها النقد تغطية فجوات لم تتغطَّ بالمحايثة البحثية، والتأويلية النقدية بأسلوب علمي دقيق، ورصين في استنطاقاته، وتحولات نتائجة المترابطة، والمتناسلة من رحم التفسير التراتبي لبعضها البعض. فالمبالغة في تضخيم ما يراه السياق النقدي خطأً في المنقود، الذي نختتم به هذه المساءلة النسقية، سيكون هو عنوان المساءلة التالية.

وفي كتاب (تاريخ شنبل) نفسه -سارداً الأحداث التي حدثت سنة (٨٩٦هـ) -يقول: «وفيها سلّم بدر بن عبدالله الكثيري تريم لعبدالله بن راصع وعدّلها عليه»(١٨).

هذه العبارة مع ما تحمل من خبر، تردّ على تساؤل المتسائلين عن سبب قوله: (دولة آل كثير الأولى في تريم)، كما أوردها السياق النقدي؛ أي إن شنبلاً حددها بالأولى؛ لأنه كان يعلم بقيام سواها من بعدها، كما تبين. وكلا التاريخين جاءا قبل وفاة شنبل وليس بعده (٨٨٩هـ + ٨٩٦هـ). مما تقدم في هذه المساءلة، فإن القارئ المحايد لا يجد دليلاً علميًّا واحداً يشكّك في نسبة كتاب (تاريخ شنبل) إلى شنبل، بل يجعل القارئ المحايد يمتعض من كثرة ورود تركيب: (شنبل المزعوم) من غير أن يقف على أرضية علمية صلبة تفنّد هذا الزعم.

وطالما أن ذلك كذلك فإن التشكيك ـ ناهيك عن الجزم ـ ببطلان نسبة كتاب (تاريخ شنبل) إليه، يظل وهمًا ما لم تثبته الأدلة العلمية والمنطقية، وهو مالم يحدث للقارئ المفرغ من أي ميل أو هوى هنا.

لم يكن القارئ المحايد يتمنّى أن يصطدم منذ بداية النقد الداخلي لمخطوطة كتاب (تاريخ شنبل) بقراءة تراكيب مثل: (شنبل المزعوم) + (تزعم المخطوطة) + (حياته انخرمت سنة ٩٢٠هـ)؛ لأنّ هذه نتائج لقراءة تاريخية يفترض أن يتوصل إليها التحليل والنقد كخلاصة نهائية، فيما لو استطاع السياق النقدي ذلك -علميا ومنطقيّا- حتى يقنع بها القارئ، وإن كان السياق النقدي قد توصّل إلى تلك النتائج عبر أبحاث مسبقة؛ فالقارئ هنا ليس شريكًا في معايشة المراحل المتسلسلة لذلك التحليل، والتفسير

الذي أوصل إلى تلك النتائج المحتملة -فيما لو حدثت - كما يقول الدكتور محمد عابد الجابري- متحدثًا عن تفسير الأحداث التاريخية: «الأحداث التاريخية إنما تفسرها وتعطيها معناها خواتيمها، لا بداياتها»(١٩). ولا بد من إشراك القارئ في عيش مراحل ذلك التفسير من البداية حتى النهاية، حينها يكون القارئ معايشًا لمراحل ذلك التحليل والتفسير المنطقي، الذي أوصله إلى إطلاق هذا المصطلح أو ذاك، أما صفع القارئ بهذه اللغة الصادمة، منذ بداية النقد الداخلي للمخطوطة، فتصبغ السياق النقدي والتحليلي بصبغة عاطفية مشخصنة، نابعة عن ميول نفسي؛ يرسم أحكامًا في وعي السياق النقدي محددة سلفًا، يثيرها عداء فكري مؤدلج ربما، فلا يحتمل تأخيرها، وهو أمر يتنافى تمامًا مع آلية مناهج النقد الحديثة؛ التي تعاين النصوص من داخل سياقات لغتها المنظومة.

مازال بحثنا يناقش الخبر ذاته، الذي ذكره السياق النقدي وحاول من خلاله أن ينفي نسبة كتاب (تاريخ شنبل)؛ إذ يقول: «ما تم حذفه من نص الخبر هو (بن) في (يسر بن نجم)، و(آل) في (آل كثير). وهكذا، تم تقطيع أوصال نص هذا الخبر المركزي في بيان انتحال هذا الكتاب المنسوب لشنبل المزعوم...»(٢٠).

يعني أن ما سقط من الخبر الذي ذكره المؤرخ شنبل (بن) حين قال: (يسر نجم)، و(آل) حين قال (دولة كثير) -وما قاله صحيح بعد الرجوع للكتاب نفسه- لكن فلنتأمل قول السياق النقدي بعد ذلك، لو قال السياق النقدي: هنا نقرأ انتقاصًا في حق الاسمين المذكورين، سيكون القول منطقيًّا، لكنه لم يقل ذلك هنا وهي فرصته في النيل من المؤرخ شنبل، ما دام يراه مزعومًا؛ لم نرَ السياق النقدي يعلق على الحذف المذكور، بل انزاح السياق إلى شأن آخر، حين قال: (وهكذا، تم تقطيع أوصال نص هذا الخبر المركزي في بيان انتحال هذا الكتاب المنسوب لشنبل المزعوم).

السؤال المطروح، هل عدم كتابة (بن) و (آل) في الخبر، يمكن أن نسميه تقطيعًا لأوصال الخبر؟!

وهل هذا التقطيع في هذا الخبر ـ كما يرى السياق ـ خليق بأن يبينّ انتحال ـ ونضع كلمة انتحال بين علامتي تعجب ـ كتاب (تاريخ شنبل)؟!

هل هذا تحليل علمي منطقي لنقد داخلي، يمكن اعتماده للوصول إلى هذه النتيجة (انتحال الكتاب المنسوب لشنبل المزعوم)؟!

بلا شك أن أي قارئ لا أقول محايدًا، بل لو كان مناهضًا لشنبل وكتابه، لن يقنعه هذا الطرح والتحليل؛ للوصول لهكذا استنتاجات بعيدة جدًا، فأقصى قراءة يمكن أن يستخلصها ذلك المناهض إن أراد تتبع زلات نهج شنبل؛ هي أن شنبلاً قد تقصد التقليل من الاسمين -وهو ما تحاشاه السياق النقدي - لما ذكرناه آنفًا، وإلا فقد يعذر المحايد شنبلاً في عدم كتابة (آل) لأي عذر، وقد لا يعذره، وذلك من حقه.

التساؤل الرابع: لماذا يعيب السياق النقدي على المحقّق الحبشي شيئًا، يرى أنه من حقه؟!

إن في السياق ذاته محل التحليل، لكن في بُعد آخر من أبعاده ينتقد السياق النقدي محقق كتاب (تاريخ شنبل) عبدالله محمد الحبشي قائلاً: «من حق المحقق أو الباحث أن يملأ الفراغات في النص التراثي حتى يستقيم المعنى، لا أن يأتي به مبتوراً مشوَّهًا ... ونحن هنا نتساءل: لماذا اختار المحقق الحبشي أن يأتي بهذا الخبر على حالته تلك؟. والأغرب في أمر المحقق الحبشي مع هذا الخبر الذي أورده مبتوراً مجزّءًا، أنه أورد اسم (يسر بن نجم) هكذا كاملاً في فهرس الأعلام الملحق بالكتاب، نحن هنا أمام حالة (تدليس)، أي تضليل وخداع للقارئ بطريقة احتيالية.؟.»(٢١).

حينما نتأمل قوله في بداية الفقرة: (من حق المحقق أو الباحث، أن يملأ الفراغات في النص التراثي؛ حتى يستقيم

المعنى...) نجد السياق النقدي يعطي الحق للمحقق، والباحث في ملء الفراغات في النّص التراثي؛ حتى يستقيم المعنى.

أولاً: حينما أعطى السياق النقدي المحقق الحقَّ، في ملء تلك الفراغات، أليس منطقيًّا أن يفهم القارئ أن عدم ملء تلك الفراغات أيضًا من حقه؟!

بالتأكيد سيفهم ذلك.

هل في السياق النقدي أمامنا ما يُلزم المحقق بذلك إلزامًا؟

أيضًا لا يوجد فيه ما يلزم.

فكيف يتهمه السياق النقدي بالتدليس والتضليل وخداع القارئ والاحتيال، وهو في الأساس مارس شيئًا من حقه؟! وفقًا ومنطوق السياق النقدي ذاته.

ثانيًا: قوله: (حتى يستقيم المعنى)، هل عدم كتابة (بن) و (آل) في تركيبي (يسر بن نجم)، و(آل كثير) على التوالي يؤدي إلى اختلال في المعنى؟!

بالطبع يظل المعنى قائماً، وإن عدَّ السياق النقدي في ذلك انتقاصًا في الصياغة، فهو لا يرقى لأن يعطل دلالة المعنى، كما هو جليٌّ لكلِّ ذي منطق سليم حيادي.

ثالثًا: في قوله: (والأغرب في أمر المحقق الحبشي مع هذا الخبر الذي أورده مبتوراً مجزّءًا...).

هل كتب المؤرخ شنبل التركيبين (يسر بن نجم)، و(آل كثير)، ثم قام المحقق الحبشي ببتر (بن) و(آل)، وجزّأ التركيبين؟!

أو إن المحقق قام بنقل السياق الشنبلي كما هو؟!

إذا كان المحقق الحبشي مع نقله للسياق، كما جاء بكل أمانة ومهنية، أُتهِّم من السياق النقدي بأنه مدلس ومضلل ومخادع ومحتال.

ألن تنطبق عليه تلك النعوت الأربعة الثقيلة، فيما لو أضاف ما يرى السياق النقديُّ أنه بحاجة إلى إضافة؟!

ألن يُتَّهم بأنه مدافع عن المؤرخ شنبل، وأنه حاول إخفاء ما يراه السياق النقدي عيوبًا؟!

من يقرأ مستوى تلك اللغة النقدية التي تكيل أوصاف التدليس والتضليل والخداع والاحتيال؛ فقط لأنّ المحقق لم يضف (بن) و (آل)، على نصٍّ رأى أن من مصلحة الأمانة في النقل عدم إضافتها، بلا شك يعي تمامًا أن السياق النقدي هنا ذا النسق الجمالي البارز يُظهر غَيرة على التاريخ الحضرمي الإسلامي، من التدليس والتضليل والخداع والاحتيال، لكي يمرّر نسقًا آخر مضمرًا؛ هو إظهار تضامن الأخلاف (العلويين) -شنبل والحبشي شاهداه هنا - ومن ينتمي إليهم في ذلك التضليل والتدليس والخداع والاحتيال. هذه الصفات التي أثبت بحثنا بالنقاش المنطقي بطلانهَا.

ويتجلىَّ في قوله: (أنه أورد اسم (يسر بن نجم) هكذا كاملاً في فهرس الأعلام الملحق بالكتاب، نحن هنا أمام حالة (تدليس).

هل يقرأ القارئ الباحث عن الخبر الحق، في هذا الصنيع تدليسًا، أو أمانة؟!

في المكان الذي لا لبس فيه -فهرس الأعلام -من الطبيعي، أن يضيف المحقق فيه ما يرى أن إضافته خليقة؛ لأنّ فهرس الأعلام من تأليفه شخصيًّا، وليس منقولاً من كتاب آخر، لكن في مكان النقل راعى الدقة في النقل؛ حتى لا يُتهم بتغيير النّص، وتحريفه، ولو أراد أن يشارك شنبلاً ـ فيما اتهُّم به ـ لما أثبته في الفهرس ومضى في سبيل إخفائه، بل إنه هنا قد مارس حقًا من حقوقه، كما يشهد السياق النقدي بذلك في بداية نقده للعبارة، وقد فصلنا فيه الحديث سابقًا. وحسَنٌ فعَلَ برأي بحثنا؛ لأنّ المنطق في كيل الاتهامات بلا دليل علميٍّ مقنع سيجعل من ذلك فرصة سانحة، للنقد الشخصي لا الموضوعي، كما هو مقروء في لغة النعوت الملقاة جزافًا، التي كالها السياق النقدي على المحقق دونما مكيال نقدي دقيق.

التساؤل الخامس: أليس في هذا التأويل تكلّفٌ فوق ما يحتمل السياق؟!

معلوم أن المدارس التاريخية الجديدة، أو النقدية الحديثة، قد تحاول استنطاق بنية اللغة الداخلية للسياق النصيِّ أمامها، وتخلخل علاقاته السابقة لتحصل على بناء جديد ذي دلالات مغايرة، في طريقها نحو عدم التسليم بالرؤى القائمة، ومجابهة الخطابات السائدة، على نهج تحليلي تفكيكي، وهي وظيفة النقد الحضاري عند المفكر الراحل هشام شرابي(٢٢).

لكن هذا التحليل لابد أن يتخذ خطوات منهجية ذات أساس واضح ومعلوم سلفًا؛ ليصل إلى غاياته القرائية، المنتجة دلاليًّا، لعلّ هذا ما حاول السياق النقدي فعله في تحليل اسم أو عنوان كتاب (تاريخ شنبل)؛ فنرى ممارسة تبدو عليها المخاتلة جلية للوصول لرؤى قارة مسبقًا لدى وعي السياق النقدي، فحينما نقرأ السياق النقدي يوازي بين هذه التراكيب الثلاثة دلاليًّا، يتضح ما عنه نحكي: (تاريخ شنبل)←(تاريخ حضرموت)←(تاريخ النعال)(٢٣).

يقول السياق النقدي: «...**وهنا تكون دلالة (تاريخ شنبل) بمعنى (تاريخ حضرموت)، بمعنى أن حضرموت هي (الشنبل)، وكأنه قال (تاريخ النعال)، أي إن حضرموت هي النعال، فلفظة (شنبل) تعني حضرميًّا (النعال) – انظر مقدمة المحقق...**»(٢٤).

إذا بدأ القارئ التأمل للسياق النقدي من حيث انتهى، سيعي أنّ ثمة تمويهًا تقصّده السياق هنا كعادته، في قدرة صياغية تمكنه من ذلك؛ وهي إيهام القارئ بأن المحقق في مقدمته يؤوّل لفظة شنبل حضرميًّا بالنعال، فليعد القارئ؛ لقراءة العبارة السابقة من قوله: (وكأنه قال (تاريخ النعال ... إلى نهاية الفقرة، ويرى ماذا يعلق في ذهنه من دلالة.

في حين أن المحقق لم يقل هذا القول إطلاقًا في مقدمته، ولا في غيرها، لا صراحة ولا إشارة، على العكس من ذلك فقد أقرّ المحقق عبدالله محمد الحبشي اسم الكتاب على غلافه (تاريخ حضرموت، المعروف بـ تاريخ شنبل)؛ لكن السياق النقدي يجعل من هذا المنحى تأييدًا من المحقق لتحليله البعيد السابق. مُدَّعيًا أن المحقق لو لم يكن يقرّ هذه الوجهة من التأويل لقال: (المعروف بتاريخ أحمد عبدالله شنبل باعلوي)(٢٥).

أولاً: فلنسأل السياق النقدي ما معنى (شنبل) لغويًّا؟

عندئذٍ سيأتي الجواب العلمي عن السؤال، عند ابن منظور في اللسان، بمعنى التقبيل والارتشاف ـ ولا يقبِّلُ ويُرتَشَفُ طواعيةً إلا ما كان في غاية الذوق والجمال ـ حين قال: «**يقال: قبَّلَهُ ورَشَفَه وثاغَمَه وشَنْبَلَه ولَثَمه بمعنى واحد**»(٢٦).

إذن شنبل = الدلالة على اتصال طرفين؛ (مقبِّل + مقبَّل)، (لاثم + ملثوم)، (طفل + ثدي الأم)؛ وعليه يكون الشق الثاني منهلاً وعطاء، والشق الأول طرفًا آخذًا ومتلقيًّا؛ مقبِّلاً لاثماً راشفًا.

ثمة حياة تستمد من هذا الاتصال ونماء، ففي التقبيل تُقرأ خطوة أولى للتزاوج، والتناسل والتكاثر. وفي الرضاعة تتبدّى دلالة النمو والقوة والعطاء.

يمكن أن يقرأ السياق السابق عموديًا مصدرًا للقوة والعطاء، وأفقيًا مصدرًا للتكاثر والتناسل، فيجتمع المساران؛ إذ تتشنبل الدلالة في أقوى تجليات معانيها.

لِمَ لم يلجأ السياق النقدي إلى دلالة اللفظة اللغوية، من أثرى المعاجم عند العرب، (لسان العرب)، وهو يجري تحليلاته السابقة؟

هل غفل السياق النقدي هذه الدلالة للفظة، حتى يذهب بها مذهبًا بعيدًا كما تقدم؟!

ثم هل المحقق الذي ادّعى السياق النقدي أنه ينحو منحى تأويله –حين اقتصر في توصيفه للكتاب– بقوله: (المعروف بـ تاريخ شنبل)، بدلاً من قوله: (المعروف بـ تاريخ أحمد عبدالله شنبل باعلوي)، هل يمكن أن يفعل

ذلك وهو من شرح المقصود بلفظة (شنبل) صارفًا عنها صفات الصغار، حين قال: «شنبل في اللغة من ألفاظ التكريم، وفي لسان العرب: "شنبل اسم وهو بمعنى قبّله ولثمه" وتلقب به جماعة من العلماء منهم: عبدالله بن شنبل محدّث، وأبو شنبل حمل بن خزرج العقيلي شاعر في زمن المهدي. وفي تاج العروس بنو شنبل بطن من العلويين بالحجاز. وقد ساد في الألفاظ السوقية عند أهل عدن وغيرها أن يطلقوا على الخف الرقيق لفظة شنبل ولا ندري من أين جاءت هذه اللفظة، فلعلها من الألفاظ الهندية المستعملة عندهم»(٢٧).

كما هو ملاحظ ثَمَّ بونٌ في تأويل المحقق والسياق النقدي للفظة، بل إن المحقق يخالف رأي السياق النقدي، في كون اللفظة مستعملة حضرميًّا بمعنى (النعال)، حين ذكر أنها لفظة معربة وليست عربية، قد يكون أصلها هنديًّا.

سؤال أخير، فرضًا أقرّ المحقق ما يدعو إليه السياق النقدي اسم الكتاب: (تاريخ حضرموت المعروف بـ تاريخ أحمد عبدالله شنبل باعلوي).

أَلَنْ يكون اسم الكتاب طويلاً جدًا؟!

أَلَنْ يجد الكرام الكاتبون صعوبة في كل مرة يحتاجون فيها إلى كتابة اسم الكتاب؟!، لا سيما أنه المرجع الوحيد -كما يقرّ السياق النقدي -الذي يؤرخ لتلك الحقبة الزمنية من تاريخ حضرموت.

وإن عدنا إلى التأويلات التي توصل إليها السياق النقدي في تحليله:

(تاريخ شنبل)← (تاريخ حضرموت) ←(تاريخ النعال)، هل حافظت دلالة التضايف، بين شقي كل تركيب من التراكيب الثلاثة السابقة على وحدة جهتها؟!

أي إن في تركيب (تاريخ شنبل)، الجزء الثاني فاعل أحدثَ الجزء الأول.

هل تستمر هذه العلاقة -فاعلية الثاني في مفعولية الأول- في التراكيب الثلاثة حتى ندرجها تحت نسق تحليلي واحد؟!

بالطبع لا؟.

هنا يتجلى التساؤل الأكبر -تساؤل العنوان - الذي حوى تحت سقفه كل تلك التساؤلات الداخلية، ليتجلى نسقًا بارزًا يتشكل من أنساق عدة، يضمر تحته آخر مضمرًا يتشكل أيضًا في أنساق عدَّة.

ـ النتيجة التي يحاول السياق النقدي الوصول إليها، من تحليلاته النقدية الداخلية السابقة؛ هي إثبات أن المؤلف المجهول لهذا الكتاب المنحول، قد اختار لفظة (شنبل)؛ ليعطي مدلولاً تبخيسيًّا تحقيريا لحضرموت وتاريخها وهويتها.

وبشيء من الوقوف على ما يحويه هذا التصريح من إقرار سياقي بوجود مؤلِّف حقيقي للكتاب هذا اسمه (أحمد عبدالله شنبل باعلوي)، على الرغم من إصراره على تسميته (شنبل المزعوم)، وأن شنبلاً اسم منحول، وضعه الأخلاف كما يدّعي.

وهل يكون من يترجم له الزركلي اسماً منحولاً في أهم مراجع التراجم: كتاب (الأعلام) حين قال: «**ابن شنبل: أحمد بن عبدالله ٩٢٠**»(٢٨).

ألا يكون هذا النسق البارز قد كشف عن نسق مضمر؛ هو تقصُّد اتهام السياق النقدي للكتاب بالانتحال؟!، يضمره السياق النقدي فتفلت في لغته، حين ابتعد وعي التحليل عن هذه القضية إلى سواها؟!، فطفا على سطح اللغة، خروجًا من أعماق أنساقها المضمرة؟!.

التساؤل السادس: أليس هذا التأويل مخالف للدلالات المعجمية؟!

يستمر السياق النقدي مستخدمًا كافة الوسائل التحليلية، لا نقول للوصول إلى حقائق تاريخية مستنبطة آيبيستيمولوجيًّا؛ بل لتغذية قناعات موضوعة سلفًا، وما هذا التساؤل موضوع النقاش هنا عمّا نقول ببعيد، وهو ما كشفت عنه الأنساق الثقافية، السابقة في بحثنا.

لقد بدأ ما يسمى بـ(مشروع الرؤية) رويدًا رويدًا هنا يكشف عن نسقه المضمر الرئيس؛ وهو الدفاع عن الإباضية والاعتزال، أي عن نسق عقائدي أيديولوجي، في المقام الأول؛ وهو ما أبداه النسق البارز في مساقه الجمالي، الذي تجسّد في الدفاع عن المساجد والمقدسات الإسلامية، من النظرة التبخيسية للمساجد؛ التي يدّعي السياق النقدي تعرضها لها على يد الأسلاف وأخلافهم، وهو ما يسميه الدّس والطمس والإخفاء المتعمد للحقيقة، من قبل ما يسميهم (الأخلاف).

فينكشف مع التحليل ما يخفيه هذا النسق -الجميل في غايته المعلَنة -من أنساق مضمرة، تفلّت بعضها على السطح حتى في آلية الممارسة البارزة، في صوغ سياقات تلك الأنساق؛ كما سيأتي بيانه، يقول السياق النقدي: **«رابعًا: حرف (الخاء) الذي تبتدئ به كلمة (الخوقة) يرمز في العربية إلى كل ما هو كريه ومقزز وشائن، من ذلك: خزي، خرق، خجل، خيانة، خلاعة، خنوثة، خنيث، خذلان، خبل، خنزير، خرف، خسة، خسيس، خراء.**

و(الخوق) في اللغة هو (الجرب)، والأخوق هو الأجرب ... كل هذه المعاني السلبية التي تلتصق بكلمة (الخوقة) لا تتناسب أن تكون لها علاقة باسم يطلق على أحد المساجد مهما كانت الفرقة المذهبية التي ينتسب إليها ذلك المسجد، كما أنه لم يُعرف عن الفرق الإسلامية أن اعتمدت هذا الأسلوب التبخيسي في حق بعضها البعض. أما أن يطلق هذا الاسم (مسجد الخوقة) في ظل سيادة وسلطة الأباضية في شبام، فهذا ما لا يقبله عقل أو يستسيغه منطق»(٢٩).

أولاً: حرف الخاء والكلمات التي اصطفاها مبتدئة به، والتي ذكرها السياق النقدي هنا، تقدّمُ للقارئ لغة مصاحبة، يكتشف من خلالها عن كمية الكره المُضمر، لمن يسمِّيهم (الأخلاف)، التي تتجاوز سياق النقد العلمي الموضوعي، المتجرّد عن الشخصنة، هذا الكره يُقرأ في كلمات مثل: (كريه مقزّز شائن)، قبل اصطفائه الصادر عن الرؤية المظلمة تجاه المكروه، أو المبغوض، أو قل ناتج عن نصف الرؤية؛ على اعتبار أنّ ثمة إشراقًا في الكلمات التي تبدأ بحرف الخاء، تجاهله أو تغافله السياق النقدي؛ لأنه كان ينظر بالعين المظلمة في نسقه الاصطفائي؛ ولم يكتف بالاصطفاء بل عمّم السياق؛ بأن الكلمات التي تبتدئ بحرف الخاء ترمز في العربية إلى (كلّ) ما هو (كريه ومقزز وشائن). فبدا التعميم في كلمة (كل)، متجاهلاً مسارًا مشرقًا آخر يمكن أن ترسمه الكلمات المبدوءة بحرف الخاء مثل (خير/ خيل/ خمائل/ خلّة/ خدود/ خولة/ خوخ/ خديجة/ خبر/ خلود/ خرير/ خيال/ خواطر/ خلخال/ خاتم/ خلية/ خبز/ خنساء/ خطابة ...).

ألم يظلم السياق النقدي اللغة في اصطفائه السابق؟!

ألم يمر جذر لغوي في مخيلة السياق النقدي، من هذه الكلمات التي ذكرها بحثنا على سبيل التمثيل، لا الحصر وهو يفتش عما يعيب من كلمات مبدوءة بحرف الخاء؟!

ثم لمَ كرّر اشتقاق كل من لفظتي: (الخنث، والخسة)؟!

إن هذه اللغة ترسم دلالات عميقة، تفلتت بها لسان السياق النقدي هنا، حتى بدا ذلك السياق يهين ويبخس ما يدّعي أنه عنه يدافع.

ثانيًا: تأويل لفظة: (الخوق) بالجرب، واقتصار السياق النقدي على هذا التأويل، الذي يفترق تمامًا مع ما ذُكر من تأويلات أخرى في لسان العرب، وتاج العروس وغيرهما: حيث جاء في اللسان؛ «خوق: الخَوْقُ: الحَلْقة من الذَّهَب والفضة، وقيلَ هي حَلْقة القُرط. وفي الحديث: أما تَستطيع إحداكُنّ أن تأخذ خَوْقاً من فضَّة فتَطليه بزَعْفَران؟»(٣٠).

فالخوق: هو حلق الذهب والفضة، هنا وهما معدنان نفيسان، يأخذان دلالة بعيدة ومغايرة، لما اعتمدها وانتقاها السياق النقدي.

وقد تدلُّ مادة (خ و ق) في اللسان أيضًا على السعة، «الخَوْقُ الحَلْقة، وخاقُ المفازة طولها وخَوَقُها سَعَتُها ويقال خَوَقها طولها، وبلد أَخْوَقُ واسع...»(٣١).

بالتأمل الدقيق في دلالة الخوق في لسان العرب؛ يلتقي بُعدان دلاليان من خلال ما تقدّم يجمعان بين النفاسة والجمال؛ كما في: (الذهب + الفضة + الزعفران)، وهو مسار قرائيٌّ عمودي، بالإضافة إلى مسار آخر أفقيٍّ؛ هو مسار السعة والامتداد. هذان المساران هما من يرسمان آلية العلاقة بين العبد وربه عن طريق المسجد والصلاة، التي يتجه فيها قلب العابد بربه بوجهة عمودية ترسمها وجهة خروج الدعاء من قلب العابد فيده ممتدة للأعلى في الدعاء بالصلاة، وهي علاقة قلبية نفيسة تقوم على أساس الإيمان، وعلاقة أخرى أفقية ترابطية؛ هي العلاقة بين جميع مساجد الأرض والمسجد الحرام قبلة المسلمين، حيث تُوجَّه وجوه العابدين نحوه، على امتداد مناكب الأرض البعيدة. ألم تكن تلك العلاقات القرائية قراءاتٍ ساميةً يمكن أن يقرأها القارئ المحايد لدلالة (الخوقة) العظيمة، انطلاقًا من لسان العرب، وغيرها من جماليات التأويل المعجمي؟!

ألم يُسِئ السياق النقدي لهذا المسجد الطاهر؟! من حيث ادّعى أنه عنه يدافع؟!

ألا ينتفي بما تقدّم ذلك الاتهّام الذي أطلقه السياق النقدي؛ قائلاً: «وبالتأكيد الهدف من إطلاق اسم الخوقة على مسجد الأباضية إنما هو الإساءة وغرس النظرة التبخيسية للمذهب الأباضي...»(٣٢).

ألا يتشرف ذلك المسجد بهذا الاسم في دلالاته الجديدة؟!

ألم تكشف لغة المذهبية الطاغية في لغة الاتهام في السياق النقدي هنا، عن نمط النسق المستتر الخفي، تحت وجه السياق الجمالي البارز؟!

وهو الأمر الذي يسقط قناعه، سياق العبارة الآتية:

(أما أن يطلق هذا الاسم (مسجد الخوقة) في ظل سيادة وسلطة الأباضية في شبام، فهذا ما لا يقبله عقل أو يستسيغه منطق).

وإذا توقفنا على هذا السطر الأخير وما قبله، من الفقرة محل الدراسة هنا: بالإضافة إلى ما تقدّم منها يتجلى نسقٌ جماليٌّ، مدافع عن بيت من بيوت الله، من خلال مسمًّى اجتهد السياق النقدي لإبراز عيوبه (الخوقة)، وهو نسق جميل حين يؤمن به القارئ، لكنّ بحثنا كشف أنّ هذا النسق الجماليَّ كان يخُفي نسقًا مضمرًا؛ هو التعصُّب المذهبي المنبعث منه صوت السياق النقدي، هنا ومحاولة إظهار (الأخلاف) بأنهم مَن قاموا بهذا التشويه والتزييف لتاريخ تلك الحقبة، وقد بيّنا نمط هذا النسق المضمر فيما سبق من أسطر؛ من حيث اللغة المشحونة بألفاظ يتفلت منها الكره، والبغض الجلي لطرف (الأخلاف)، المجابه للمذهب الذي ينطلق من صوت السياق النقدي.

التساؤل السابع: لم التحريفُ في هذا الاقتباس؟!

يقول السياق النقدي: «**هكذا يمكن فهم قول المحقق الحبشي، بأن كتاب شنبل ظهر (بعد أن اختفت كل المصادر التاريخية عن حضرموت –انظر مقدمة المحقق). أي إن هذا الكتاب جاء نتيجة ذلك (الإخفاء) وليس (الاختفاء)**»(٣٣).

وبالامتثال للأمر (انظر)، فقد رجع الباحث إلى مقدمة المحقق، فوجد ثَمَّ اختلافًا جليًّا في الاقتباس عن المحقق الحبشي؛ حيث قال الحبشي: «حيث إن تاريخ شنبل ظلّ المصدر الوحيد للتاريخ دون منافس بعد أن اختفت كل المصادر التاريخية عن حضرموت»(٣٤).

فالفرق بين القولين؛ هو أنّ السياق النقدي في اقتباسه يوضح أن تاريخ شنبل ظهر بعد اختفاء المصادر التاريخية. بينما قول المحقق الحبشي يشرح أن تاريخ شنبل ظلّ المصدر الوحيد للتاريخ بعد اختفاء تلك المصادر؛ فكان

محور الاختلاف في القولين، في لفظتي (ظهر) و(ظل)، حيث إنّ للفظتين دلالتان زمنيتان مختلفتان؛ لأنّ ظهور كتاب شنبل بعد اختفاء المصادر التاريخية يؤخر زمان ظهوره عن زمن اختفائها، ويسوغ لتهمة من أراد الاتهام بأنه الفاعل الحقيقي في اختفاء تلك المصادر، ويجعله نتاجًا لمادة تلك المصادر المختفية. وهو تحريف حرّفه السياق النقدي في الاقتباس عن المحقق، بتقويله ما لم يقل، الأمر الذي يتنافى مع الأمانة العلمية البحثية.

أما قول المحقق: ظل كتاب شنبل بعد اختفاء تلك المصادر لا ينفي وجود الكتاب قبل اختفاء المصادر التاريخية، واستمرار بقائه بعد اختفائها. بينما اقتباس السياق النقدي (المحرَّف)، يحدّد زمن ظهور كتاب شنبل، بعد اختفاء المصادر التاريخية؛ للغاية التي ذكرناها آنفًا.

ولا شك في هذا التحريف في الاقتباس، وإن كان مقصده معلومًا، إلا أنه يسائل السياق النقدي، بالتساؤل في العنوان؛ لم التحريف في هذا الاقتباس؟!

التساؤل الثامن: أليس في النَّصين تناقضٌ جليٌّ؟!

تحت عنوان (أمثلة الفلترة والترشيح في كتاب شنبل)، أورد السياق النقدي فقرتين، يكشف الجمع بينهما عن تناقض جليٍّ؛ يقول في الفقرة الأولى بعد أن ذكر نماذج ممّا سمّاها أمثلة على الفلترة والترشيح في كتاب تاريخ شنبل: «كما أنه وحسب النماذج السابقة نجد أخبارها عديمة الفائدة فاقدة للمعنى، وهذا يعني أن المؤلف المجهول لهذا الكتاب، أوردها بهذا الأسلوب، ليس من أجل الفائدة العلمية، ففاقد الشيء لا يُعطيه، بل لملء فراغ الصفحات بتسويد بياضها لا غير»(٣٥).

يُظهر السياق النقدي عدم الفائدة الحقيقية، في الأخبار التي سردها شنبل في كتابه، فهي أخبار تفتقر إلى تقديم الفائدة العلمية، بل لا تعدو كونها تبييضًا لسواد الصفحات، كما يرى السياق النقدي.

ثم يقول متسائلاً تحت عنوان الفلترة والترشيح نفسه: «... بل لماذا سيطرت (الفلترة) على الكتاب كله على أهميته كمصدر وحيد للفترة التي يؤرخ لها؟؟»(٣٦).

كيف تحوّل كتاب شنبل هنا إلى كتاب مهم، ومصدر وحيد لتأريخ الفترة الزمنية التي تناولها، وقد بينت الفقرة السابقة، أن أخباره مجرد تبييض لسواد الصفحات، ولا يقدم فائد علمية؟!

هل من منهج السياق النقدي، أن يُعطي الكتاب أهمية، حين يريد أن يظهر أن أثر الفلترة ـ فيما لو ثبتت ـ فعلٌ شنيع فادح ألمّ بالكتاب؟!

وإذا توقفنا على تعميم الفلترة، حين قال: (على الكتاب كله)، هل يصبح الكتاب كاملاً -بهذا التوصيف- مفلترًا؟! أم منحولاً؟!

التساؤل التاسع (خلاصة البحث): من أنصف الفقيه (بن فضل)، كتاب الرؤية، أم كتاب شنبل؟!

يقول السياق النقدي تحت عنوان (تصغير وتبخيس الأعلام وبتر الأخبار):

«سنة ٥٨١هـ: توفي الفقيه سالم بن فضل في جماد الأخير. يقصد الإمام والفقيه والفيلسوف والرأس المعتزلي الكبير سالم بن فضل بن عبدالكريم بافضل، الذي بفضله (جرّت تريم على المجرة ذيلها: عجبًا، وحق لها الفخار الأكبر) وحوت علومه (فقه ابن إدريس وإعراب الخليل وما حوى سقراط والإسكندر). حسب ما قاله فيه الإمام محمد بن علي القلعي. ـ انظر: مفلح: نفسه - ١٠٣ - .

سنة ٦١١هـ: توفي الفقيه الورع أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي الحب.

انظر حديثنا عن هذا الفيلسوف والمتكلم المعتزلي الكبير صاحب قصيدة القوافي المشهورة في كتاب مشروع الرؤية: الحياة العلمية في تريم في القرن السادس الهجري. انظر: مفلح: نفسه - ٢٠٦)»(٣٧).

إذا بدأنا تحليلنا من الأخير؛ هنا في الإحالة (انظر حديثنا عن الفيسلوف...) فالسياق النقدي لا يتحدث هنا عن أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي الحب، بل مازال الوعي الناقد للسياق النقدي واقفًا عند **الفقيه سالم بن فضل**، الذي مجّده بما تقدّم من ألقاب؛ متكئًا بالاستشهاد من قول الإمام القلعي، المبالغ فيه: إن بفضله جرّت تريم على المجرة ذيلها عجبا ... وأنه حوى علوم الشافعي والخليل وسقراط والإسكندر، وليس بعضها، بل كلها كما ينصُّ السياق النقدي: (الذي بفضله (جرّت تريم على المجرة ذيلها: عجبًا، وحق لها الفخار الأكبر) وحوت علومه (فقه ابن إدريس وإعراب الخليل وما حوى سقراط والإسكندر).

ثمّة مضمورٌ في الوعي الناقد يتفلت في هذه اللغة؛ يتجاوز مجرد انتقاد شنبل؛ لأنه قصرّ كما يرى في ذكر وفاة الفقيه سالم بن فضل، في محاولة للتصغير والتبخيس كما ينصّ العنوان الذي ورد تحته هذا السياق النقدي.

تتبدّى علامات ذلك المُضمَر في ما ألحقه السياق من صفات التبجيل، والثناء للفقيه بن فضل، والانشغال اللا إرادي به، الذي نسي بسببه السياق أنه انتقل في الحديث إلى شخصٍ آخر، وهو **الفقيه الورع أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي الحب**، فظلّ يتحدث عن بن فضل خالقًا لَبسًا لدى القارئ. هذا الانشغال السياقي لم يقف عند هذا الحد. بل إنك إذا امتثلت الإحالة بعد اسم أبي الحب، تلقاها تشير إلى كتاب الكاتب السابق: (حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة)، تجد في المُحال إليه عنوانًا؛ كالآتي: **الحياة العلمية في تريم في القرن السادس الهجري**، يحوي هذا العنوان حديثًا تكلل بالثناء والألقاب العلمية، ليس لابن أبي الحب، كما يفهم كل قارئ للإحالة السابقة، بل للفقيه سالم بن فضل، في امتدادٍ لسيطرة هذا الاسم على الوعي الناقد، لما يسميه مشروع الرؤية، على مدى الكتابين معًا. الأمر الذي يكشف أن اتهام شنبل بالتبخيس والتصغير، في ذكر الفقيه سالم بن فضل مجرّد ذريعة، ومدخل يدخل منه السياق النقدي إلى مشروع التبجيل لهذه الشخصية، فالأمر يتجاوز نقد سياق منقوص، إلى كونه تأسيسًا لمشروع عام؛ بدا التصريح به، يسيل حبرًا وافرًا من لدن السياق النقدي.

كما ننبه القارئ بأنه إذا امتثل الانصياع للإحالة السابقة إلى كتاب (حضرموت بين القرنين...) -التي أوردها السياق النقدي حين قال: **(انظر حديثنا عن هذا الفيلسوف والمتكلم المعتزلي الكبير صاحب قصيدة القوافي المشهورة في كتاب مشروع الرؤية: الحياة العلمية في تريم في القرن السادس الهجري. انظر: مفلح: نفسه -٢٠٦)**- لن يجد في الصفحة المشار إليها حديثًا عن الفقيه سالم بافضل، ولكنه سيجد العنوان المذكور: (الحياة العلمية في تريم في القرن السادس الهجري)، لكن الحديث عن الفقيه بن فضل ورد في الصفحة التالية(٢٠٧)، وقد ورد اسم الفقيه سالم بن فضل فيها بثلاث صور؛ على النحو الآتي: (القصيدة الفكرية لشيخ الإسلام بافضل)، (وفيها وجدنا شيخنا بافضل)، (وفي هذا القول للإمام بافضل)(٣٨).

إذن هذه التراكيب الثلاثة للاسم: **(شيخ الإسلام بافضل) + (شيخنا بافضل) + (الإمام بافضل)**.

أولاً: هل أنصف السياق النقدي اسم الفقيه بافضل هنا؟!

ثانيًا: أليس الاسم الذي أورده شنبل: (الفقيه سالم بن فضل)، ذكر اسم الرجل (سالم) في حين لم يذكره، من ادّعى أنه له هنا منصف؟!

ثالثًا: ألا يسيطر على الوعي السياقي، بُعدٌ عقائديٌّ مذهبي هنا، باعتبار أنّ ألفاظًا مثل: (شيخ + شيخنا + الإمام)، هي ما تنصف ذكر الفقيه، حتى على حساب اسمه (سالم)؟!

رابعًا: ألم يسقط المتحدث في السياق النقدي، في فخ المذهبية العقائدية، التي تخُرج نقدَهُ عن مسار البحث التاريخي، ذي الحيادية العلمية، حينما أدخل ذاتَهُ ضمن

طرف من الأطراف المذهبية -هو الاعتزال هنا- حين قال في التركيب الثاني: (شيخنا)؟!

لأنه يصرح بمذهب الرجل، في السياق نفسه؛ قائلاً: (الفيلسوف والمتكلم المعتزلي الكبير).

وحين يصرح الصوت النقدي أن هذا الرجل شيخه: (شيخنا)، فهو يعلن إعلانًا صريحًا، باعتناق الكاتب مذهب الشيخ المعتزلي الكبير.

هنا ينكشف النسق المضمر العام، تحت نسق ما يسمّى مشروع الرؤية بأكمله -ونقد كتاب شنبل جزء منه- مشروع الرؤية الذي يَظهر مدافعًا عن نقاء تاريخ حضرموت، ضد من يسميهم (الأسلاف والأخلاف)، الذين قاموا بتزويره وطمسه -كما يدّعي- لكن هذا النسق الجمالي البارز العام هنا، تجلّى إخفاؤه لنسقٍ قبحيٍّ مضمرٍ، حاول السياق النقدي تمريره، تحت ذلك النسق العام؛ وهو الدفاع عن المذهب المعتزلي، ونبذ مشروع السنة والأسلاف وأخلافهم فقط؛ لمجابهتهم منهج المعتزلة، والأباضية، في وجهةٍ لمشروع الرؤية نحو المذهبية، العقائدية، بعيدًا عن نقاء البحث التاريخي العلمي الأبستيمولوجي المحايد.

وهو ما يقرأه القارئ بجلاء في قول السياق النقدي: «**فقد كانت تريم وحضرموت عامة تعج بنشاط زهدي وعبادي مكثف، وهو مشهور عن المعتزلة والأباضية منذ بواكير ظهورهم، في التاريخ الإسلامي**»(٣٩).

ولسنا ندري أهو ضربٌ من المصادفة، أم تقصّدٌ عناه السياق النقدي، حينما أحال إلى الكتاب السابق، وهو يحيل إلى منزلة الفقيه سالم بن فضل، التي تم الحديث عنها، فإنّ الصفحة التي لم تحو ذكر الفقيه بن فضل -والتي أحال إليها السياق النقدي- حوت الإفصاح عن النسق المُضمَر العام الذي ذكره بحثنا آنفًا، حين قال مادحًا مذهب الاعتزال، ونكرانهم لمعجزات الرسول الكريم، وجميع الأنبياء: «**ذلك أن المعتزلة في أية مرحلة من مراحل تطوّرهم الفكري، أو في دور قوتهم أو ضعفهم، إنّما كانوا يقدّمون العقل على النقل، وانطلاقًا من نزعتهم العقلية المتأصلة فيهم نراهم لا يقرون بالمعجزات إلا للأنبياء، ولا يقرون بالكرامات للأولياء، ولا يقرون الكثير من المعجزات المروية للرسول الكريم، مثل انشقاق القمر، ونبع الماء بين أصابعه، ويعتبرون أن القرآن وحده معجزة نبي الإسلام**»(٤٠).

وإن كان السياق النقدي يبرّر للمعتزلة نكرانهم للمعجزات والكرامات؛ لأنهم ينطلقون من نزعتهم بتقديم العقل على النقل، فإنه سياقٌ يستوقف القارئ بعددٍ من عبارات المساءلة، منها:

أولًا: لم التناقض في سياق الفقرة السابقة؟!

فحينما يقول: "إن المعتزلة لا يقرون بالمعجزات إلا للأنبياء"، يقول في السياق ذاته: "ولا يقرون الكثير من المعجزات المروية للرسول الكريم"، ويقصد به نبينا محمد -صلى الله عليه وسلّم- سنتجاوز هنا عدم قوله: (رسولنا الكريم) مثلما قال (شيخنا) عن الفقيه سالم بن فضل المعتزلي الكبير -بوصف السياق النقدي- ونضع السؤال المنطقي:

أليس رسولنا الكريم نبيًّا؟!

لِمَ يقر المعتزلة بمعجزات الأنبياء، ولا يقرون بمعجزات رسولنا الكريم؟!

فلنقف أيضًا عند قوله: (ولا يقرون الكثير من المعجزات المروية للرسول الكريم، مثل انشقاق القمر، ونبع الماء بين أصابعه، ويعتبرون أن القرآن وحده معجزة نبي الإسلام).

إذا بدأنا من حيث توقفت هذه العبارة، في قوله: (ويعتبرون أن القرآن وحده معجزة نبي الإسلام)، أي ينكرون السنة، فلنتجاوز ذلك أيضًا: قوله: (نبي الإسلام)، وعدم ذكر اسمه، أو إضافته إلى المتكلم، بقوله: (نبينا محمد)، مثلما قال عن بن فضل المعتزلي (شيخنا)، فلنتجاوز ذلك كلّه؛ ونتساءل:

أليست معجزة انشقاق القمر معجزة قرآنية؟!، أم إنها -بنظر المعتزلة- سحرٌ مستمر؟!

قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾(٤١).

فكيف يقول السياق النقدي: إن المعتزلة يعتبرون أن القرآن وحده معجزة نبي الإسلام، مباشرة بعد قوله: ولا يقرون الكثير من المعجزات المروية للرسول الكريم، مثل انشقاق القمر؟!

أليست معجزة انشقاق القمر معجزة قرآنية؟!

لا يخفى على قارئ فطنٍ لسياقات هذه اللغة النقدية، تبخيس وإنقاصٌ لمقام نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الأمر الذي لم يظهر فيه حتى اسمه، هنا ولا إضافته لضمير أنا السياق النقدي، هنا مثل ما فعل مع الفقيه سالم بن فضل، الذي يرى أن وصفه بهذا الاسم، فيه تبخيس وتصغير(٤٢)، الأمر الذي جعل السياق النقدي، يقر بإثبات المعجزات للأنبياء، ونكرانها لنبي الإسلام؛ كما يقول.

لعلنا ونحن نحلل السياق المُضمر الذي تكشّف في نهاية بحثنا نصل إلى أعماق الكره والعداء لدى باطن السياق النقدي لكلٍّ من هو مجابه منهج الاعتزال، وعلى الأخصّ الأسلاف والأحفاد، ومن تربطه بهم علاقة، كيف ونبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- سيّدُ الأسلاف والأخلاف.

لعلنا نجد حينها أجوبة مقنعة لتساؤلاتنا الأخيرة، التي تجافي تمامًا منهج البحث العلمي، المفتش عن الحقيقة في ذاتها، وليس في جهات ذواتها.

ولعلنا إذا ما نظرنا إلى ما يسمّى بـ(مشروع الرؤية) برمّته؛ في كتابيَ الباحث سالم فرج مُفلِح، الأول والثاني؛ كونهما كتابًا واحدًا، يكمل الثاني الأولَ، كما صرّح بذلك الباحث نفسه(٤٣)، فإنه بإمكاننا رؤية نسقين للكتابين، يرسم **الكتاب الأول النسق البارز**؛ ويتجسّد ذلك في عنوان الكتاب (حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة).

هذا النسق -حين تأليفه- كان يُضمر نسقًا آخرَ يتجلىَّ في اتهام الأسلاف والأخلاف، بـ(التزوير واستلاب الهوية). وهو عنوان الكتاب الثاني لمشروع الرؤية المفلحية. فتنجلي وظيفة مشروع النقد الثقافي الغذامي في آليته النسقية، التي تهدف إلى كشف الأنساق المضمرة، المختبئة تحت أقنعة الأنساق الظاهرة وتعريتها، وعدم السماح بتمرير تلك الأنساق المضمرة؛ لأنها إن مُرّرت وسوّقت تتحول في ذاتها إلى أنساق بارزة تضمر قبحياتٍ أعمق، وأشد قتامة؛ وما تحوُّل النسق المضمر لكتاب (حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة)، إلى نسق بارز هو اتهام الأسلاف والأخلاف بالتزوير واستلاب الهوية، في الكتاب الثاني (التزوير واستلاب الهوية)، إلا خير دليل على فعل الثقافة في تفريخ الأنساق من بعضها البعض. ولم يقتصر اتهام الأسلاف والأخلاف بذلك حسب؛ بل يتعدّى الاتهام إلى كون الأسلاف والأخلاف أدواتٍ تحقق مآرب الاستعمار البريطاني، كما يبدو في قوله: «ذلك أن خطاب مشروع الرؤية الواردة في كتابي الأول ـ وهو الأمر الذي لم أصرّح به حينها لأسباب ارتأيتها ـ وكتابي هذا ينتميان إلى خطاب الدراسات النقدية ما بعد الاستعمارية، وهو خطاب يهدف إلى كشف وتعرية الجرائم التي مارسها الاستعمار في حق شعوب المستعمرات، في المجال الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، من حيث استهداف هويات تلك الشعوب وطمسها وتأزيم تطورها ونهضتها في جميع المجالات»(٤٤). هنا يتجلىّ مدى قتامة الأنساق المضمرة في منهج ما يسمّى بمشروع الرؤية.

ولأنّ المنهج النقدي المتبع لأي دراسة تفرضه طبيعة الحقل الإبداعي المدروس -إنْ أدبًا وإن نقدًا- فقد فرضت طبيعة بحث النقد الداخلي لكتاب شنبل، على بحثنا اتباع منهج النقد الثقافي، لما يقوم عليه من ثنائية الأنساق، الظاهرة الجميلة، والمضمرة القبيحة (بتعبير غذامي).

في الأخير حاول بحثنا تفنيد الأنساق البارزة المزيَّنة بالجماليات، التي يسوّق من خلالها الخطاب النقديُّ -في ما يسمّى (مشروع الرؤية) - أنساقَه المضمرة، على منهج

نقدي، ومشروع رؤية، كما أسماها الباحث سالم فرج مفلح، وعلى مدار بحثنا، تعامل مع المشروع المفلحي، على أنه (سياق نقدي)؛ ليخاطب بحثنا صوتًا نقديًّا بطريقة علمية، تنأى عن الشخصنة، فبحثنا لا يسائل الباحث بقدر ما يسائل سياقًا نقديًّا ناتجًا عنه، من باب النقد على النقد، كما أسلفنا في المقدمة: إن المشروع النقدي الثقافي ذاته، انطلق في مضمار المجال النقدي، حين جعل من نسق (اختراع الفحل)، وهو نسق نقدي استظلّ تحت ظلاله كتاب: (طبقات فحول الشعراء) لابن سلاّم الجمحي، وهو من أهم الكتب النقدية التي صدّرتها الثقافة العربية.

فكما يرى الدكتور عبدالماجد عبدالرحمن: «فالتاريخ مثل الرواية تمامًا لا توجد قراءة واحدة صحيحة له، وقابل باستمرار للقراءة، والقراءة الجديدة، وهو يتسع على الدوام للتأويل المختلف»(٤٥)؛ لذا لا نخفي -في الأخير- إعجابنا باختيار أسلوب نقدي داخلي من قِبل المؤلف مفلح يعاين النصوص التاريخية من داخلها، بعيدًا عمّا نقرأُه من أبحاث تاريخية حديثة في الزمان، لكنها تليدة الرؤيا، بحيث تقتصر على تدوير التاريخ، وهو أمر كفيل بإضعافه، وتعطيل وظائفه الفكرية المنتجة في العصر الحديث.

ونحن كباحثين نتوق لكشف كل الحقائق الخفية، أو المطمورة -إن وجدت- في تاريخ حضرموت، إن أثبت الدليل البحثي، والعلمي ذلك، وكشف كل من كان له يد في إخفاء تلك الحقبة التاريخية، التي يرى مشروع الرؤية أنه قد تعرّض للإخفاء والتحريف، وإن كان الزمن الثقافي في الوطن العربي ككل قد تعرض لفقدان في مراحل من مراحل تعاقبه كما يرى محمد عابد الجابري؛ متحدثًا عن التاريخ العربي أن القرون الوسطى تفتقد إلى ما يسبقها لتخلق وسطويتها، أما ما بين الثامن الهجري (الخامس عشر الميلادي)، والثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) فهي مدة تمثل حلقة مفقودة في التاريخ العربي(٤٦)، أليس تاريخ حضرموت جزءًا من ذلك التاريخ العربي العام المفقود؟!، أليست أسباب فقدان التاريخ العربي عامةً، بعيدة عن تأثير من يَعنيهم السياق النقدي بالأسلاف والأخلاف؟!، فيكون اعتراف الجابري صك تبرئة للأخلاف، مما اتهموا به من قبل السياق النقدي؟!.

ونحن كباحثين لن نتوانى عن التسليم بكل فكر أو حقائق مثبتة علميًا، تتهم أي شريحة أو مذهب أو طائفة أيًّا كان بإخفاء أو تحريف حقائق تاريخية مثبتة؛ لأن حضرموت فوق الطائفية والمذهبية، لكن المؤسف أن هذه الوجهات الأيديولوجية هي من ترسم ملامح التاريخ، وفقًا وما يتماشى مع تياراتها منذ القدم؛ لذا لابد عند تقديم المعلومة التاريخية، أن تكون مبنية على مستندات وأدلة منطقية، مجرّدة عن الهوى الجهوي، حتى نضع القارئ على أرضٍ صلبة من التلقي، بعيدًا عن الميول الذاتية، والتمنطق العقائدي.

الهوامش:

١- النص والخطاب، جدل القراءة والمعنى: ١٤٤.

٢- ينظر، النقد الثقافي: ٧٧، ٢٥٦.

٣- السابق: ٦٥.

٤- السابق: ٧٧.

٥- ينظر السابق: ٧٧.

٦- ينظر، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين:

٧- التزوير واستلاب الهوية: ٧.

٨- السابق: ١٨.

٩- السابق: ١٣٥.

١٠- المدارس التاريخية: ٣٤.

١١- ينظر، علم البيان: ١٤٧.

١٢- التزوير واستلاب الهوية: ١٨.

١٣- السابق: ٢٠.

١٤- ينظر تاج العروس: مادة (خ ر م).

١٥- السابق: ٢١.

١٦- السابق: ٢١، نقلاً عن: تحقيق النصوص ونشرها، عبدالسلام هارون: ٤٦.

١٧- تاريخ شنبل: ٢٠٢.

١٨ـ السابق: ٢٠٩.

١٩ـ المثقفون في الحضارة العربية: ١٠٧ـ١٠٨.

٢٠ـ التزوير واستلاب الهوية: ٢١.

٢١ـ السابق: ٢١ـ٢٢.

٢٢ـ ينظر النقد الحضاري في الوطن العربي: ٢/ ٢٧٣.

٢٣ـ التزوير واستلاب الهوية: ٢٦.

٢٤ـ السابق: ٢٦.

٢٥ـ السابق: ٢٦.

٢٦ـ ينظر لسان العرب: مادة (ش ن ب ل).

٢٧ـ ت اريخ شنبل: ١٤.

٢٨ـ الأعلام: ٣/ ١٧٧.

٢٩ـ التزوير واستلاب الهوية: ٣٤ـ ٣٥.

٣٠ـ لسان العرب: مادة (خ و ق).

٣١ـ السابق: مادة (خ و ق).

٣٢ـ التزوير واستلاب الهوية: ٣٥.

٣٣ـ السابق: ٣٩.

٣٤ـ تاريخ شنبل: ٤.

٣٥ـ التزوير واستلاب الهوية: ٤٢.

٣٦ـ السابق: ٤٧.

٣٧ـ السابق: ٤٩.

٣٨ـ حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة: ٢٠٧.

٣٩ـ السابق: ٢٠٧.

٤٠ـ السابق: ٢٠٦.

٤١ـ سورة القمر: ١ـ ٢.

٤٢ـ ينظر التزوير واستلاب الهوية: ٤٩.

٤٣ـ ينظر السابق: ٧.

٤٤ـ السابق: ٨.

٤٥ـ النص والخطاب جدل القراءة والمعنى: ١٦٤ـ ١٦٥.

٤٦ـ ينظر تكوين العقل العربي: ٤٣ـ ٤٤.

مصادر البحث ومراجعه:

أولاً: القرآن الكريم:

ثانيًا: المصادر:

• تاريخ حضرموت، المعروف بـ تاريخ شنبل، المؤرخ أحمد بن عبدالله شنبل (ت: ٩٢٠هـ)، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط (٢)، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، مكتبة صنعاء الأثرية، اليمن.

• التزوير واستلاب الهوية: سالم فرج مفلح، ط (١)، ٢٠١٨م، دار حضرموت للدراسات والنشر، حضرموت.

• حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة: سالم فرج مفلح، ط (١)، ٢٠٠٦م، دار حضرموت للدراسات والنشر، حضرموت.

ثالثًا: المراجع:

• الأعلام: خير الدين الزركلي، ط (٧) ١٩٨٦م، دار العلم للملايين، بيروت.

• تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبدالرزاق الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

• التراث والحداثة دراسات ومناقشات: محمد عابد الجابري، ط (١)، ١٩٩١م، بيروت.

• تكوين العقل العربي: محمد عابد الجابري، ط (٨)، ٢٠٠٢م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ـ لبنان.

• جني الشماريخ، جواب أسئلة في التاريخ: علوي بن طاهر بن عبدالله الحدّاد (ت: ١٣٨٢هـ)، دراسة وتحقيق د. محمد يسلم عبد النور، ط (١)، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م، تريم للدراسات والنشر، حضرموت.

• الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها: علوي بن طاهر الحدّاد (ت: ١٣٨٢هـ)، فهرسه وقدّم له د. محمد أبوبكر باذيب، ط (١)، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م، دار الفتح للدراسات والنشر، الأردن.

• طبقات فحول الشعراء: ابن سلاّم الجمحي، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، ١٩٧٤، القاهرة.

• علم المعاني: عبدالعزيز عتيق، ط (١)، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، دار النهضة العربية، بيروت.

• لسان العرب: محمد بن مكرم ابن منظور، ط (٣)، ١٤١٤هـ، دار صادر، بيروت.

• المثقفون في الحضارة العربية: محد عابد الجابري، ط (٢)، ٢٠٠٠م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ـ لبنان.

• المدارس التاريخية من المنهج إلى التناهج: محمد حبيدة، دار الأمان، الرباط.

• النَّص والخطاب، جدل القراءة والمعنى: عبدالماجد عبدالرحمن، ط (١)، ٢٠١٤م، مدارات، الخرطوم.

• النقد الثقافي: عبدالله الغذامي، ط (٦)، ٢٠١٤م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

• النقد الثقافي: هيثم أحمد العزام، ط (١)، ٢٠١٤م، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الأردن.

• النقد الحضاري في الوطن العربي: أوراق مؤتمر فيلادلفيا الدولي الواحد والعشرين، ١١ ـ ١٣ نيسان (إبريل)، ط (١)، ٢٠١٨م، فضاءات للنشر والتوزيع، الأردن.

• النقد الحضاري للمجتمع العربي، في نهاية القرن العشرين: هشام شرابي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ـ لبنان.

67
العدد
(25 - 24)
ابريل
سبتمبر
2022م

تأثير الوجود العثماني في تقويض البنية الاجتماعية في المجتمع الحضرمي

ـ حسب مشروع الرؤية ـ للباحث سالم مفلح



سالم القاضي باوزير

المقدمة:

لفهم حقيقة واقعنا الاجتماعي علينا أن نقرأ الأحداث التاريخية قراءة نقدية واعية كما حدثت في زمانها ومكانها، وما أعقبها من تحولات سياسية ومذهبية تسبَّبت في تقويض البنية الاجتماعية للمجتمع الحضرمي، وإعادة هيكلته من جديد في ظروف تاريخية غامضة وغير مفهومة، ولم نجد من بين الباحثين في الحقل التاريخي والاجتماعي من تناول تاريخ حضرموت بالنقد العلمي الموضوعي (التفكيك) غير الأستاذ سالم فرج مفلح في مشروع رؤيته، الذي يُعدُّ تحديًا قويًا وصارمًا، ولطمة نقدية في وجه الفاعلين الاجتماعيين من حملة الألقاب العلمية الكبيرة، من أنصار الرؤية السائدة.

ولمعرفة حقيقة ما جرى من أحداث فترة البحث والتأكد من صحتها، وفهم ملابساتها فهماً موضوعيًا صحيحًا، ارتأيت أن أستوضح في هذه الورقة أهم حدث تاريخي تعرضت له حضرموت عبر تاريخها الإسلامي، فترة ظهور السلطان بدر أبي طويرق (٩٠٢ -٩٧٧هـ/ ١٤٩٧ - ١٥٦٩م)(١) على مسرح الأحداث التاريخية، وتنفيذ مشروعه السياسي بدعم ومساندة من قبل العثمانيين الأتراك (السنة)، وما أعقبه من تغيرات سياسية ومذهبية، كانت لها انعكاساتها الخطيرة على الواقع الاجتماعي الحضرمي. فقد كان السلطان بدر يرى في القوى المناوئة له من القبائل الحضرمية الأباضية خطراً يهدد سلطته الزمنية، وليس لديه من القوة ما يكفي لهزيمتها والقضاء عليها، فظلت تشكِّل عائقًا أمام تحقيق طموحاته السياسية، وفرض سلطته الزمنية والدينية (المذهبية)، على كل التراب الحضرمي.

فحينها لم يكن أمامه غير اللجوء إلى الأتراك العثمانيين، ليستعين بهم في حربه على خصومه السياسيين من الأباضية والمعتزلة، بعد أن أقسم يمين الولاء والطاعة لسلطة الخلافة العثمانية في إسطنبول، وتعهَّد لها بالقضاء على الوجود الأباضي المعتزلي، وإخضاع حضرموت لتكون تحت الهيمنة والنفوذ العثماني.

ففترة حكم السلطان بدر أبي طويرق تُعدُّ من أهم الفترات وأخطرها التي مرت بها حضرموت، وتستحق من كل الباحثين أن يُعيدوا النظر فيما جرى فيها من أحداث تاريخية، وقراءتها قراءة موضوعية صحيحة، بعيداً عن الأهواء الذاتية والمؤثرات النفسية والاجتماعية؛ لكونها

تسجل لأخطر حدث تاريخي تعرضت له حضرموت، تسبب في تحطيم بنيتها الاجتماعية، وأصابها بمقتل في تركيبتها السكانية التاريخية الأصيلة، نتيجة لتلك الأحداث.

وما ستتناوله في هذه الورقة تأثير الوجود العثماني في تقويض البنية الاجتماعية، في أثناء وبعد مشروع السلطان بدر أبي طويرق، وما ترتب عليه من انعكاسات سلبية، بقيت آثار تشوُّهاتها إلى اليوم.

ظروف الوجود العثماني وملابساته في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي في حضرموت:

على الرغم من شحة المصادر وقلة المعلومات ونقصها، بخصوص الوجود العثماني (التركي) في حضرموت في أثناء فترة حكم السلطان بدر أبي طويرق، فإننا حاولنا بقدر المستطاع أن نجمع من بين أضابير الكتب والرسائل العلمية، ومن خلال ما قدم لنا مشروع الرؤية من معلومات عن تلك الفترة الزمنية وحقيقة ما جرى فيها من أحداث تاريخية، وفهم ملابساتها فهماً موضوعيًا صحيحًا، بعد أن تمَّ طمس كل ما يتعلق بتاريخ الوجود العثماني في حضرموت وإخفاؤه، وما رافقه من تحولات سياسية ومذهبية واجتماعية، لا تزال آثار تشوُّهاتها باقية إلى اليوم. ولسدِّ ذلك النقص سوف نقوم بالمقاربة التاريخية بين أوضاع الجزائر العثمانية وحضرموت، في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، في أثناء عهد السلطان بدر أبي طويرق.

بعد سقوط غرناطة آخر معاقل الدولة الإسلامية في الأندلس سنة ٨٩٧هـ الموافق ١٤٩٢م، قامت السلطات الإسبانية بحملة تنصيرية شعواء لإجبار مسلمي الأندلس على اعتناق المسيحية، فتتبعت من بقي على الإسلام بالقتل والتشريد، ونصبت لهم محاكم التفتيش، وحينها لم يكن أمام الأندلسيين إلا الفرار بدينهم إلى بلدان المغرب الإسلامي، ومنها الجزائر.



الباحث سالم فرج مفلح

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الخطر الإسباني يتهدد بلدان المغرب الإسلامي، بعد أن أخذ ملك إسبانيا بنصائح الكاردينال خمينس لملاحقة مسلمي الأندلس الفارين إلى بلدان المغرب، فبدأت غارات الإسبان وتحرشاتهم على سواحل المغرب الإسلامي، حتى وصلوا إلى صخرة (البنيون)(٢) الواقعة في مدخل مدينة الجزائر، بعد احتلالهم لأكبر الموانئ والمدن الجزائرية. وحينها لم يكن أمام الجزائريين إلا أن يستعينوا بالأخوين بربروس عروج وخير الدين (الأتراك)(٣)، ليعود الصراع من جديد ما بين الغرب المسيحي، والشرق الإسلامي، وخاصة بعد أن (ارتبطت الجزائر رسميًا بعاصمة الخلافة العثمانية سنة ١٥١٩هـ، وأضحى تولية الولاة من صلاحيات السلاطين العثمانيين وحدهم، وكان خير الدين بربروس أول حاكم أقرَّ السلطان سليم الأول تعيينه، ولتدعيم مركزه وسلطته بالجزائر أرسل السلطان العثماني للوالي الجديد في الجزائر ألفين من الجند الانكشاري، كما سمح للمتطوعين بالالتحاق هناك، وبذلك تشكَّلت النواة الأولى للجيش الانكشاري بالجزائر)(٤).

وفي الفترة نفسها التي تم فيها تنصيب خير الدين بربروس والياً على الجزائر من قبل السلطان العثماني ودعمه عسكريًا لمواجهة الخطر الإسباني الذي يتهدَّد المغرب الإسلامي، ومنها الجزائر، وكانت دولة الخلافة العثمانية تواجه خطرًا آخر في المشرق الإسلامي، بعد أن قام البرتغاليون بتجهيز حملاتهم الاستعمارية لمهاجمة سواحل وموانئ البحر الأحمر والمحيط الهندي، من أجل السيطرة الكاملة على طرق التجارة والتحكم فيها. ومن بين الموانئ التي تعرضت للغزو البرتغالي ميناء الشحر؛ والذي يقع وقتها تحت سلطة السلطان بدر أبي طويرق ونفوذه، وهو حليف الأتراك العثمانيين. وفي أثناء الغزو كان السلطان بدر مشغولاً بمحاربة القبائل الحضرمية من الأباضية والمعتزلة، بعد تحوُّله عن مذهب الاعتزال - المذهب التأسيسي لدولة آل جعفر الكثيرية(٥)- إلى مذهب ومعتقد الدولة العثمانية (التصوف القبوري).

ولدعم سلطته السياسية وتعزيزها تمَّ تعيينه من قبل العثمانيين الأتراك حاكماً على حضرموت بموجب فرمان الباب العالي في إسطنبول، ليشمل حكمه أكبر مساحة من جنوب الجزيرة العربية، من عُمَان شرقًا إلى باب المندب غربًا، ودعمه سياسيًا وعسكريًا، لمواجهة ما يتهدد حكمه من أخطار داخلية وخارجية.

وفي السنة نفسها التي ارتبطت فيها الجزائر بعاصمة الخلافة العثمانية سنة ١٥١٩م(٦)، كان وصول أول قوة من الجيش العثماني التركي الانكشاري إلى حضرموت بقيادة رجب التركي، مجهزة بالأسلحة النارية، وكان ذلك أول ظهور للسلاح الناري في حضرموت(٧). وقد أُوكلت إلى تلك القوة العثمانية في حضرموت القيام بمهمتين أساسيتين:

المهمة الأولى:

تتمثل في حماية السواحل والموانئ الحضرمية وتأمينها، وما قد تتعرض له من أخطار خارجية في الوقت الذي كانت فيه أساطيل البحرية البرتغالية تجوب مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي مهدِّدةً بذلك طرق الملاحة العربية والإسلامية.

المهمة الثانية:

القضاء على القوى غير السنية من (الأباضية والمعتزلة) المعارضة لحكم السلطان بدر أبي طويرق ومشروعه السياسي الجديد، والعمل على تثبيت سلطته السياسية والمذهبية على كل التراب الحضرمي.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت حضرموت (البدرية) تخضع خضوعًا كاملاً لسلطة الخلافة في إسطنبول، بل تُعدُّ ولاية من ولايات الدولة العثمانية.

وما حصل في حضرموت هو نفس ما حصل في الجزائر تمامًا فقد (جلبت مدينة الجزائر باعتبارها القطب الغربي للدولة العثمانية بعد إسطنبول أنظار الراغبين في الجاه والمال والوظائف، وهكذا توافد عليها الفقهاء والعلماء والدراويش، كما أمّها المغامرون من كل صنف)(٨). ويبدو أن سلطة الخلافة العثمانية في إسطنبول قد اعتمدت في سياستها تجاه الأقطار العربية الواقعة تحت سلطتها الاستعمارية سياسة (الإقصاء والتهميش) لاستهداف الهُوية العربية، من خلال جلب أعداد بشرية كبيرة من ذوي الأصول غير العربية، قامت بتوطينهم داخل المجتمعات العربية.

وقد (عملت التركيبة العثمانية التركية من ناحية تكوينها الاجتماعي والعرقي طوال تاريخها على إبقاء الأهالي بعيدين عن أي إسهامٍ في أمور النيابة، وحالت دون إمكان اندماج أفرادها بالأوساط الشعبية، وقد يفسر هذا الإحجام عن الاندماج بالسكان إلى رغبة العثمانيين الأتراك في إبقاء هيمنتهم وسيطرتهم على المناصب الحكومية، وزاد حقد الرعية تجاه هذه الطبقة الغريبة لما فرضته من ضرائب وغرامات)(٩).

وهذا ما حصل بالفعل في حضرموت، فبعد أن سيطرت قوات السلطان بدر أبي طويرق المدعومة من قبل العثمانيين الأتراك على المدن الكبرى في ساحل ووادي حضرموت، قررت دولة الخلافة في إسطنبول إرسال

دفعة أخرى من الجنود والمتطوعين لغرض تأمين المدن، التي تمت السيطرة عليها.

ففي سنة ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م توقفت حملة القائد التركي مصطفى بيرم المتجهة إلى الهند في ميناء الشحر، لإنزال دفعة جديدة من القوات العثمانية مكونة من ١٠٠ جندي بقيادة صفر سلمان، ترافقهم عوائلهم(١٠).

ويبدو أن هذه القوة لم تأت للقيام بمهمة قتالية فحسب كما تذكر بعض المصادر التاريخية الحضرمية، بل جاءت لاستيطان تلك المدن الحضرمية، بعد أن تم إفراغها من سكانها الأصليين (القبائل)؛ وإجبارهم على الفرار منها إلى رؤوس الجبال؛ ليعودوا إلى حالة البداوة بعد التحضرّ، الأمر الذي أدى إلى ميلاد مجتمع حضرمي آخر غير المجتمع التقليدي القبلي الذي كان سائداً قبل مشروع السلطان بدر.

طبيعة الحياة الاجتماعية في المدن بعد التغييرات التي أحدثها الوجود العثماني:

تتأسس معرفتنا بالهوية الحضرمية والتاريخ الحضرمي على السيادة الاجتماعية للأباضية والمعتزلة حتى نهاية القرن العاشر الهجري لتدخل بعدها حضرموت تحت مظلة التصوف القبوري، بعد أن تعرض الوجود الأباضي والمعتزلي لضربات عدَّة قاصمة على يد السلطات (الصوفية)، وإجبارهم على التصوف القبوري، فإن الصراع ظل خفيًا مع القوى الصوفية وسلطاتها، وقد استمر حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري، وفي هذا القرن تمكنت القوى الصوفية من فرض نفوذها وهيمنتها الدينية في المجتمع بشكل كامل من خلال الأربطة الدينية، بنهجها الصوفي القبوري، وفيها تم وضع الأسس التنظيمية والفكرية للتراتبية الاجتماعية السائدة اليوم، بعد أن كانت حضرموت عثمانية كما شهد بها الإمام السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢هـ، التي تعني المساواة بين الناس بالتقوى(١١).

هذا التحول الصوفي والتراتبي الذي كانت بداياته الأولى مع الوجود العثماني بداية القرن العاشر الهجري في عهد السلطان بدر أبي طويرق، انحدر بحضرموت من عقلانية وبيانية الأباضية والاعتزال، إلى التصوف القبوري، ومن العثمانية التي لا تميز بين الناس إلا بالتقوى، إلى مهاوي التراتبية المقيتة التي مزقت المجتمع الحضرمي شر ممزق، ولا يزال يعاني ويلاتها إلى اليوم.

كل هذه المتغيرات لا بد أن تعكس وجودها في مجتمعات المدن الحضرمية (دون البوادي)؛ سلوكًا وأفكاراً بعد غلبة المستوطنين الجدد ومن تبقى في المدن من سكانها الأصليين؛ من فلاحين، وعمال، وحرفيين، بالإضافة إلى العناصر الأخرى من فرس وأفغان والذين كان وجودهم منذ بدايات العصر المعتزلي في الأقل. ونحن هنا نحاول أن نرصد بعضًا من تلك التغييرات:

١- إعادة تشكيل وعي المدن بهويتها وتاريخها وثقافتها:

لقد عمل المُتسيِّدون على طمس الهُوية التاريخية الحضرمية وتدميرها، بعد أن قاموا بكتابة تاريخ وهمي مُتخيَّل، واختلاق مصادر تاريخية منحولة ومزوَّرة لتحلَّ محل التاريخ الحقيقي لحضرموت، وبما يتناسب مع الوضع الديمغرافي الجديد، بعد أن تم إخلاء مدن حضرموت من سكانها الأصليين، لتصبح تجمعًا سكانيًا لتلك الجماعات الوافدة، وأبعد من أن تكون وطنًا لهم.

وهذا ما يفسر أزمة الهُوية، وما يلزم عنها من ضعف الولاء الوطني لتلك المجتمعات المستحدثة عبر تاريخها اللاحق، بعد إعادة هيكلتها اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا، إضافة إلى التمزق الاجتماعي الغالب على تلك المدن، بحكم حداثتها وما مارسه المُتسيِّدون من إرهاب رمزي على سكانها.

ولكي تبقى لهم السيادة والهيمنة داخل مجتمعات المدن

فقـد عملوا على طمس الذاكرة التاريخية للمدن (المكان) وتغييرها، من خلال استبدال أسماء الكثير من المعالم الأثرية، ومنها المساجد والمقابر وبوابات المدن (السدد)، التي أدَّتْ دوراً كبيراً لتشكيل الوعي الفردي والجماعي للمجتمع. وإطلاق أسماء لا تمت بصلة للهُويات التاريخية للمدن الحضرمية. فقد أصبحت مدينة خلع راشد التاريخية تحمل اليوم اسم حوطة أحمد بن زين الحبشي المتوفى سنة ١١٤٥ هـ، بما يعني أن الهدف هو تغيير معالم المدن الحضرمية ثقافيًا واجتماعيًا وديمغرافيًا، واستبعاد أصالتها التاريخية تمامًا. وليس هذا وحسب بل التأسيس لأصالتهم المزعومة، وهو الوضع السائد إلى اليوم، وما افتتاح مسجد الإمام جعفر الصادق(١٢) في منطقة مريمة سنة ١٤٤١ هـ، وهي المنطقة التي أُستشهِد وقُبِرَ فيها الإمامُ والسلطان عبد الله بن راشد القحطاني المتوفى سنة ٦١٦ هـ، إلا شاهد آخر على مدى ما تعرض له المكان الحضرمي من طمس وتشويه لهويته التاريخية إلى اليوم، لتستمر لهم السيادة والسيطرة الكاملة على المجتمع. وقد ترتب على ذلك أن هيمنت عائلات وأسر معينة على المشهد الثقافي والسياسي والاجتماعي، واختارت لنفسها موقع السيادة الاجتماعية على الأقل، وأصبح يطلق عليهم (الأسياد)، ليمارسوا سطوتهم على كل مناحي الحياة. وقد عملت هذه الجماعات المُتسيِّدة والمهيمنة على تسميم العيش المشترك بين بقية فئات المجتمع، وخلق الانقسامات والصراعات والانشقاقات فيما بينها.

ولتدوم لهم الهيمنة والسيطرة على مجتمعات المدن، لجأوا إلى استخدام الفكر الديني الخرافي لتعزيز مكانتهم وفرض هيمنتهم، ليكونوا هم الأسياد، وبقية فئات المجتمع عبيد لهم. وطالما أن المجتمع الحضرمي بكل مكوناته وفئاته وطوائفه ملتزم بتقبيل أيدي (المُتسيِّد) ورُكَبِه، فإن هذا يعني أن المجتمع يتكون بشكل أساسي من فئتين لا ثالث لهما: أسياد وعبيد، وما فرضوه من تمايزات وتقسيمات اجتماعية أخرى (مشايخ، قبائل، قرويين، عبيد، صبيان ...إلخ) في المجتمع لا تستحق أن تكون إلا تقسيمات هامشية، وبمثابة الحواشي على المتن.

٢- أزمة الأنساب واستحالة التأصيل:

بفعل صراع المصالح بين الأفراد داخل مجتمعات المدن، تتم عملية استقطابات تؤدي إلى تكون الجماعات والطوائف، ثم إن صراع المصالح الذي كان بارزًا بين الأفراد ينتقل ليكون صراعًا بين الجماعات والطوائف، وهنا تبرز حاجة تلك الجماعات إلى التمايز فيما بينها. ولكي تتم عملية التمايز بين تلك الجماعات، كان لا بد من صناعة سردية تاريخية تؤصل لها، وتطمس حقيقتها التاريخية تماما؛ سردية تطمس وتمحو أزمة فقدان الأصالة عند تلك الجماعات المتصارعة فيما بينها على السيادة الاجتماعية والثقافية، داخل مجتمعات المدن. إلا أن السيادة الكاملة لا يمكن أن تتم في مجتمع عربي كمجتمع حضرموت إلا بوجود مكمل ثالث مهم وهو المكمل النسبي. فالسيادة بشقَّيْها الاجتماعي والثقافي تظل مجروحة في حال فقد الأصالة الوطنية والنسبية، وهو ما تفتقر إليه تلك الجماعات، ما جعلها تختلق حكايات ملفَّقة لأجداد مُفترَضين، بعد أن قامت بتزوير أنسابها بعناية فائقة، واختارت كل جماعة من تلك الجماعات سلفًا مُتخيَّلاً لها ليمنحها الأصالة الوطنية والنسبية. وهذا ما ظهرت تجلياته بشكل واضح وصريح في سردياتهم التاريخية المنحولة، من خلال تلك النصوص التي تحاول ربط أصولهم العرقيّة بالأصل العربي. إلا أن هذه السرديات الهزيلة سرعان ما ينكشف زيفها وبطلانها، ولا تستطيع أن تصمد أمام البحث التاريخي والنقد العلمي، وهذا ما جعلهم يحيطونها بشيء من القداسة الدينية والسطوة الروحية المشرعنة لسيادتهم. بعد أن سعت كل جماعة من تلك الجماعات لصناعة سرديتها التاريخية على الأصولية

العربية والإسلامية في أبهى صورها وتجلياتها، فكان أن طغت الهاشمية، والقرشية، أو الانتساب إلى الصحابة، لتحتل مكان الصدارة في مدوناتهم التاريخية.

ومما يُؤسَفُ له أنْ أصبحت تلك الهُوِيَّات المُتَخَيَّلة والمنحولة لتلك الجماعات الطارئة على المجتمع هي مركز الهُوِيَّة والتاريخ الحضرمي وحقيقته، وما يؤكد ذلك ما جاء في هامش مقدمة ديوان ابن شهاب حيث يقول: (وليس لحضرموت في التاريخ ما تمدح به، لولا وجودهم بها - ويقصد قبيلته العلويين - وأما قبل ذلك فأمور تُطوَى ولا تُروَى، ولو لم يكن إلا ذبحهم بقية أبناء الأنصار والمهاجرين بالمدينة المنورة، كأنهم غبطوا آل حرب على وقعة الحرة، فالحمد لله الذي طهَّر حضرموت بالطاهرين، عترة سيد المرسلين). وكذلك المؤرخ صالح بن علي الحامد في استعراضه (لفضائل جماعته العلويين)، ودورهم في النهضة العلمية التي شهدتها حضرموت في القرن السادس الهجري بقوله: (وما ذاك إلا لأن المجتمع الحضرمي قد حقن بعنصر بعث فيه روح الحياة والمعرفة، وتدل المصادر التاريخية على ما لا يقبل الريب من أن العلويين كانوا الأداة الفاعلة التي وسعت للحضرمي مجال تفكيره)(١٣). وهذا محض تزييف للحقيقة، ففي تلك الفترة من القرن الخامس والسادس لم يكن لقبيلة المؤرخ صالح الحامد أي حضور تاريخي يُذكر، إلا إذا كان الرجل يعرف الحقيقة المغيَّبة كما نعرفها اليوم، ويقصد بالعنصر الذي بث روح الحياة والمعرفة في المجتمع الحضرمي، أسلافهم القدماء من آل أكدر وآل حاتم البلخيين، فهنا يكون قوله مقبولاً وفيه شيءٌ من الصحة، فهاتان الأسرتان العالمتان كانتا من الأسر التريمية المشهورة بعلمائها وأئمتها في ذلك الوقت. كذلك ما قاله المؤرخ الشاطري: إن العلويين في فترة متقدمة من تاريخهم كان يُعرف علماؤهم بالأئمة، ولعله يعني بقوله هذا أسلافهم من آل حاتم وآل أكدر البلخيين، (نسبة لإقليم بلخ في أفغانستان).

ففي تلك الفترة عرفت مدن حضرموت الكبرى نشاطًا علميًا كبيرًا فترة عصرها المعتزلي وفي عهد الدولة الراشدية تحديدًا، وكما تحدِّثُنا المصادر بأن في تريم وحدها اجتمع في وقت واحد، ومن أسرة واحدة من آل حاتم البلخيين، قرابة الخمسة والأربعين عالمًا، وفي هذا دليل على الزخم العلمي الذي عاشته حضرموت في تلك الفترة، وفيها وُضعت الأساسات الأولية لتغيير أنماط الحياة البدوية السائدة في مدن حضرموت الكبرى، واستبدالها بأنماط أكثر تحضرًا، رافقتها تحولات سياسية واجتماعية وثقافية كبيرة، كانت فيها مدن حضرموت تعيش أبهى عصورها وأزهاها وتحديدًا في القرن السادس الهجري.

وما يتضح لنا من كلام المؤرخين العلويين الحامد والشاطري، إضافة إلى ما أكَّدته الفحوصات الجينية الـ DNA أن هاتين الأسرتين العالمتين، هم الأسلاف الحقيقيون لآل باعلوي، وبعض الأسر الحضرمية الأخرى كآل بن لاذن، وآل بانافع، وآل طرموم، وغيرها من الأسر الحضرمية، بعد أن تم فحص أعداد كثيرة من أبناء تلك الأسر الكريمة، وظهور نتائج فحوصاتهم تحت سقف السلالة الجينية (G)١٤. ومن المعلوم أن هذه السلالة تكونت في المنطقة المحصورة ما بين الجزء الشمالي من الشرق الأوسط، ومناطق باكستان وأفغانستان.

وقبلها لم يكن يعرف آل باعلوي وغيرهم من الأسر الأخرى كآل الخطيب وآل باعباد وآل باوزير وآل إسحاق وآل باجمال (بالسيادة والمشيخة) إلا نهاية القرن العاشر الهجري وما بعده.

ويبدو لي أن هذا التحول كان متزامنًا مع الوجود العثماني وانقلاب السلطان بدر أبي طويرق، وانتشار التصوف على يد الأتراك العثمانيين داخل مجتمعات المدن الحضرمية، واعتناق تلك الجماعات للتصوف (الوظيفي) بعد أن تخلوا عن معتقداتهم الأباضية والمعتزلية؛ ليتخذوا من التصوف غطاء لهم؛ لفرض وجودهم الاجتماعي، بعد أن برز منهم مشايخ طرق، كانت لهم نشاطات تربوية ودينية؛ لتعزيز

سلطتهم الروحية في المجتمع، وصار لهم أتباع ينقادون لهم انقياد المريد الأعمى.

ومن هنا بدأ التحول التدريجي لدى تلك الجماعات، ومنهم آل باعلوي بعد أن أدركوا ما للنسب من أهمية وتأثير في إثراء رصيدهم المجتمعي، فعملوا على اختلاق سردية تاريخية تؤصِّل لهم، وتربط نسبهم مباشرةً بالنبي محمد عن طريق أحمد بن عيسى العريضي، ليميزوا أنفسهم عن بقية الجماعات الأخرى من المشايخ الذين عملوا بدورهم على تزوير أنسابهم، بعد أن قاموا برفعها إلى كبار الصحابة من الأنصار والمهاجرين.

إلا أن آل باعلوي في تلك الفترة لم يُعرفوا بالشرف والسيادة، حتى بعد ادعائهم النسب الهاشمي، وكان يُطلق عليهم (المشايخ آل باعلوي) كغيرهم من الأسر المتصوفة الأخرى، ولم يعرفوا شيئًا من هذه الألقاب التبجيلية السائدة اليوم كـ (سيِّد وحبيب) إلا في فترة متأخرة جدًا، قد لا تتعدى مئتي سنة في أكبر تقدير، وقد مثَّلت تلك الألقاب التبجيلية التي يصدّرون بها أسماءهم البدايات الأولى لترسيم الحدود، ووضع الفواصل الاجتماعية بينهم وبين بقية فئات المجتمع الأخرى، ولتكون لهم علامة فارقة تميزهم عن بقية مشايخ حضرموت ومتصوفيها.

وفي ظل الصراع على المكانة الاجتماعية بين تلك الجماعات المُتسيّدة، ذهبت كل جماعة من تلك الجماعات تشكِّك في صحة سردية الجماعات الأخرى وأنسابها، بل قد استدعى الأمر إلى طمس الأصول القبلية لبعض القبائل الحضرمية الأصيلة. وكما يقول المؤرخ علوي بن طاهر الحداد: إن (أنساب عدد من القبائل والمشايخ وغيرهم على غير المشهور بين الناس)(١٥). فالرجل مطلع على الكثير من الخفايا والأسرار، ويمتلك المعلومة من مصادرها الحقيقية، وقد أثبت علم الجينات الوراثية الحمض النووي الـ DNA علميًا صحة هذه المقولة، بعد أن أظهرت نتائج الفحص الجيني لتلك القبائل والأسر على التحورات العربية الحضرمية، على غير ما هو مشهور ومتداول بين الناس؛ من قرشية قبيلة آل العمودي الكندية، وهمدانية قبيلة آل كثير الصدفية، وغيرها من القبائل الحضرمية الأخرى، التي أكد الفحص الجيني عراقتها وأصالتها الحضرمية. على عكس الأسر الدخيلة والطارئة على المجتمع، التي أظهرت نتائج الفحص الجيني حقيقتها على غير ما هو مشهور ومدوَّن في سردياتهم التاريخية؛ من أنساب هاشمية وقرشية، بعد أن أثبت علم الجينات زيف تلك الأنساب وبطلانها، ومنها نسب قبيلة المؤرخ علوي بن طاهر الحداد نفسه.

وفي ظل ما يشهده العالم اليوم من تقدم علمي فقد صار بالإمكان معرفة الانتماءات القبلية والأسرية وتحديد سلالاتها النسبية، وارتباط بعضها ببعض وتباعدها، ومعرفة أصولها العرقية، بصورة واضحة لا تقبل الشك.

٣- الممارسات الاجتماعية في مجتمعات المدن والسلوك المجتمعي:

بعد أن استوضحنا الصورة عن بعض العائلات والأسر وتسيُّدها على بقية فئات المجتمع الأخرى من سكان المدن، وما ترتب عليه من تمايز مجتمعي وتراتب طبقي، قسم المجتمع راسيًا في ثنائية حادة إلى (أسياد وعبيد)، تسلط فيها الأسياد على بقية فئات المجتمع الأخرى، بعد أن كانت لهم السيطرة الكاملة على المشهد الثقافي، والسياسي والاجتماعي، لتتم لهم بعد ذلك الهيمنة الفكرية، والسيادة المجتمعية، على غيرهم من سكان تلك المدن.

ولفرض وتعزيز مكانتهم في المجتمع، فقد عمدوا على التأثير في ذهنية الضحايا وفكرهم من المُهيمَن عليهم، حتى أوقعوهم في أسرِ تعاليمهم، ومن خلال ما يروجونه من أساطير، تشرعن لهم سيادتهم المزعومة داخل مجتمعات المدن، وترسخ الإيمان بأفضليتهم وقداستهم لدى تلك الجماعات المُستلَبة، (وأنهم هم وحدهم من تكمن فيهم القداسة دون غيرهم من بقية فئات المجتمع الأخرى...)

ولهذا، فهم يميزون أنفسهم عن الآخرين في الأسماء والملبس والتزاوج(١٦).

أ-الأسماء:

لقد حرص المُتسيِّدون في مجتمعات المدن، على تمييز أنفسهم من غيرهم من أفراد المجتمع بكل فئاته وطوائفه، في اختيارهم للأسماء والألقاب والكُنى التبجيلية والغريبة أحيانًا؛ كـ (علوي، وطه، وعبدالرحمن، وعبد الإله)، وغيرها من الأسماء والألقاب المتميزة. بعد أن منعوا غيرهم من أن يتَسمَّوا بها، وجعلوها حكرًا عليهم دون سواهم.

فكانوا يختارون أسماءهم وألقابهم بدهاء وعناية فائقة، لتتوافق مع ما يدعونه من تميز عرقي، وقداسة فرضوها بأسلوب العنف الرمزي.

ولم يقتصروا على ذلك وحسب، بل الأخطر من ذلك الأسماء والكُنى والألقاب التبخيسية التي ألصقوها وفرضوها على فئات المجتمع الأخرى؛ كـ(مبيريك، حميّد، سويلم، سعيّد، عويضان، عيضة، صويلح)، وغيرها من الأسماء والألقاب المشينة، وما أحدثته من تأثيرات نفسية على تلك الجماعات المُهيمَن عليها اجتماعيًا، لتكرس الانطباع لدى الأجيال بأنهم أدنى منهم مكانة، ولترافقهم طوال حياتهم، وبعد مماتهم يورثونها لأبنائهم وأحفادهم. وتلك مأساة عاشتها ولا تزال تعيشها تلك العائلات والأسر إلى اليوم.

وكما يقول ديفيد تسو، عالم النفس في جامعة أريزونا الأمريكية الذي أجرى دراسات حول ما يُعرف اليوم بعلم النفس المتعلق بالأسماء: إن "الاسم يشكل ركيزة أساسية للغاية للتصور الذي يكوّنه المرء عن ذاته، خاصة على صعيد علاقاته بالآخرين، وذلك لأنه يُستخدم لتعريف الفرد والتواصل معه بشكل يومي".

وفيما عبرَّ عنه شاعر الهُوية الحضرمية خميس كندي ما يغني ويكفي، في شرح الحالة الاجتماعية المتردية داخل مجتمعات المدن الحضرمية، وما مُورس فيها من ظلم واضطهاد، وقمع لفظي بحق تلك الفئات المهمَّشة، ليرسم لنا من خلاله لوحة تختزل كامل المشهد، وفيه يعبرِّ عن استيائه وامتعاضه من تلك الممارسات المشينة، إذ يقول:

وتدخَّلوا في اسمه وفي قوته وحتى في كساه

عبيد لا يمكن يسمَّى عندهم عبد الإله

وكذلك ما جاء في بيت الشعر الشعبي الذي يقول:

بعض الأسامي ما تجيب إلا المرض

علوي في الضعفاء وفي السادة عوض

وفي هذا البيت مثال واضح وصريح لما يُمارس من إهانات، وتحقير وتصغير لبقية مكونات المجتمع، وهو يعبرِّ بلسان قوى الهيمنة والنفوذ، وفيه ما يكفي لإدانتها فيما ارتكبت من عنف رمزي بحق الفئات الأخرى. ويهدف من ورائه إلى توجيه بوصلة الاختيار لدى فئة من عرفوا بالأسياد، وبقية أفراد المجتمع بكل مكوناته وفئاته، لتختار كل فئة الاسم الذي يتناسب مع واقعها الاجتماعي السائد.

وما حصل في حضرموت لم يحصل في أي بلد عربي آخر غير الجزائر، بعد أن قامت سلطات الاحتلال الفرنسي بممارسة نفس الأفعال التي مارسها المُتسيِّدون في مجتمعات المدن الحضرمية.

وبهذا الخصوص يقول جمال يحياوي، الأستاذ في جامعة الجزائر: إن السلطات الفرنسية فعلت ذلك عن وعي بغرض الضغط النفسي المستمر على الجزائريين.

ومن الألقاب المشينة التي فرضتها السلطات الفرنسية على الجزائريين؛ «بوراس»، «بوبغلة»، «بوذراع»، «بوكراع»، «بومنجل»، «بومعزة»، «لطرش»، «حمار»؛ هذه ليست أسماء حيوانات، أو أوصاف بعض الأعضاء البشرية، بل هي أسماء لعائلات جزائرية ذهبت ضحيّة لواحدة من أبشع جرائم الاحتلال الفرنسي المستمرة منذ أكثر من قرن.

وقد رفعت آلاف العائلات الجزائرية دعاوى للقضاء، بهدف تغيير أسمائها الموروثة منذ العهد الاستعماري.

ومن بين من تقدموا لتغيير ألقابهم؛ عائلة «بوذيل»

ومعناها بالعربية «أبو ذنب»، و«تيغيدات» وهي عبارة بربرية تعني أبو العنزات، و«مهبول» وتعني مجنون، و«حمار» و«بو بغلة» و«حفيان» و«بن نعجة» و«بوبنيدر» ومعناه أبو طبل، وغيرها من الألقاب التبخيسية والمشينة التي أطلقتها إدارة الاحتلال على عائلات جزائرية عند توزيع الألقاب دون استشارتها. إلا أن ما تم فرضه من ألقاب قبيحة على الأسر والعوائل الجزائرية، يعرف الشعب الجزائري اليوم متى وكيف ولماذا فرضت هذه الألقاب، ومَن هي الجهة المسؤولة التي فرضتها، بعد أن تمَّ توثيقها رسميًا في كشوف السجلات المدنية التي ورثتها الدولة الجزائرية المستقلة من الاستعمار الفرنسي. بعكس ما مارسه المُتسيِّدون بحق مجتمع حضرموت، فإنه لم يتم توثيقه، ولا يُعرف متى وكيف حدث؟

ويبدو أن الطريقة والأسلوب المتبع في فرض هذه الألقاب والأسماء المشينة في حضرموت، كان مختلفًا تمامًا عما حصل في الجزائر، وقد تمَّ فرضها وتمريرها عن طريق العنف التربوي والثقافي الناعم، (تصوف الاستعباد) وهذا ما جعل الغالبية من حاملي هذه الألقاب والأسماء القبيحة لا يرون فيها ما يعيب، ويُعدُّونها جزءًا من موروثهم الاجتماعي والثقافي. حتى أنَّ بعضًا منهم قد يتوهَّم أنه يمتلك حريته في اختيار الاسم واللقب الذي يريده لنفسه أو لأبنائه، إلا أنه لا يعرف أن هناك قيماً اجتماعية مضمرة تقيده، وتفرض عليه الاختيار في فضاء محدد لا يستطيع الخروج منه وتجاوزه، من دون أن يشعر بهذا القيد الذي يقيد حرية الاختيار عنده.

ب - اللباس:

تكمن أهمية اللّباس لدى الجماعة المُتسيِّدة في كونه أحد مقومات الشخصية الفردية، ورمزًا من رموز انتمائها وانتسابها إلى الفئة المتميزة والمهيمنة، صاحبة السلطة والنفوذ الروحي في المجتمع. ولهذا فهم كما يميزون أنفسهم من غيرهم في الأسماء والألقاب، كذلك في الهيئة واللباس، لتكون لهم شارة يُعرفون بها تميزهم عن الآخرين. وقد جاء في كتاب (أشراف حضرموت ودورهم في نشر الإسلام في جنوب شرق آسيا)، للدكتور محمد حسن العيدروس ما نصه: (ومن الجدير بالذكر أن علماء حضرموت كانوا يرتدون الأزياء والعمائم الخضراء الشبيهة بعلماء فارس، وهذا التشابه راجع إلى أنهم من أصل واحد تقريبًا، وأن الذين يلبسون الثياب الخضراء غالبًا ما يكونون من آل البيت)(١٧). والمقصود بعلماء حضرموت هم علماء العلويين، وليس كل علماء حضرموت من الفئات الأخرى. وللون الأخضر عند تلك الفرق من الجماعات الدينية رمزية وقداسة خاصة، ويرتبط بالكثير من المعتقدات الخرافية، والأوهام والغيبيات والأساطير التي يعتقدون بها.

ج- التزاوج:

وفيما يخص التزاوج والمصاهرة مع فئات المجتمع الأخرى، فإنهم لا يقبلون بها، بل يحرمونها وفقًا لمعتقداتهم الكمونية الحلولية، لذلك فهم يشترطون فيمن يتقدم لطلب الزواج منهم الطهارة العرقية فيما يخص الكفاءة النسبية، كشرط أساسي من شروط الزواج، والذي لا يتوافر في غيرهم من أبناء المجتمع بكل فئاته وطوائفه.

وعليه فهم لا يقبلون بتزويج غيرهم من عامة أفراد المجتمع ومصاهرتهم؛ ليحافظوا على نقائهم العرقي من جهة، ومكانتهم التي فرضوها داخل مجتمعات المدن عن طريق العنف الرمزي من جهة أخرى؛ لكون الاندماج في المجتمع عن طريق المصاهرة قد يفقدهم عزلتهم وقداستهم الروحية، ومن ثم يخسرون هيمنتهم وسيادتهم على المجتمع كجماعة وظيفية لها غوابي أسرارها(١٨).

ولقد بالغ بعضهم في تحريم الاختلاط ببقية فئات المجتمع الأخرى عن طريق التزاوج، وعَدَّ زواج العلوي بغير العلوية لا تنطبق عليه شروط الزواج، وفي حال حدوثه يكون حكم المرأة من غير العلويين المتزوجة من العلوي حكم الأمة ملك اليمين - لعدم التكافؤ النسبي - وفي حال الإنجاب منها تسمى بأم ولد.

ولهذه الأسباب مجتمعة وغيرها، فقد حرصوا على ألاَّ يشاركهم أحد في هذه المحددات الثلاث (الاسم - اللباس - التزاوج).

الخاتمة:

حاولت في هذه الورقة أنْ أضيف شيئًا جديداً لمشروع الرؤية، بخصوص تأثير الوجود العثماني في تقويض البنية الاجتماعية للمجتمع الحضرمي، وما مورس من أعمال مشينة تأباها النفسية الحضرمية الأصيلة، ظلت آثار تشوُّهاتها واضحة في طبيعة مجتمعات المدن وسلوكها بتركيبتها السكانية الحديثة التي تفتقر إلى الأصالة التاريخية بكل تكويناتها؛ الاجتماعية والثقافية والسياسية، بعد أن تعرض سكانها الأصليون، للإبادة والتهجير على يد القوات العثمانية وجيش السلطان بدر أبي طويرق.

وفي هذه الورقة نقدم الوجه الآخر لعهد السلطان بدر أبي طويرق وخلفائه من بعده؛ الوجه الحقيقي المختلف عن الوجه الذي صاغته وزينته أقلام الفاعلين الاجتماعيين؛ من ضحايا وأتباع الرؤية السائدة. بعد اعتمادهم على سرديات تاريخية منحولة ومزوَّرة، فرضت نفسها على حساب الحقيقة التاريخية المغيَّبة عن أذهان من يمتهنون الكتابة التاريخية التقليدية، فظلوا عاكفين على تلك السرديات المنحولة، وإعادة تدوير ما وجدوه مكتوبًا فيها من نصوص ميتة، ظلت تكرر نفسها في كتاباتهم التاريخية، من دون أن تتعرض من قبلهم لأي نقد أو تحليل.

وقد تناولت في هذه الورقة الواقع الاجتماعي في أثناء الوجود العثماني وبعده، معتمداً على مشروع الرؤية الذي أزال الأقنعة عن الحقيقة التاريخية المغيَّبة من تاريخ حضرموت الحقيقي، غير المروي في تلك السرديات والمصادر المزوَّرة والمنحولة، وتحديداً ما تعرضت له حضرموت في عهد السلطان بدر من أحداث مؤسفة، تسبَّبت في تدمير بنيتها الاجتماعية التقليدية الأصيلة، بعد أن استوطنت بعض الجماعات الوافدة مدن حضرموت الرئيسة.

وفيها تكشف عن الانتهاكات التي ارتكبتها تلك الجماعات المُتسيِّدة داخل مجتمعات المدن وخارجها، وما ترتَّب على ذلك من طمس كامل للهُوِيَّة الحضرمية الأصيلة وتجريفها، ولم يسلم من تلك الأفعال المشينة حتى سكان البوادي والأرياف من أبناء القبائل الحضرمية.

الهوامش:

١) حضرموت بين القرنين، ص ٣٤٤، سالم مفلح.

٢) قلعة حصينة تعرف بحصن الصخرة (البينون)، تقع في عرض البحر على مسافة ٣٠٠ متر من مرسى الجزائر.

٣) تأثيرات الوجود العثماني في بعض مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر، ص ١٥٧، د. سعيود إبراهيم.

٤) تأثيرات الوجود العثماني في بعض مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر، ص ١٥٨، د. سعيود إبراهيم.

٥) حضرموت بين القرنين، ص ٣١٠، سالم مفلح.

٦) تأثيرات الوجود العثماني في بعض مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر، ص ١٥٨، د. سعيود إبراهيم.

٧) التزوير واستلاب الهوية، ص ٨٢، سالم مفلح.

٨) تأثيرات الوجود العثماني في بعض مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر، ص١٥٩ د. سعيود إبراهيم.

٩) أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، د. حنفي هلايلي.

١٠) تاريخ الشحر، ص ١٩٦ - ١٩٧، الطيب بافقيه.

١١) حضرموت بين القرنين، ص ٣٣١، سالم مفلح.

١٢) جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب بالصادق، وهو أحد الأئمة المعصومين عند الشيعة الإسماعيلية والاثني عشرية، وينسب إليه انتشار مدرستهم الفقهية والكلامية.

١٣) تاريخ حضرموت، ص ٦٣٩، صالح بن علي الحامد.

١٤) المدخل إلى البصمة الوراثية وعلاقتها بالأنساب، ص ١٧٠، الخريطة الجينية لأصحاب السلالة))، تأليف المهندس عمار محمود شاكر النعيمي، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

١٥) الشامل، ص ٢٢، علوي بن طاهر الحداد.

١٦) الجماعات الوظيفية، ص ٦٣، عبدالوهاب المسيري.

١٧) أشراف حضرموت ودورهم في نشر الإسلام بجنوب شرق آسيا، ص ١٤٣، د. محمد حسن العيدروس.

١٨) حضرموت بين القرنين، ص ٤٧٩، من رسالة للشيخ أبي بكر العدني أرسلها إلى أحد أفراد أسرته من العلويين، وفيها يقول: وقبيلتنا الغالب عليهم عدم الاحتراز في الأقوال والتلبيس في الأفعال، فلا يجروا على أنفسهم إلا زيادة سوء ظن فوق ما جبلوا عليه، وفي ص ٤٨٠، يقول أيضًا: وعدم احتفالهم بمراعاة المودة، وقل امتثال العاقل، وعدم رمق العواقب، وسيَّان عندهم عدوهم وصديقهم في إفشاء غوابي أسرارهم.

77
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

الملف السرّي للاستعمار من خلال كتاب مفلح



الحمد لله حمداً يليق بجلاله، والصلاة والسلام على النبي محمد وصحبه وآله وبعد:

فنشكر القائمين على هذه الندوة المباركة مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، والشكر موصول لنادي متطوعون على هذه البادرة، التي كانت أمنية للأستاذ سالم مفلح رحمه الله، فأصبحت بمثابة الوصية؛ فقد كان ينادي بمناقشة ما طرحه من أفكار واجتهادات في مسار تصحيح التاريخ الحضرمي، ذلك التاريخ الذي طالما وصفه المرحوم مفلح في كثير من أطروحاته بالمزور ووقف طويلًا مفنداً ذلك التزوير والعبث، وأشار إلى بعض تلك المصادر المزورة التي يعدها البعض مصادر رئيسة في التاريخ الحضرمي كشنبل، وبافقيه، وباسنجلة، والنور السافر، والعدة المفيدة، وعلى الرغم من هذا الطرح الجريء ومحاكمة هؤلاء المزوِّرين للتاريخ الحضرمي وما حققوه من هذه الكتب وما كتبوه من تدليس وتلبيس. قد أفرد مفلح لعلوي بن طاهر في كتابه التزوير صفحات خاصة به، وكأني به يشير إليه بأصبع الاتهام بأنه تولَّى كِبرَ ذلك العبث، ووجهة نظر الأستاذ مفلح هذه تحترم. ولقد طلب في أثناء حياته من يعارضها أو يناقشه إيَّاها غير أن الكل آثر الصمت، حتى أتت هذه الندوة، ولعل فيها ما يحقق أمنيته أو وصيته بالأحرى.



عوض سالم بن حمدين

عندما نتناول ما استعرضه الباحث سالم فرج مفلح في كتابه المثير (التزوير واستلاب الهوية الملف السري للاستعمار البريطاني) للفحص والنقد يصعب علينا تجاوز من أشار إليهم بأصابع الاتهام وهم (العلويون)؛ إذ ارتبطت كتابة التاريخ الحضرمي بهم منذ أن انفردت حضرموت بكتابة تاريخها، فهم جعلوا أنفسهم الأوصياء والورثة الشرعيين للموروث الحضرمي؛ إذ الغالب من تأليفهم والبعض هم من قام بجمعها ونسخها عبر فترات.

يقول الأستاذ: محمد عبدالقادر بامطرف رحمه الله: «لقد كان منهج الكتابة التاريخية عند بعضهم الإعجاب والتقليد الأعمى، أو التعصب، أو الشوفينية المضحكة، أو المماحكات الإقليمية الضيقة، أو المذهبية الممقوتة، ومع ذلك فإننا لا ننكر فضلهم في تقديمهم لنا معلومات لا تخلو من فائدة إنسانية. رغم إنهم صبوها في قوالب جامدة مستساغة في عصورهم ومناسبة لحياتهم وعقلياتهم.. لكنها مع التقادم فقدتْ قيمتها إذ إنها لم تعد متمشية مع مفاهيم عصرنا ومرفوضة في مجال ثقافتنا المعاصرة» ملاحظات على الهمداني ٣٣.

إن ما قاله بامطرف هو نفسه ما أتى به مفلح.. بل ذهب إلى أبعد من هذا؛ إذ حاكم ذلك التاريخ المزور، ووقف على عواره، داعيًا إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذا التاريخ المشوَّه قصدًا، غير أن الأستاذ سالمًا رحمه الله تعالى قد تبنَّى في دراسته منهجًا جديدًا مغايرًا للمنهج السائد في الكتابة التاريخية، فجاءت طريقته بخلاف المعتاد.

فلمْ يسلِّمْ رحمه الله لكل ما ورد قياسًا على المريدين، والذين يطلب منهم التسليم دون نقاش، كما قال الحداد:

وسلم لأهل الله في كل مشكل لديك لديهم واضح بالأدلة

إذ غالب المؤرِّخين المُحْدَثين لا تخرج مؤلفاتهم عن سرد الحوادث سردًا عامًّا دون تحليل أو عمق أو تصويب، وقد قال ابن هاشم في كتابه (تاريخ الدولة الكثيرية صفحة ٣٦): «وبعد فقد ألزمنا على أنفسنا في هذا الكتاب أن نكتب ما عثرنا عليه في كتب التاريخ من أخبار القوم، مجرَّدةً من الملاحظات والانتقادات والأخذ والرد والتحليل والتركيب ... ولست أجد لي حقًا في مؤاخذتي أشخاصًا على سلوك سلكوه أناخت على عليله وأسبابه السنون، ودفنت مبرراته ومسوغاته طوال القرون».

يقول الأستاذ أحمد عوض باوزير منتقدًا رأي ابن هاشم هذا بقوله: "ونحن لا نقرُّ السيد «ابن هاشم» على هذا النحو من التفكير، وسواءً أكانت المبررات صحيحة أم غير صحيحة فإننا كنا نتوقع أن يعمد إلى «المعول» لنبش الحقائق وغربلتها، وأن يبرأ من تلك الشفقة والرحمة؛ لأنها لا تجدي في منطق الوقائع التاريخية ولا تفيد كثيرًا".

وهل هذه شفقة ورحمة من ابن هاشم؟!، أم عجز؟، أم وراء الأكمة ما وراءها؟!

إن الأستاذ سالم فرج مفلح رحمه الله لم يكن سباقًا إلى التشكيك فيما دُوِّنَ من تاريخ حضرموت، وإنما هناك مَنْ سبقه وإن كان بالإشارة إلى ذلك، غير أن مفلحًا رحمه الله خاض المحضور، ولم يبالِ بممنوع العبور، فاتخذ منهجًا



تميز بالصراحة والوضوح لفحص النصوص التاريخية، وطريقة نقدها، وهو يختلف تمامًا عمَّن سبقه. فدراسته لموضوع التزوير جاءت من الأهمية بمكان؛ فهي دراسة في حقيقة الأمر، قصد منها لفت انتباه الباحثين والمحققين وكل من يتعامل مع التوثيق دراسة وتحقيقًا إلى عدم التسليم بكل ما يقع تحت أيديهم، بل لابد من التحقيق والتوثيق.

إن ما يميِّز مفلحًا من غيره هو إيراده للنص، ثم يقوم بقراءته وتحليله واستعراض ما استنتجه، فلا يكتنف ما قدمه مفلح الغموض مثل البعض، وترك المجال واسعًا لمخالفيه في تقييم ما يطرحه رحمه الله ؟!!

ففي مسألة التزوير واستلاب الهوية

يورد علوي بن طاهر الحداد نصًا في كتابه (الشامل) عندما أخبره شيخه أحمد بن حسن العطاس عن أنساب بعض القبائل الحضرمية على غير المعهود لديهم.

فكان رد الحداد: إنكم ذكرتم في الرسالة، أي كتاب السفينة «المجموعة» أنهم آل فلان؟

فرد شيخه: ذلك لقب وضعه لهم سلفنا تفاؤلاً!! ونسبهم كما ذكرته لك!!.

من هذا النص نستشف أن السلف سبقوا الخلف إلى استلاب الهوية ووضع الأنساب للحضارم!!

أليس هذا النص الذي أورده علوي بن طاهر كالنص الذي أورده في كتابه (جني الشماريخ) و(الشامل)، وبنى مفلح

عليه دراسته «إن الأخلاف لَمَّا رأوا في سيرة الأسلاف ما ينكرونه منهم اليوم عمدوا إلى إخفاء أكثر المصادر التاريخية وإفنائها»، كافيًا للكشف عن المدى الذي سلبت هوية تلك القبائل من السلف ومن تبعهم في ذلك!!.

ولكي تقف تلك القبائل بعد ذلك في منطقة الضبابية على مزيد من التتويه فقد سلبت منها هويتها الحقيقية ولم تعد تتقبلها، وفي المقابل فإنَّ الباحث المتجرد الجاد غير قادر على إثبات الهوية لهم، التي انتحلها لهم السابقون «السلف»، فهل هنالك ضياع واستلاب أكثر من هذا؟!!

وهاك نماذج من هذه القبائل: فآل باعباد مثلاً: هل هم من تجيب كندة كما قال بامطرف؟ أوهل هم موالٍ لبني أمية كما قال أحمد بن حسن العطاس في رسالته؟ أو هم بنو أمية كما هو السائد لديهم؟ وهل يطمئن القلب لهذه الرسالة المجموعة في الأنساب بعد أن رأينا إجابته لعلوي بن طاهر ما رأينا؟!!

وآل باوزير أيضًا هل هم عباسيون كما هو السائد لديهم؟ هم وآل باجابر وآل باشيخ وآل إسحاق كما في الإدام؟ أو هم برامكة كما ذكره صاحب الدشتة؟ أو هم من نسل عبدالقادر الجيلاني كما نقل ذلك علوي بن طاهر عن باحسن في تاريخه؟ ثم قال: (أي علوي بن طاهر) مشككًا: "كل هذا قيل، ولكن لم نرَ لشيءٍ من ذلك مستندًا في كتاب قديم يمكن أن يوثق به، والتاريخ نقل ورواية". وكأني به يقول لا يهمُّني الأمر!!

ومن الكتب القديمة لدى القوم (تاريخ شنبل) المزعوم الذي وصف «راشد بن شجنعة بالفهدي الأوسي الأنصاري»، وكذا صاحب (البرقة المشيقة) يصف «ابن أبي الحب بالشعيثي أو الثعيني القرشي». كل ذلك يصب في مسألة خلط الأنساب القبلية من خلال إهمال توثيقها المقصود، كما يقول الأستاذ مفلح وتتويه القبيلة نفسها.

وبالوقوف على نص في (الشامل) عن التتويه ذاته من غير تصريح، وإنما ذكر بعبارة قال بعضهم «وقالوا في نسب آل فهد آل راشد ولاة تريم بأنهم فهديون أَوْسِيُّونَ أنصاريون مع أنهم من بني فهد يعود نسبهم إلى حضرموت». وقال باحنان: "وأغرب السيد شنبل إذ قال: إنهم أوسيون أنصاريون، والصحيح إنهم من كندة"، فشتَّانَ بين تحليل الباحث مفلح فيما توصل إليه من التناقض في جمع النسب القرشي بالحميري والتصريح بأنه في شنبل المزعوم، وهذا الكتاب من الكتب المنحولة، التي أنشأها العابثون في التاريخ الحضرمي في حد قول مفلح رحمه الله، والجدير بالذكر أن صاحب الشامل أورد لنا نصًا بمثابة القاعدة "إن صنيع من يجمع بين القرشي والحميري فإنه يجمع بين الحمق والكذب" حينما تحدث عن نسب آل طاهر، ولا أرى التفريق بين آل طاهر وآل فهد في هذا الأمر!!

ولذا اهتم باحنان بضبط أنساب كندة، وتعقب قاصدًا علوي بن طاهر؛ إذ النص موجودٌ في جني الشماريخ، غير أنه لم يجرؤ على ذكر اسمه، وإنما قال: "...وإنما اهتممت بضبط أنساب الحضارم؛ لأني رأيت بعضهم قد صرح بأن كندة ومن في حضرموت في القرون الأولى قد فنوا إلا بقايا خاملة أو مشهورة قليلة لائذة بالجبال وأن الموجودين الآن قبائل جديدة...". فتأمل هذا الكلام الخطير جدًا فحضرموت خالية من أصل أبنائها، فإذا صح شيء منه فمصيبة، وإن لم يصح فالمصيبة أعظم؛ إذ يدخل الأمر هنا في باب التزوير، وإلا فأين مستنده وهو الذي يقول: "التاريخ نقل ورواية"!

وهناك جانب لا يقل أهمية وهو إخفاء الكتب والوثائق والموروث بشكل عام، والإبقاء على ما يخدم هؤلاء العابثين من وجهة نظرهم ككتب المناقب والكرامات.

يقول الأستاذ سالم رحمه الله: «إن كتابه هذا يهدف إلى كشف وتعرية الجرائم التي مارسها الاستعمار في حق شعوب المستعمرات، في المجال الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي من حيث استهداف تلك الشعوب وطمسها، وتأزم تطورها ونهضتها في جميع المجالات».

إنَّ الناظر في الكتاب سيجد مصداق هذا القول فيما قصده رحمه الله.

فنظرة مفلح للملف السري للاستعمار ليست مباشرة وإنما تتمثل في ذلك التخادم بين الاستعمار والسادة؛ فقد توافقت مصالحهم، أي الاستعمار والسادة، وكونهم الطبقة الاقطاعية الفاعلة، وكان تواصلهم بالإنجليز (الاستعمار) تواصلاً مباشراً؛ إذ لا يمكن الانجليز التواصل مع عموم الحضارم، وكانت هذه العلاقة قائمة على مصالح الطرفَيْن؛ بوصف السادة هم من يديرون دفة الحكم لا السلاطين الذين لا يفقهون في كثير من قضايا الحكم شيئًا، وقد اختلف السلطان غالب مع وزيره حسين بن حامد، ورفض الوزير توجيهات السلطان، فاعتكف الوزير المحضار في بيته فترة من الزمن، فكان لابد أن يرضخ السلطان لإرضاء الوزير؛ لأنه لا سلطة للسلطان عليه، فأمر تعيينه وإقالته هو شأن بريطاني، لا علاقة له بالسلطنة والسلطان، فكان أن رضخ السلطان للوزير، فزاره في بيته، فقال الوزير مخاطبًا السلطان من مصدر قوة:

صاحبي عِياب ونا ماعبت به

صلي معه من حيث ما صلى إمام

ونا معي شيخ الجهة مقطور به

مانا حقيبة بانطرح فوق السنام

ومن تلك الأبيات نعلم أن الوزير المحضار كان اختياراً بريطانيًا (شيخ الجهة)، وليس قعيطيًا، وهو يفتخر بذلك، فلهذا لا سلطة للقعيطي عليه فهو (ليس حقيبة بانطرح فوق السنام) مفلح التزوير واستلاب الهوية ١٧٤.

لقد ساعد الاستعمار العلويين عندما أسهم في منع دخول الإرشاديين إلى حضرموت رغم إعلان الإرشاديين أن منظمتهم تربوية ثقافية "وقد وقف المستعمر مع الرابطة العلوية في وجه الإرشاديين، وربما وصفهم بالإرهابيين والمخرِّبين وذلك لتوافق مصالحه مع العلويين". ثم انظر لما قاله ابن عبيد الله في اتفاق الإنجليز مع السادة، على ضرب أحد رموز الحركة الإرشادية عبيد صالح بن عبدات في الغرفة، فقد وقَّع ستون من العلويين على فتوى تبيح ضرب ابن عبدات بعد أن تحرَّج الإنجليزي في ضربه دون مبرر. وقال ابن عبيد الله من قصيدة له:

ولما تولى الأجنبي قيادهم

أرادوا به عزل ابن عبدات الكمي

إلى أن قال:

وما كان رأي المستشار اجتلابه

ولكنه فيما رووا رأي مسلم

فقال لهم لابد لي من مبرر

تكون عليه عهدة الهالك الرمي

وستون في سيئون أمضوا وثيقة

تبرر من قتل النفوس المحرم

يشير ابن عبيد الله إلى توافق القوم مع الإنجليز، والإنجليز كانوا أدهى؛ إذ طلبوا مبرراً للرمي.

وهم طوع الاستعمار، يتمثل همُّهم الوحيد في تشويه الحقائق وطمس ماضي حضرموت، وبناء مجدهم على أنقاضه، حتى يتسنَّى لهم إقناعنا بجهلنا، وبضرورة قبول حياة الذل والمسكنة والهوان. والشيء بالشيء يذكر فقد صوَّر ذلك الأستاذ محمد عبدالقادر بامطرف في مسرحيته ((سور الشحر)) بأن السلطان عوض بن عمر القعيطي أمر مَنْ ينادي في أزقَّة الشحر وأسواقها أن يخرج الناس لبناء السُّور وتكسير السور القديم سُخْرَةً، باستثناء السادة والبانيان، مما جعل باعرَّام يتنكر في هُويَّته طلبًا للإعفاء، فجلس على دكَّة داره باللباس البانياني... ونحن نعلم من هو الأستاذ بامطرف ومعرفته بالمستعمر، ولاشك في أنه استلهم مشاهد تلك المسرحية من واقع كان سائدًا في حضرموت إذْ إن أسماء شخصيات المسرحية كلها حقيقية لأشخاص من سلاطين وحاشية ورعايا عايشوا تلك المرحلة، لقد استلب القرار السلطاني باعرام هويَّته، وأرغمه على أن يتخلى عن لباسه الأصلي

ليعفى من العمل، ولما سأله السلطان لماذا لم تختر السادة؟ فقال له باعرام: لو وقعت سيد باتقوم القيامة علي!! فقال له السلطان من السادة؟ قال: لا ... من إخواني وعيال عمي المساكين، ناس تربَّوا على الذل والمسكنة!!

يقول هنز هولفريتز في كتابه (اليمن من الباب الخلفي صفحة ٤٧): «ويحكم عدد من الأمراء الإقطاعيين الذين يلقبون بالسلاطين منطقة حضرموت، وإن لم يكن لهم شأن يذكر في إدارة دفة الأمور فيها، فسيطرتهم تقتصر على العموم على قصورهم الضخمة الرائعة، حيث يقضون حياة ممتعة ومريحة مع وزرائهم ومستشاريهم ورجال بطانتهم.

أما حكام حضرموت الحقيقيون فهم خمسة من أسرة آل الكاف، وهي أسرة من التجار، تنحدر من أعرق الأسر النبيلة في البلاد، وهؤلاء يديرون حركة الاتحاد في البلاد كلها». ويقصد بالاتحاد سلطنات جنوب الجزيرة العربية. وبمناسبة ذكر الكاف أذكر أن الملكة اليزابيث كرَّمت الوحيد أبوبكر بن شيخ الكاف في حفل مشهود بالوسام الملكي الذي لم يكرم به أحد غيره في القطر الحضرمي.

وفي كتاب (ملوك شبه الجزيرة العربية) للضابط الإنجليزي هارولد يعقوب صفحة ٤٠٩ يقول: «...والسادة رغم كل شيء هم الذين يحكمون بالفعل في حضرموت، وهم الذين يديرون حاجات مريديهم بطريقة فنية، أخدام أو (خدم) وسلطتهم تلك متمتعة بخصائص الحكومة الدينية أو الكهنوتية... وتحديداً في سنة ١٩١٦م كان انتخاب بعض الرجال الذين وقع الاختيار عليهم من سنقفورا؛ ليتم إرسالهم إلى حضرموت من أجل العمل على شراء الزعماء العرب في كل من حضرموت ثم في اليمن على وجه الخصوص...»، فيا ترى مَنْ هم الزعماء الذين وقع عليهم الاختيار؟!! لا أدري!!

يذكر ابن عبيد الله رحمه الله كما في الإدام ص٣١٩ على سبيل اللطافة قال: "كنا يومًا نتذاكر مساعدة فلسطين، فقال لنا بدوي من آل كثير اسمه محمد بن سالمين، ولِمَ هذه المساعدة؟ قلنا له: إن اليهود يريدون الاستيلاء على بلاد العرب. فقال: أوليس النصارى مثل اليهود، وقد سعى بعضكم أيها السادة في بيع حضرموت عليهم، والثمن مع ذلك منهم لا من النصارى"، فكان جوابًا مسكتًا..!!! وفيه إشارة لمعاهدة الحماية.

فهذا موقف واحد من مواقف عامة الخلق في حضرموت أورده ابن عبيد الله تجاه عموم السادة وعلاقتهم بالمستعمر، فكان جوابه مسكتًا، ولكنه في الكتاب نفسه بدافع العصبية ينقض هذا بقوله: «...ولكن العامة بسلامة قلوبهم ونشأتهم على الفطرة وانقيادهم بسوق الطبيعة – أقبلوا عليهم (أي على السادة) إقبالاً عظيماً، وكيف لا وهم أوَّلُ مَنْ عرفوا من العترة الطاهرة»، وقد قيل:

يقولون ما بال النصارى تحبهم

وأهل النهى من أعرب واعاجم

فقلت لهم إني لأحسب حبهم

سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

ويؤكد قول هينز ما قاله أحمد بن محمد المحضار في رحلته إلى الحج مع مجموعة من السادة عندما سألهم حاكم أبو عريش عن أمراء بلادهم، فقالوا له: إن أحدهم «قعيطي» من حمير، والثاني «كثيري» من همدان اقتحمتهم عينه ولامهم على خضوعهم لمن سواهم، فقال له المحضار: "إنما هم خدم لنا، والأمر أمرنا وتمثل بقول القائل:

ملوك على التحقيق ليس لغيرنا

من الملك إلا رسمه وعقابه

والأمثلة والشواهد كثيرة استعرض الأستاذ سالم مفلح البعض منها في كتابه التزوير، وفي ختام هذه النقولات التي أتينا بها من مظانها ولم يكن لنا إلا النقل فنرجو أن تنزل باردة على قلوب المتلقِّين غير قاصدين منها إلا البحث عن الحقيقة ويفيد المتلقي كثيراً بالرجوع إلى تلك المظان وإلى كتاب الأستاذ سالم مفلح.

82
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

فن الرسائل في حضرموت

في القرن الثالث عشر الهجري

مكاتبات الحبيب حسن بن صالح البحر أنموذجا

(٢ – ٢)



أ.د. مسعود عمشوش

(ب) الأبعاد التاريخية والعامة في رسائل الحضارم:

ذكرنا أن رسائل البحر تتوزع بين الرسائل الإخوانية ذات الموضوعات الشخصية والاجتماعية والدينية (أو غير الرسمية وفق تصنيف أدريان غللي)، وبين الرسائل السياسية (أو الرسمية)، التي تتضمن أبعاداً عامة وتاريخية واسعة. وفي الحقيقة لم يكن الحبيب صالح بن حسن البحر رجل دين فقط، بل كان كذلك رجل سياسة؛ فهو لم يتردَّد في اتخاذ العديد من المواقف السياسية تجاه كثيرٍ من الأحداث المهمَّة، التي شهدتها حضرموت في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). ونعثر في بعض رسائله على تفاصيل دقيقة لا نجدها في التاريخ، أو أن مؤرِّخي القرن الثالث عشر قد عادوا إليها عند تناولهم لحوادث ذلك القرن كما فعل معاصره سالم بن حميد في كتابه (العدة المفيدة في تواريخ قديمة وحديثة). ويؤكد ذلك أحمد عبد الله السقاف الذي كتب في موسوعته (تاريخ الأدباء الحضارم): "مع ما هو فيه من روح دينية، ومشاغل علمية وتعبدية، وتلاوات قرآنية، وأذكار مستديمة، فلم يكن متواريا عن المجتمع العام، وكما له رئاسته الاجتماعية والدينية والصوفية، فإن له زعامته السياسية الروحية على طوائف من العشائر السلاحية، كمعتقدٍ لهم، ذي إشراف على حالاتهم الاجتماعية والسياسية. وقد تندهش حين تعلم أنه من أركان الثورة الوطنية عام ١٢٦٥هـ على الفئة اليافعية المتغلبة على سياسة تريم وسيؤن وتريس ولواحقها، من جراء استفحال مظالمهم، حتى لم يبق في قوس التصبر منزع، فكان في مقدمة الصفوف الثائرة، إلى أن كانت النتيجة: جلاء أولئك اليافعيين عن تلك البقاع، وزوال كابوسهم الجاثم على أنفاسها وسيادتها. كما نشاهد في (تاريخ ابن حميد) مناظر من تدبيراته ومجهوداته ومساعداته المادية والمعنوية، واستعمال نفوذه". المجلد الثالث، ص١٢٢ – ١٢٣

ولأهمية الرسائل ذات الطابع العام والسياسي اضطر جامع مكاتبات البحر، الذي لم يحاول ترتيب الرسائل وفق تاريخ كتابتها، إلى فرز تلك الرسائل وتكريس الجزء الثالث من المجموع لها تحت مسمَّى: (ما كتبه لولاة الأمور وأرباب الدولة وغيرهم). ومن الواضح أن معظم (لا جميع) تلك الرسائل يتركز حول التعبير عن مناصرة الأطراف العلوية ومن تسانده ضد عدد من القادة والحكام اليافعيين في وادي حضرموت في القرن الثالث عشر.

ففي الرسالة السادسة بعد المئة، المؤرخة في ٦ رجب سنة ١٢٥٣هـ، يؤكد الحبيب حسن البحر لصديقه عمر بن زين الحبشي مساندته لانقلاب العلويين ضد الحاكم اليافعي في تريم، عبد الله غرامة، بقيادة أحمد بن علي الجنيد في تلك الفترة. وقد تناول الموضوع على النحو الآتي: "وقد وصل إلينا كتاب وللحبيب محمد من الأخ أحمد بن علي الجنيد، أن الرجل الباغي وقعت فيه هسفة، كما علمتم، وذلك إن شاء الله طالع أول السعد والانتصار، من الجبار القهار، وقد وددنا من أهل البيت خصوصًا، وسائر المؤمنين، أن يشنوا غارة على دين الله، ونصر شريعة رسول الله، وإقامة ما وضعت من حدود الله، والحبائب آل جنيد قد أدخلهم الله في هذا الأمر وفيهم أهلية من جهة الدين ومعرفة الشريعة المحمدية، وقد اجتمع الجند عندهم، وبذلوا لهم، وإن كانوا مكتفين، شر هذا الباغي وغيره. فيحق للجميع، من أهل البيت وغيرهم، أن يعقدوا البيعة للأخ أحمد بن علي، لأنه أعرف بدين الله وأحكامه، والسلطان المبارك يكون أعلى نوابه، والجند من وفقه الله وهداه، ومن بغا أن يكون من حزب الله يساعد على ذلك، ويرى ما يسره من كل خير ونصر وعاقبة حسنة" ص٧٢٩.

وفي الرسالة السابعة والخمسين بعد المئة لا يتردَّد حسن بن صالح البحر في تهديد حاكم تريم اليافعي عبد الله بن عوض غرامة، الذي قام بقمع تحركات علي بن أحمد الجنيد وحبسه مع بعض زملائه، وكتب له بتحدٍّ ولهجة شديدة الغضب: "من حسن بن صالح البحر إلى عبد الله بن عوض غرامة. السلام عليك إن كنت مجيبًا للحق، وسامعًا للنصيح في الدين، وإلا فلا سلام إلا على المؤمنين المهتدين، الذين لم يلبّسوا في الدين، ولم يسلكوا سبيل المعتدين الظالمين. وبعد، فهذه تذكرة وتبصرة لمن أجاب لبارئه بما أمر، وحجة قائمة على من طغى ومعذرة... وهذه نصيحة حق وكلمة صدق، ممن لا يرى في الوجود غير مولاه، ولا يركن إلى أحد سواه، ولا يرفع إلى غيره سراءه ولا ضراه، وإن لم تقبلها فقد قامت عليك، وبلغت المعذرة. وسترى إن شاء الله ما في صمت مخالفتها من العطب، وسوء المنقلب، وإن كنت مطيع وللنصيحة مجيب، فبادر إلى إخراج هؤلاء الأشراف الذين أهنتهم، وخوفتهم وروعتهم، وروعت أهاليهم واطفالهم، وبذلك تسلم من العقوبة، وشر المثوبة، ونحضيك بدعوة مستجابة، يصلح بها شأنك، ويحفظ بها إيمانك، وإلا رميناك بالسهام الصائبات، وبالدعوات المستجابات عند المجيب لخاصته وأحبابه، وما أهونك وما أقلك، وما أصغرك، وما أذلك، على جبار السماء. والسلام على من اتبع الهدى، وخشي عواقب الردى، وهذا لك ولمن ساعدك على الظلم، وأجراك عليه، بل موعظة لنا ولك ولسائر المؤمنين والمؤمنات". ص٨٧٣-٨٧٤

وعندما توفي عبدالله غرامة تولى حكم تريم ابنه عبدالقوي، الذي قام هو أيضًا بحبس علي الجنيد وزملائه، فوجه له حسن بن صالح البحر رسالة لا تختلف لهجتها عن أسلوبه في الرسالة التي كتبها لأبيه، وقال فيها: "من حسن بن صالح البحر، إلى عبدالقوي بن عوض غرامة، فإن كنت عبد القوي حق لك أن تسمع الموعظة، وتتقي وأنت عبده وترعوي، وإلا فأنت مطيع ومتبع للشيطان الغوي، وقد بلغنا أنك قبضت السادة الفضلاء أولاد السيد أبي بكر المشهور والسيد العلامة الفاضل أحمد بن علي الجنيد. وقد تقدم من أبيك مثل هذا الأمر، وقد حاق به الله من المكر،

وأنت في ابتداء أمرك أظهرت من الخير ما الله أعلم بما في سرك، وقد أعلنا بذلك شكرك، فإن كنت ذا قلب سليم وخفت من العلي العظيم، أطلقت هؤلاء الصبيان، وكذلك السيد الحليم، وسمعت نصيحة من يدعوك إلى الصراط المستقيم، ورفعت بنفسك من هذا المرتع الوخيم، لتفوز بالسلامة والغنيمة ممن هو بالمرصاد على عباده وبهم خبير، وأصغ إلى قول من يشفق عليك، ويحب لك أن ترجع إلى ربك وتستقيم، وإن أبيت وأردت إلا العصيان، وتلبست بالظلم والطغيان، وأهنت أهل بيت المصطفى من عدنان، سوف إن شاء الله تأتيك النقم، وعاجل العقوبة، وتبوء بالخزي والخسران. وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وأبرز للطغيان، هذا الفرس وهذا الميدان، نقول ذلك معتمدين على الملك الديان، الذي لا يقوم لغضبه أرض ولا سماء ولا جان". ص٨٦٨-٨٦٩

وقد لفت أسلوب البحر في رسائله إلى آل غرامة انتباه المؤرِّخين، ومنهم عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف الذي كتب في (إدام القوت): "كان سيدنا الحسن البحر لا يقر على كظة ظالم، ولا على سغب مظلوم... وكان لا يقوم أحد لغضبه إذا انتهكت حرمة الله، واعتديَ على من لا ناصر له سواه. وكلن لا يخاطب عبدالله عوض غرامة ومن دونه من الرؤساء في المعتبة إلا باسمه مجرّدًا من كل صفة. يسكت لغرامة على آرائه الوهابية لأن بعضها يوافق ما عنده من تجريد التوحيد، ولكن لا هوادة له عنده متى انبسطت يده في ظلم من لا ناصر له إلا الله. فهو ركن الإسلام وموئل الأنام".

وبالنسبة لعلاقة الحبيب حسن بن صالح البحر بآل كثير والشنافر بشكل عام، فقد كانت في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري متأرجحة؛ ويؤكد البحر أنه قد بذل جهودًا كبيرة وغير موفقة لإرساء الصلح بين مختلف الفخائذ الشنفرية. ويذكر ذلك في الرسالة الرابعة والثلاثين بعد المئة، الموجهة إلى السيد سالم بن علوي العيدروس، التي كتب فيها: "صدر هذا الكتاب بعد وصول كتابكم، وتذكرون أنكم واصلين للدخول بين آل كثير، وصلاح شأنهم. وقد علمتم أنا دعوناهم إلى دين الله وشريعة رسوله، ونشر حالهم في الآفاق، وقدموا على ذلك محابيس، ثم إنهم بعد ذلك هدموا ما شيدوا، وضيعوا ما به سعدوا، واستحوذ عليهم الشيطان، فركض عليهم بخيله والفرسان، ليكونوا معه في حزب أهل الخزي والخسران. وذكرت أنك واصل إليهم، فإن كنت داعيًا لهم ومشفقا عليهم، وعاد لهم من عناية الله نصيب، استقالوا العثرات، وخشوا عقوبة جبار الأرض والسموات، وهو يقبل التائبين ويغفر الخطيئات. وإن بقوا على تمردهم وعصيانهم، فقد حقت بهم الندامات، ووقع بهم ما وقع في الأمم السالفات، لأنها قامت عليهم الحجة ووضحت لهم المحجة، بإذعانهم لدين الله، وحق فيهم ما قال جلا وعلا (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)". ص٧٨٩.

لكن، حينما يئس حسن بن صالح البحر وبقية العلويين من إقامة علاقات ودية مع الحكّام اليافعيين في وادي حضرموت، وأيقنوا بعدم قدرتهم على مواجهتهم بمفردهم أو إقامة سلطة خاصة بهم في تريم، قرروا أن يساندوا أمراء آل كثير الذين، بقيادة غالب بن محسن، شرعوا سنة ١٢٦١هـ في تأسيس السلطنة الكثيرية الثالثة انطلاقًا من حيدر أباد وبلدة الغرف التي اشتراها غالب بن محسن من القرامصة التميميين. وقد دفع العلويون ثمنًا غاليًا لمناصرتهم لآل كثير في تريم وتريس، وبشكل خاص في سيؤن خلال الأحداث المرعبة التي شهدتها مدن الوادي في سنتي ١٢٦٤ و١٢٦٥هـ. والتي ذكر حسن البحر بعضًا منها بالتفصيل في الرسالة الطويلة التي بعثها إلى علي بن ناجي بن بريك مطالبًا إياه بفك الحصار عن الوادي وآل كثير، وقد ضمَّنها ابن حميد كتابه (العدة المفيدة، مجلد١، ص٤٢٨-٤٣١). وجاء فيها: "ولابدّ ما بلغكم ما وقع من يافع من ظلم وعدوان وفسوق

وعصيان، ولم يبالوا بسخط الرحمن، حتى أنهم أهانوا أهل البيت وظلموهم، وكشفوا عوراتهم، حتى أنهم بلغوا نساءهم إلى حصونهم، وأخذوا أموالهم قهراً، ودخلوا بيوتهم بدون استئذان منهم، ولم يبالوا لفعل الجرائم والآثام، ولا بنسبة جدهم خير الأنام، حتى بلغ من أولئك القتل والأسر، ثم أذن الله بمن قوّى عزيمته، وأصلح في ذلك سريرته، ببذل أموال في دفع تلك المنكرات، حتى غلبت على من غلبت عليه الشقاوة والحرمان، وأضمروا في نفوسهم المكر والعدوان، حتى عجل الله النصر لأهل الإيمان، وشتت أهل الظلم والعدوان، ولم تحزم بهم قوتهم ولا نفعتهم أعوان الشيطان، وقد بذلنا النصيحة لهم، فلم يرفعوا لها رأسا. وقد اختلفت إلينا كتب من الماس أن عمر بن عوض مراده إقامة الشريعة، ولم يوافق منه العمل بذلك". ص٤٢٩ - ٤٣٠.

وكان حسن البحر قد استبشر خيراً بتراجع هيمنة يافع على مدن الوادي، لكن تلك الأحداث كانت في الحقيقة العامل الحاسم لقيام عمر بن عوض القعيطي بتأسيس السلطنة القعيطية استجابة لليافعيين الذين طلبوا منه الانتقام مما فعله بهم آل كثير في شبام ومدن الوادي الأخرى. وقد أدرك حسن بن صالح البحر مدى خطورة تلك السلطنة الناشئة على ما حققه عمر بن منصور وغالب بن محسن، وسارع إلى القيام بحملة كبيرة لدعم السلطان غالب بن محسن ومناصرته ضد آل يافع وعلى رأسهم عمر بن عوض القعيطي. وامتدت تلك الحملة إلى خارج حضرموت؛ إذ كتب البحر، في الأول من ذي الحجة ١٢٦٤هـ، رسالة طويلة (إلى أعيان الحضارمة المهاجرين في بلاد جاوة)، يحثهم فيها بتقديم الدعم المعنوي والمادي وجزء من الزكاة للسلطان غالب بن محسن، وكتب فيها: "وهذه تذكرة لنا ولإخواننا، خصوصاً من شطّ به البعد عن الوادي الميمون، كما اقتضاه أمر الذي لا يسأل عما يفعل وهم يفعلون، بما طغا في البلاد من الطاغين، الذين هم عن أمر الله ساهون، وغيّروا البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وألجأوا العباد إلى الغربة عن أوطانهم والأولاد، والآن جلا الله تلك الفئة الباغية، التي أضلها بما بدا منها من البغي والنكاد، وأصبح الوادي في مسرة بفضل الكريم الجواد، وأيد الله أولى النيات الصالحة بالتأييد والسداد، وبقي أهل الطغيان بعد إبعادهم في محاربة وعناد، وأمرهم إن شاء الله إلى تبديد، ولا تحصلوا قصد السوء بمراد. فوجب منا، خصوصا أهل البيت، المعاضدة والإسناد، وسلوك سبيل الإرشاد، وإعانة من قام بهذا الأمر بالجد الاجتهاد، لنيتهم الصالحة، ومحبتهم للطيبين الطاهرين الذين هم للمصطفى أحفاد، ومرادهم الحق ونصر دين الله وشريعة صفوة خير العباد، وهم الدولة آل عبد الله كافة. ولا بد أنه بلغكم ما ينفقه على العصبية وحمية الجاهلية، عمر بن عوض القعيطي، على تلك الفئة الباغية، بإرجاعهم إلى المرتع الوخيم، وقد أظهروا في ذلك الوادي كل طغيان عظيم. وعزم بالهمة العالية، بما خصه ذو الفضل العظيم، السلطان غالب بن محسن بن أحمد، بهمة صادقة، ونية صالحة، وقلب سليم، مع أنه شفيق بالمؤمنين وبهم رؤوف رحيم، حتى بذل أمواله في صلاح البلاد والعباد... فانهضوا انهضوا معاشر الإخوان، إلى الأوطان، الذي منّ الله على أهلها باليمن والأمان، واغتنموا ما بقي من الأعمار في عمارة فراديس الجنان، واسلكوا مسلك أهل التقوى والإحسان، تغشاكم الأنوار وتنتفي عنكم الأكدار، برضوان مولاكم العزيز القهار... وقد مست الحاجة، بعد ما أنفقه السلطان من الأموال، ودعت الضرورة إلى المعاونة من مياسير المسلمين، في ردع تلك الفئة الباغية بإعانة من قام بهذا الشأن ورغب فيه، وشن الغارة عليه، مع عفتهم وعلو همتهم، ورحمتهم بالعباد، حتى أنهم، ما احتاجوا إليه يقترضونه ويستدينونه على جود الله، وما وقع في أيديهم، أرجعوه إلى كل ذي حق حقه، بلا مماطلة، والنفوس مطمئنة بما اقترضوه واخذوه

ممن بذل فيذلك، لما في قلوبهم من الرأفة. غير أن ميسور الدولة كما تعلمون، بحال الساعة، قليل والناس في ضنك معاشهم وإلا فلله الحمد، ما وقع بهم قحط ولا شدة من يوم ما أقام الله السلطان في هذا الوادي، في ميسرة ومسرة، من فضل من الخلق خلقه، والأمر أمره. فنرجو من الله أن تقوموا بالعزائم، وتظفروا بالغنائم، بإعانة هؤلاء أولي الهمم العلية، بالمبادرة بإخراج ما سمحت يه نفوسكم الزكية، بما يعينهم على نصر دين الله والشريعة المحمدية، فبذلك إن شاء الله تحوزون الحسنيين وتفوزون بسعادة الدارين، وقد تعينّ ذلك. ولا يخفاكم، حماكم الله، أن المذكورين لهم سهم من الزكاة، إذ هم الغارمون، والغارم يعطي منها حقه كما أمر الله". ص٨١٤-٨١٥

وقد حظيت تلك الرسالة بانتشار واسع، وعقّب عليها، مساندةً، عدد من زملاء حسن البحر، وأبرزهم عبدالله بن حسين بن طاهر وعبد الله عمر بن يحيى. وقد تمّ تضمين مجموع مكاتبات البحر اثنين من تلك التعقيبات، وضمنها ابن حميد في كتابه (العدة المفيدة) مجلد١ ص١٤٣.

ولمناصرة السلطان غالب بن محسن الكثيري والحصول على الدعم اللازم له لم يكتف الحبيب حسن بن صالح البحر بالتوجه إلى المهاجرين الحضارم في جاوة، بل خاطب أيضًا الحاكم الهندي الأجنبي، سلطان حيدر أباد، وطلب منه التدخل في وادي حضرموت والوقوف لصالح السلطان غالب بن محسن ضد عمر بن عوض القعيطي، وذلك في رسالة طويلة (رقم ١٤٤)، كتبها له في الأول من ربيع الأول سنة ١٢٦٥، وحمّله فيها مسؤولية ما يقوم به عمر بن عوض القعيطي من تخريب في حضرموت، وقال فيها: "ثم أن الحاصل لهذا التعريف، بعد إهداء السلام، وبذل الدعاء الخاص والعام، رفع الشكوى، على الله العالم بالسر والنجوى، ثم إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، الذي لا ينطق عن الهوى، ثم إلى كل مؤمن من أهل التقوى، سيما استخلفه الله على عباده في بلاده، وأمدهم بجزيل الإمداد. وأنتم منهم معدودون، وفي سلك عقدهم داخلون، لما يبلغنا عنكم على ألسنة الواصلين من عندكم، من حب أهل الإسلام، وإعزازهم من بين الأنام، والشكاية مما نزل بوادينا ونادينا، من البلوى والفتن، والأسواء والمحن، التي عمت الصالح والطالح، والغدي والرايح، وزيادةً أهل التقوى والصلاح، والعلم والفلاح، وغيرهم من ضعفاء العباد، ومساكين البلاد، مما لا ناصر له إلا البر الجواد. فقد ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، وضعفت أحوالهم، وقلت أموالهم، وخابت آمالهم، وقطعت سبلهم، وتعطلت أسبابهم، وصاروا كالحوت الذي نشف بحره، وغار نهره، فحار الحكيم، وسكت العليم، وصرخ اليتيم، وبكى العديم. وكل ذلك بواسطة عوض بن عمر القعيطي، القاطن الآن في ملككم، وتحت سيطرتكم، وقهركم، يصرف الأموال الكثيرة والذخائر الخطيرة، على جند الفساد والعناد، المولعين بإيذاء العباد، وخراب البلاد، وأثار بذلك نار الفتنة، بعد أن خمدت، وهيّج ريحها بعد أن ركدت، وقطع السبل والمفاوز، على كل مسكين وعاوز وعاجز، ولم يأل جهداً في إيذاء أهل الجهة الحضرمية، لا سيما السادة العلوية، والعترة النبوية، التي أمر الله باحترامها، ومودتها وإكرامها، كما في كتابه العزيز. وحاصله، أنه ينفق ويمون خلف السوء والفساد، ويغريهم على العباد، ومن جملة ذلك إخراجه الطنبشية والمدفع، فآذى به المساكين وروّع، وجرا به المعتدين وشجّع، وإن كان عمله مبتور، وعمله هباء منثور، وشيطانه خاسر ومدحور، بعون من إليه تصير الأمور... حتى قام من جهته السلطان غالب وجلاهم، وأخرجهم من مدن حضرموت، بما لهم من فراش، وأسلاب وقراش، واستوطنوا بذلك الوادي وتركهم نائب السلطان خوفا من شر عمر بن عوض ودنياه، وحمية جاهلية وهواه، واطمأنت الأرض بعد بعدهم، وحصل الأمن عند فقدهم، وسكنت الخواطر،

وانشرحت الصدور، وخمدت الفتن وانزاحت الشرور. حتى وصل القيام من عمر بن عوض ونوابه، يجمعون الأقوام ليطفئوا نور الله بأفواههم ويؤذوا الأنام، ويأبى الله إلا أن يتم نوره التام، ولقد هم بما لم ينل، بحول الله عز وجل، هذا وما الحامل والمعين له على ذلك إلا ما يحصل له من المال الذي يأتي من عندكم، وعلى يديكم، ويستعين بذلك، على محاربة الله، وإيذاء أولياه وأصفياه، وإخافة مساكين الله، وضعفاه، ليحق عليهم ما قال الله تعالى: إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله. الخ. فالمطلوب من الله ثم منكم زجره، ومنعه وقهره، عن فعل القبائح والسيئات الذي يغضب لها رب الأرض والسموات بمنع الجرايات، وزجره عن هذه الجراءات، فها هو يصدّر من الأموال لإثارة الشرور من ملككم، شيء كثير، ومال كبير. وأنتم لكم اليد الطولى والقدرة على المنع من هذا الأمر الوخيم والفعل اللئيم... وكذلك نطلب من الله ثم منكم، إعانة السلطان غالب بالمدد والعدد والأخذ باليد، ليقيم شرع الله بالبلد، ولقد سكنت بقومته الفتن والإرجاف، والشرور والإجحاف، في بلاد الأحقاف، وسكنت الثائرة واجتمعت الكلمة، ليكون لكم بذلك من الله المدد الحسي والمعنوي، والثواب الدنيوي والأخروي" ص٢٢٣-٨٢٤.

ومن اللافت أن المواقف السياسية للحبيب حسن البحر لم تنحصر في الشأن الحضرمي، بل تجاوزته إلى خارج حضرموت، فهو، في الرسالة السادسة والثلاثين بعد المئة مثلاً، يتواصل مع فريد بن ناصر بالرواس؛ ليعبرِّ له عن استنكاره الاحتلال البريطاني لعدن ومساندته له وللسلطان الفضلي الذي شرع في مقاومتهم، ويقول فيها: "صدر هذا الكتاب بعد أن بلغنا أنكم شانين الغارة على دين الله، ومعاداة من كفر بالله، فذلك سعد عظيم لمن أحبه الله وارتضاه، فبعثنا بهذا الكتاب تهنئة لكم بما خصكم به من لا إله غيره، ولا رب سواه، أسعد الله عزائمكم بهذا الفعل العظيم، وقطع بكم كل طاغ من أتباع الشيطان الرجيم. وقد وصل إلينا كتاب من السلطان المسعود أحمد بن عبد الله الفضلي، ومعه همة عالية ونفس زكية، على من كفر بالله من الإفرنج الذين دخلوا عدن وهم محادين لله، وقد ضعفت شوكة الإسلام، على أن يجمعوا همهم وقلوبهم وقوالبهم على هذا العدو اللعين، وصار عندهم هذا الأمر العظيم أضغاث أحلام، وقد كادت أن تخلع رقابهم عهدة الإسلام، وصاروا منها في أجنة الظلام، حتى مالوا إلى الكفار بطمعهم بما يدخلون به في جحر الكافرين، ويمحق عليهم دنياهم مع ضياع الدين، فيا ويلهم من غضب وعذاب القوي المتين، وسوف يلقون الخزي والعذاب المهين. وقد أرسلنا جوابا للسلطان المذكور المنصور إن شاء الله، أحببنا أن تنظرونه طي هذا الكتاب، فكونوا بالله منتصرين، وعلى حوله وقوته معتمدين". ص٧٩٣

كما لا يتردد حسن البحر عن التعبير عن دعمه المعنوي للحاكم العثماني في ظفار عبدالرحمن بن عقيل السقاف، فقد كتب إليه رسالة بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٢٤٥هـ (رسالة رقم ١٢٨) يدعوه فيها إلى الالتزام بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، وكتب فيها: "قد علمنا أنكم واصلين إلى جهة ظفار، ونرجو أن الله يؤيدكم وينصركم، فكونوا معتصمين، ولطاعته وتقواه ممتثلين، وشنوا الغارة على إقامة شرع الله على الخاص والعام، والقوي والضعيف، ولا تسامحوا أحداً في حدود الشريعة، ومن هاهنا يهون عليكم كل عسير، ويسهل كل صعب، قال تعالى: (إن تنصروا الله ينصركم). وقال تعالى: (الذين إن مكنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور). ومن جاء مذعنًا لكم، معطي حكم الله، نابذا لحكم الطاغوت، وعرفتم صدقه في الآن، لا بأس إن سامحتوه في الأمور الماضية لكن خذوا عليه بإقامة الحدود والقصاص في جميع الأحكام الشرعية،

هذا إذا انشرح الخاطر بقيامكم مقام الحبيب محمد وقويت الهمة واستخرتم الله فيه، وصلحت النية لله ولدينه".

ص ٧٧٤ ويكتب رسالة مشابهة (رقم ١٢٩) إلى فضل بن علوي مولى الدويلة الذي عينه الباب العالي حاكما عثمانيا لظفار بين سنة ١٨٧٤ و سنة ١٨٧٩ م.

وبوصفه علامة ورجل دين يتواصل الحبيب حسن بن صالح البحر كذلك مع والي مكة، في الرسالة الخمسين بعد المئة، وينبهه فيها إلى ما يحدث من منكرات وتجاوزات لحدود الله في مكة وجدة. وقد نشر الباحث الدكتور محمد أبوبكر باذيب تلك الرسالة، مرجحا أن الشريف محمد بن عبد المعين بن عون الحسني النموي (ت ١٢٧٣ هـ) كان والي مكة الذي وجهت إليه الرسالة التي جاء فيها: "وقد بلغَنا من المنكرات الفظيعة ما يوجب زوال النعم، وحلول النقم، وقد أقام السلطان عبد المجيد بن محمود بن عبدالحميد، خليفةً في إقامَة حدود الدين، وشريعة سيد المرسلين، وخلفائه الهداة المهتدين، الذين جعلهم الله سيفه على الجاحدين والكافرين.

وبلغنا أن جندهم تزيَّوا بزي الكافرين الملحدين، من النصارَى المحادين لله، إذ كانوا لما أنزله من كتابه وما جاء به الرسول الأمين مكذبين، وما ذلك إلا أن استحسنوا دينهم وخلا الإيمان في قلوبهم، وخافوا أعداء الله المعتدين، ولم يشفقوا من عذاب الله المهين، وينتصروا بقوّة الله القوي المتين، قال جل وعلا: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، حتى استحوذ عليهم الشيطان اللعين، وأنساهم قيوميته من لم يقم لغضبه أهل السموات والأرضين أجمعين. حتى غفل هؤلاء النوابُ والحكام من المسلمين، فكأنهم لم يؤمنوا باليوم الآخر الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين، فإن كانوا بوعد الله مصدقين، ولأمره ممتثلين، فليخرجوا هذا الذي شبهوا به وشاركوا فيه الكافرين الملحدين، وليقوموا بأمر الله، وليغاروا على دين الله، إن كانوا مؤمنين، وليعلُوا كلمةَ الله عنوةً ويعزوا المسلمين ويذلوا الكافرين، إن كانوا للنصيحة سامعين، ولهدي رسوله متبعين، ويبشرون بحوله وقوته بالفتح المبين، ويهزَمُ بهم جند الشيطان، وحزبه الخاسرين، وليزيلوا هذا الزيَّ الذي هو زيّ الكفار، ويأمروا بزي المتقين الأبرار، قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين. وعليهم أن يزيلوا من دهليز الحرمين الشريفين، جدة، ومن يسكنها من الفرنج والنصارى، بل من غيرها من بلدان المسلمين، وقد بلغنا أنها تقبل شفاعتهم، ومسامحتهم في عشورهم وجناياتهم، وتعزيزهم وتوقيرهم، وظهورهم بشرب الخمر، وتعاطي الكفار وغيرهم، ممن لا يخاف الله من المسلمين. وبلغَنا أيضا مزاحمة النساء بالرجال في المطاف، فليميزوهن بأن يكن في حاشيةِ المطاف، كما ذكره العلماءُ، لأن اختلاط الرجال بالنساء موجبٌ للفتنة ووقوع الفاحشة، ولو من النظر، تحت بيت الله العظيم. ومن ذلك توقير أهل الدنيا، وإهانة الضعفاء والمساكين من عباد الله، وإخراجهم من الصفوف، ويجعلون مكانهم أهل الجِدَة، وربما يكون منهم من يستجاب دعوته، ويغضب لغضبه جبار السموات والأرض، فيحرق الوالي والمولى عليه بسطوات عدله. ومن المنكرات أخذهم الأجر الكثير على الطائفين، يعجز عنه الفقراء، ويتعب فيه الأغنياء، وإذا لم يعطوهم ذلك سبّوهم وشتموهم. على الولاة والعلماءِ أن يزيلوا هذه المنكرات، ليحظون برضَا رب الأرضين والسموات، فيسلموا من غضبه بأعظم السطوات، فإنه إذا غضب لا تقوم له جميع البريات وسائر الكائنات. وعليهم أن يتفقّدوا ما في الحرَم، من داخله وخارجه، طائفه ومصليه، على ما مضى عليه السلفُ السالكون على سنة سيد المرسلين، وقد حججنا في زمن قبلَ هذا، ولم نر تلك المنكرات،

وصار هذا من غربة الدين والأمور المستقبحات. وقد بلغَنا ذلك ممن نثقُ بقوله ويخاف الله ويتقيه، فبعثنا بهذه النصيحة لكم حذراً وإشفاقاً من غضبِ الله، وغارةً على دين الله، وتضييع حدوده وأحكامه، وهذه النصيحةُ إن شاء الله جديرةٌ بالقبول، لمن كان له قلب حي وحياءٌ، ومن لم تنفعه النصيحة فإنه ميتٌ، والشجر الصالبُ العرقِ لا ينفعُه سقيُ الماء، والذي في عروقه بقايا حياةٍ يحيى ويرتعش. والمؤمنون الذين بذر فيهم الإيمان، قال فيهم جلّ وعلا: وبشر الذين آمنوا أنّ لهم قدم صدق عند ربهم.

الجزء الثالث: الأبعاد الفنية في رسائل الحضارم في القرن الثالث عشر:

(أ) السجع والبديع في رسائل الحضارم في القرن الثالث عشر الهجري:

لا شك في أن نهضة الأدب قد تأخرت في حضرموت، ففيها ظلت أساليب الكتابة في القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) متأثرة كثيراً بأساليب عصور الانحطاط التي اتّسَمت، في الغالب، باستخدام واسع لأسلوب السجع، والمحسنات البديعية، والأحاجي اللغوية، والمفردات العامية والأعجمية، وكذلك بالمزج بين اللغة الفصحى واللهجات العامية.

ومن المعلوم أن أسلوب السجع الذي ارتبط أساسًا بفنَّي الخطابة والرسائل الديوانية والإخوانية والأجناس النثرية الأخرى يجعل من إيقاع الكلام وسيلة للإقناع. وفي اعتقادنا أن الطبيعة التواصلية لرسائل الأدباء ورجال الدين تميل في كثير من الأحيان إلى توظيف السجع والمحسنات البديعية الأخرى للتأثير في المتلقي.

لهذا حرص معظم كتاب الرسائل في حضرموت على الاعتناء بديباجتها ودعموها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحكم والأمثال والأشعار، واستخدموا فيها ضروبا مختلفة من مرتكزات البيان والبلاغة العربية التي التصقت بالنثر العربي قبل تحوله إلى الأسلوب المرسل في العصر الحديث.

ومن المؤكد أن مؤلف (سمط الدرر)، الحبيب علي بن محمد الحبشي، قد برّز فنيًّا، في مكاتباته جميعَ كُتَّاب الرسائل الحضارم في القرن الثالث عشر الهجري. ففي رسائله، كما هو الحال في إجازاته ووصاياه، بلغ الحبشي درجة من التأنق لم يبلغها غيره من كتاب القرن الثالث عشر الهجري؛ إذ إنَّه التزم في جميع مكاتباته أسلوب السجع والتوازن واستخدم مختلف أنواع المحسنات البديعية، اللفظية والمعنوية، كالتطابق والجناس والتشبيه. نلمس ذلك مثلاً في هذه الرسالة التي بعثها في الأول من صفر ١٢٨٧ هـ إلى الحبيب علي بن سالم بن الشيخ أبي بكر بن سالم، والتي كتب فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم. دهرنا أضحى ضنينا "باللقاء حتى ضنينا/ يا ليالي الوصل عودي" اجمعينا اجمعينا. (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم. وأنهارًا وسبلاً لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون) [النحل، ١٦-١٦]. الحمد لله الذي أبرز من خزائن الكرم والجود، ما ألحق المطرود بالمسعود. وفّق وذوّق، وحبّب وشوّق، وأصحى وأسكر، وأنسى وذكّر. في تعريفه تعريف عين المعرفة، وأنّى للواصف أن يدرك حقيقة الصفة. أوضح مناهج السير للسائرين فساروا، وكشف سبحات وجهه للعارفين فساروا، إلى حيث يتضح المعمى، ويقع الاسم على المسمى، وفي سرائر تقلبات التقليب، والمعنى الغريب، والسر العجيب، والنهار الذي ليس لشمسه مغيب... صدور المسطور، والدور لا تزال تدور، والكتاب الذي أرسلتموه، والقريض الذي نظمتموه، وصلاً إلينا. وكانا من نعم الله علينا، وما أبدعتم به في الفريدة النونية، هو فيض مواهبكم اللدنية، ولقد سرحت

طرفي فيما أبديتم من المعنى الغزير، فرجع خاسئا وهو حسير... وقد وصلت إلى تريم، لزيارة من بها مقيم، وحضور اجتماع المسلمين، والدخول في زمرة المؤمنين، والمطلب الأكبر هو الاجتماع بكم، لكوني ظانا وصولكم، ووددت الوصول إلى طرفكم، ولكني خفت طول المدة، فأسأل الله أن يزلفني بلقياكم عن قريب في لطف وعافية. شعر: كتبت ولي دمعة جارية" ولي في اللقاء همة عالية/ وشوقي إليكم وحق الإله" كشوق المريض إلى العافية. غيره: شوقي لذاتك شوق لا أزال أرى/ أجدّه يا إمام العصر أقدمه. ولي فمٌ كاد ذكر الشوق يحرقه" لو كان من قال نارا أحرقه. هذا وما في الفؤاد لا يحصره البياض والمداد. فعسى الله يمن باللقاء، ويجمع اللذين تفرقا، والدعاء الدعاء الدعاء، والسلام مني ومن جميع إخواني، لا سيما الخاصة، وولدي عبد الله، ووالدتي، عليكم وعلى من لاذ بكم، لاسيما جميع أهل حضرتكم، والسلام. والكتاب على كاهل العجل، وإلا فالخطاب معكم لا يمل، والسلام ختام. الباسط ذراعيه بالوصيد، أُقل العبيد، الفقير إلى الله علي بن محمد بن حسين بن شيخ الحبشي. علوي عفا الله عنه". مجلد١، ص٢٣-٢٤

وحرص الحبيب حسن بن صالح البحر هو أيضًا على إضفاء أبعاد فنية على معظم رسائله، لا سيما تلك التي وجهها إلى القادة والحكام والولاة. لكنه، على الرغم من كونه شاعرًا، فإنَّه لم يمزج النثر بالشعر في رسائله، ولم يصدِّر أيًّا منها ببيت شعر كما فعل الحبيب علي الحبشي، ولم يبالغ مثله في البحث عن الطباق والجناس والكلمات الجزلة والغريبة. واعتمد في الغالب سجعًا سهلاً ذا فواصل قصيرة.

وقد اعتنى حسن البحر بشكل رئيس بصياغة افتتاحيات (أو تصديرات رسائله)، التي يضيف إليها عادة عددًا من الآيات القرآنية، ويجعلها بساطًا أو مقدمة يمهّد فيها، بالموعظة الحسنة، للموضوع الذي سيتناوله في الرسالة، وذلك اتباعا للتقليد السائد عند كبار مؤلفي الرسائل الإخوانية في التراث العربي قبل القرن العشرين الميلادي. ففي مفتتح الرسالة الثالثة بعد المئة، التي وجَّهها إلى عبدالله وعبدالرحمن أبناء أبي بكر المشهور ويشرح لهم فيها كيفية العلاج باستخدام الماء المقروء عليه القرآن، يبدأ قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله مزيل الآلام بلطفه، وكاشف الأسقام برحمته وعطفه، وصلى وسلم على سيدنا محمد الذي شمله الله بركته وكنفه، وعلى آله وصحبه الذين جعلهم الله لكل كافر مصيبته وحتفه". ص ٧٢٠.

أمَّا رسالة العتاب (الرابعة والعشرون) التي بعثها حسن البحر لأحد محبيه بعد أن طلب منه أخوه التدخل لإنهاء خصام حدث بين الأخ وأهله، فقد صدرها على النحو الآتي: "بسم الله الرحمن الرحيم. وعد الله الصابرين المخرج مما يكرهون، والرزق من حيث لا يحتسبون. والحمد لله الذي جعل الألفة والمواصلة بين المؤمنين من أعظم شعائر الدين، خصوصًا الأهلين والأقربين، وجعل ذلك شعار المؤمنين والمنيبين إلى رب العالمين، وجعل القطيعة والتحاسد والتباغض بين حزب الشياطين الخاسرين، فليس ذلك من شأن المتقين المفلحين، بل يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، كما نص على ذلك في كتابه المبين. وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين". ص٥٥٦

ومن اللافت للانتباه في رسائل حسن البحر والمميّز لها: توظيف كاتبها للسجع بهدف كسب ودّ المتلقي والتأثير فيه، وذلك من خلال جعل قافية اسمه تتكرر في جميع الفواصل التي تتكوّن منها (فقرة المتلقي). ففي الرسالة السابعة والأربعين، مثلاً، توجّه البحر إلى متلقِّيه قائلاً: "إلى حضرة الحبيب الأمجد عبد الله بن علوي بن المقدم بن الحبيب الإمام علي بن حسن العطاس، حفظه الله البر

الرحيم من كل بأس، وأسعد به مدار الساعات والأنفاس، وسلك به مسلك أسلافه الذين أحكموا في طاعة ربهم أمكن الأساس، حتى سادوا بفضل مولاهم على جميع الأجناس". ص٦٠١.

ويبدأ الرسالة الثامنة والعشرين على النحو الآتي: "من حسن صالح البحر إلى محبه أنيس الفؤاد وخلاصة الوداد محمد بن المؤمن الصالح سالم بلجون، حفظه الله ورعاه الذي يقول للشيء كن فيكون، وبلغه في الدنيا والآخرة المرغوب والمسهون، فإن فضله غير مكنون، بل لم يزل إحسانه وفضله ممنون". ص٥٦٤

وفي الرسالة الثالثة والثلاثين توجه حسن البحر إلى محبه عبد الله باسلامة قائلاً:"إلى المحب الأنور الملحوظ بعين العناية، عبد الله بن زين باسلامة، حلاه الله بحلية الاستقامة، وحفظة من كل أذية وملامة". ص٥٧٤.

(ب)- اللهجة العامية واللغة الفصحى في رسائل الحضارم:

ومن أبرز السمات الفنية لرسائل الحضارم في القرن الثالث عشر الهجري: ظاهرة المزج بين اللهجة العامية الحضرمية واللغة الفصحى. وفي الحقيقة، من السهل العثور على مفردات وتراكيب عامية في جميع المكاتبات الحضرمية، حتى في تلك الرسائل التي خطّها كبار الأدباء ورجال الدين. وهذه الظاهرة كانت - كما ذكرنا- سائدة في مختلف الأجناس النثرية العربية قبل القرن العشرين (وقد تحدثنا عنها بشيءٍ من التفصيل عندما تناولنا الأبعاد الفنية في السيرة الذاتية للحبيب حسن بن علي العطاس).

وفي الحقيقة، نلمس هيمنةً كبيرةً للهجة الحضرمية في بعض المكاتبات الحضرمية، وانحساراً واضحًا في بعضها الآخر. نلاحظ، مثلاً، أن الحبيب طاهر بن حسين بن طاهر يستخدم بشكل مطرد اللهجة العامية، بعكس أخيه عبد الله بن حسين. ففي رسالته القصيرة التي سبق أن أوردناها في الجزء الثاني من هذه الدراسة، رصدنا التراكيب والمفردات العامية الآتية: "والكثافة إلى غاية"، "وأن شملهم بايتبدد"، "حسبما عرّفناكم في عدة خطوط"، "ما هناك مُشوِّش"، "في لحيه الأيمن"، "أهل التدبيرة، "والخطوط مبعاد وصلت"، "الخريف هذه السنة قليل"، "رطب من العجايب"، "والشارة على الرأس"، "والأسعار شاحية قليل"، "والزرايع موافقة".

وعلى الرغم من أن الحبيب علي بن محمد الحبشي كان يسعى إلى الارتقاء بلغته إلى مستوى كامل الفصاحة، فقد تسربت في رسائله بعض الانزياحات العامية، في المستويين الشكلي (أو الصوتي) والمعنوي، لكثير من الكلمات العربية الفصحى. فهو استخدم الفعل (زحف) بمعنى (تَعِب، أو أُنهِك)، وكلمة (المثار) بمعنى النهوض او الاستيقاظ، وكلمة (السترة) التي استخدمت معنى الجدار، وكلمة (عارضته) بمعنى قابلته، وكلمة (عبرت) بمعنى مضت أو مرت، و(الخلاء) بمعنى المكان الواسع الخالي من العمران.

وكذلك الحال بالنسبة للحبيب حسن بن صالح البحر؛ فمن الوضح أنه كان يتوق إلى استخدام لغةٍ عربية فصحى وجميلة ومرصعة بالسجع والمحسنات البديعية، في مختلف رسائله: تلك التي أرسلها إلى محبيه وأصدقائه، أو تلك التي أرسلها إلى الحكام والقادة والسلاطين. ومع ذلك لا يخلو كثير من رسائله من التراكيب والمفردات العامية الحضرمية. ففي الرسائل التي اقتبسناها في الجزء الثاني وردت، مثلا، كلمة (هسفة) العامية بمعنى خيبة، وكلمة (علقتكم) بمعنى تعلقكم، وكلمة (المسهون) بمعنى المنتظر، وكلمة (كحال) في مكان كحل، وكلمة (قراش) بمعنى متاع، وكلمة (تكثيف) بمعنى صداع. وكلمة (الطنبشية) بمعنى العساكر المسلحين بالبنادق، وعبارة (الدرس إلى زيادة) بمعنى يكثر عدد الحاضرين في حلقة الدرس بالمسجد.

92
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

أثر جمعية الحق في التوازن الاجتماعي



أ.د. محمد عبدالقادر محمد العيدروس*

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن حضرموت تمر بمرحلة عصيبة، تفقد فيها توازنها كما تفقد الرؤية والمشروع النهضوي الجامع، وتذهب إلى التشرذم واحتدام الصراع الداخلي السياسي والاجتماعي، وإلى استيراد جملة من المشارع الفكرية الغريبة عنها في الرؤية وفي الانتماء، مما يزيدها تبعية ويفقدها توازنها وطمأنينتها، والغريب أن تلك المشاريع في غالبها كانت عبئًا على مجتمعاتها، ولم تقدم لها غير السمعة السيئة، والتشويه للدين الإسلامي الحنيف في واقعها وفي واقع الأمة والعالم.

ما أحوجها في هذه المرحلة إلى العودة إلى الذات، وإلى التاريخ والإنجاز الفكري والثقافي، الذي قدمها للعالم أجمع بهذا التميز والسمعة الجيدة؛ لتعكف على دراسته، وتستخرج منه قواعد النهضة والتنمية، وتقارن بينه وما هي عليه اليوم، وأرى أن الانكفاء على الذات ودراسة كل ما يتعلق بها هي الخطوة الأولى للنجاح؛ لأنه بها ستكشف عناصر القوة والضعف، وتقارن ماهي عليه في التاريخ، وما هي عليه في الواقع، وماهي قواعد نهضتها التي فقدتها في واقعها.

والندوة المقامة من أجل دراسة منظومات الضبط الاجتماعي في حضرموت هي خطوة في الطريق الصحيح؛ لتعرف حضرموت نفسها عن قرب في عصر نهضتها، وهذه الورقات هي جزء من تلك الدراسة، تحدثت عن جمعية الحق وأثرها في التوازن الاجتماعي، وقد جاءت في ثلاثة مباحث قبلها تمهيد وبعدها خاتمة.

تحدث التمهيد عن تأسيس الجمعية وأهدافها ورؤيتها، وتحدث المبحث الأول عن حرص الجمعية على السلم الاجتماعي والتعايش السليم للمجتمع، وتحدث المبحث الثاني عن تأسيس المجالس وسن القوانين واللوائح، أما المبحث الثالث فكان الحديث فيه عن الصحة والتعليم، وأثر الجمعية فيه، وختمت الورقات بجملة من النتائج.

وإذا لأحد الفضل في إنجاز هذا البحث فهو لأخي الباحث علي أنيس الكاف، فقد وضع جملة من الوثائق والأبحاث أمام نظري، وكانت عنصرًا رئيسًا في مفردات البحث، وكذلك أخي الأستاذ الدكتور محمد يسلم عبد النور، الذي ألح علي في كتابة هذه الأوراق.

93
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

وفي الأخير فإني أحمد الله على هذا الإنجاز، وأرجو أن ينال رضى الله سبحانه وتعالى ورضى القراء، وفي انتظار الملاحظات التي تقوم اعوجاجه، وتكمل نقصه، من كل غيور على حضرموت وتاريخها.

وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

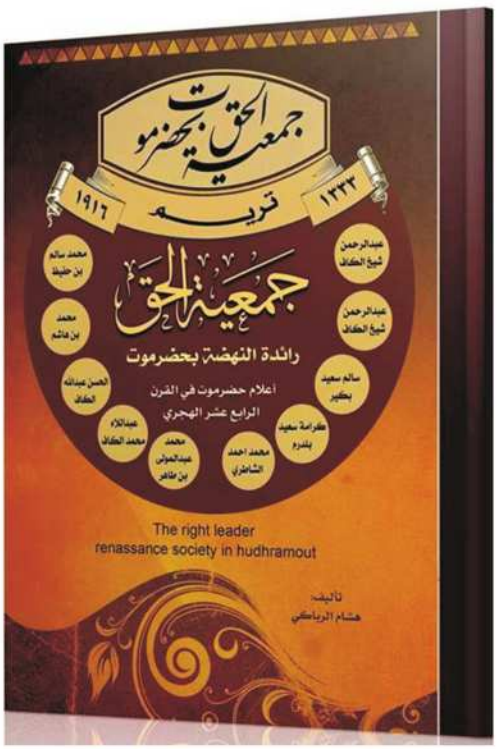
تمهيد:

تأسيس الجمعية

تعد جمعية الحق من أكبر الجمعيات التي تأسست في حضرموت(١)، وربما هي الأولى التي تحمل فكراً جامعًا إصلاحيًا، ولها رؤية عميقة واضحة، تفوق ما عليه مؤسسات المجتمع المدني اليوم؛ إذْ يغلب عليها ضعف الرؤية والتبعية المطلقة لسير الدولة، أو المصادمة التامة لما عليه سياسة الدولة، ولذلك لم تقدم هذه المؤسسات في واقعنا ما يحافظ على توازن المجتمع ونهضته شيئا كثيراً.

تأسست الجمعية عام ١٣٣٣هـ الموافق ١٩١٦م وقيل ١٩١٥م(٢)، وكانت حضرموت تعيش وضعًا غير مستقر نتيجة اختلاف الدول التي تسيطر عليها بين الساحل والوادي، فالدولة القعيطية كانت هي الدولة الأقوى آنذاك، وتسيطر على الساحل الحضرمي، وتمتد إلى كثير من مناطق الوادي، في حين أنَّ الدولة الكثيرية وهي أضعف من القعيطية كانتْ تسيطر على بعض من مناطق الوادي، وكان الصراع بين الدولتين لا ينتهي(٣)، إلى جانب ما بداخلهما من صراعات ونزاعات قبلية، وبين أفخاذ الأسر الحاكمة، "كالخلاف بين السلطان عمر بن عوض القعيطي وابن اخيه السلطان صالح بن غالب، أو كالنزاع بين آل منصور وآل محسن في دولة آل عبد الله الكثيرية"(٤).

هذا الوضع غير المستقر يعود سوؤه على المجتمع في تنميته وفي أمنه وفي استقراره وفي العلاقة بين طبقاته، ويؤدي إلى مزيد من التفكك والانهيار، مالم يتداركه



العقلاء من المجتمع فيقدموا له ما يعينه على التماسك والتوازن، وينتجوا منه مشروعًا نهضويًا، يتحرك فيه كل الطبقات الاجتماعية بحسب إمكاناتها، ويجدون في ذلك المشروع مصلحتهم الخاصة والعامة، فيسير المجتمع حينئذ نحو النهضة، ويتناسى صراعاته الداخلية، التي تسيء له ولنهضته، ولا تزيده إلا غرقًا وانجراراً نحو التخلف والبعد عن النهضة والتوازن.

وبغية هذا الأمر تحرك جملة من العقلاء في تريم؛ ليعيدوا للمجتمع رؤيته وتوازنه، وينتجوا منه مشروعًا نهضويًا، ويرفعوا عنه ما وصل إليه من الإحباط والصراع والظلم السلطوي والطبقي، هؤلاء العقلاء هم:

- حسن بن عبدالله الكاف. - علوي بن أبي بكر الخرد.
- عبدالرحمن بن محمد بلفقيه. - أبوبكر بن علوي المشهور.
- عبدالقادر محمد الحداد. - أبوبكر بن علوي الكاف.
- علي بن محمد الهادي. - أبوبكر بن حسين الكاف.
- سقاف بن زين الهادي. - زين بن أحمد عيديد.
- عبدالقادر بن شيخ الكاف. - حسن بن زين الهادي.
- عبد القادر بن محي الدين بلفقيه.

- محمد عبد المولى بن عبدالقادر بن طاهر.
- علي بن زين الهادي.
- محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن شهاب
- زين بن عبد الله الزاهر.
- عيدروس بن محمد بن هارون بن شهاب.
- حسين بن عبدالله الزاهر. - عمر بن شيخ الكاف.
- عبدالرحمن بن شيخ الكاف. - عمر بن محمد الهادي.
- عبد اللاه بن محمد بن علوي الكاف. - كرامة سعيد بلدرم
- محسن بن زين الهادي. - علوي بن أبي بكر بن علوي الكاف
- حسين بن عبد الرحمن الجفري.
- علي بن عبد الرحمن بن عبدالله الكاف.
- محسن بن سالم السري. - عمر بن أحمد بن شيخ الكاف.

وكانت تريم هي مقر هذه الفكرة (الجمعية) ومركزها، وليس غريبًا أن تحوي هذه المدينة مثل هذه الأفكار؛ فهي عمق حضرموت الفكري والثقافي والديني، وهي المحافظة على الهوية الحضرمية، والمعبرة عنها في المحافل في الداخل والخارج، ولها امتداد وأثر إلى يومنا في الجزيرة وفي شرق آسيا وأفريقيا وفي غيرها من البلدان الإسلامية.

الأهداف:

وضعت الجمعية منذ تأسيسها أهدافًا لنشاطها، سمته القانون العام لجمعية الحق، واستشهدت عقب عنوانه بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وبقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وفي الاستشهاد كشف لرؤية الجمعية أمام المجتمع بأجمعه أفرادًا وطبقات وسلطة، نقدها لكل الباطل الحاضر في المجتمع، وحثها على المبادرة الفاعلة لضرورة تغييره، والمحافظة على وحدة المجتمع وتماسكه، وإبعاده من التفرقة والتقسيم الذي يخل بهدف التنمية والمشروع الجامع.

وقد جاءت المادة الأولى من قانونها كالآتي: "القصد من إقامة هذه الجمعية تربية العقول، وتنبيه الشعور، وتنوير الأفكار، وتعميم مكارم الأخلاق، والتحلي بمحاسن الخلال، والتخلي عن الرذائل، وتلافي ما يقع بين الأسر من النزاعات والخلافات، وحماية الضعفاء وتعضيد المحقين ضد المبطلين، وإقامة المشروعات النافعة، وغير ذلك من المساعي الحميدة مما يعود بالنفع الخاص والعام".

والمادة الثانية: "تقبل الجمعية كل فرد ذكر بالغ مما تنطبق عليه أحكام المادتين الثالثة والرابعة، يحب الانخراط في سلكها بعد تحليفه يمين الإخلاص".

والمادة الثالثة: "يشترط في قبول الأعضاء أن يكونوا ملازمين لآداب العشرة والإخاء، محافظين على القيام بكل ما يزرع المحبة في قلوبهم، ويقوي روابط الألفة بينهم، مجانبين لضد ذلك، مجتهدين في نشر الفضائل بحسب الإمكان، ويجب عليهم أن يتحروا في مذاكراتهم وخطاباتهم كل خطاب يحرك دواعي الإحساس والشعور؛ لتنبيه الأفكار التي تحيي الأمة أمام كل ما يميت الحواس، ويحرج المواطن، ويوغر الصدور، ويؤلب الأعداء، ويثير كوامن الضغائن، ويوقظ الفتن ممنوع ممقوت فاعله".

أما ما تبقى من المواد فهي مواد إدارية تخص الإدارة الداخلية في الانتخاب والتسيير وغيرها.

والأهداف تعبر عن رؤية الجمعية في رفع الظلم، ومناصرة الحق، وإقامة المشاريع التنموية، إلى جانب الاهتمام بالإنسان، وتنميته في عقله وفكره ومشاعره، وكذا الاهتمام بالمجتمع وتنميته، والمحافظة على توازنه، وإبراز المشاريع والأهداف الوطنية الجامعة أمامه؛ ليكون فاعلاً فيها ومشاركًا بكل قدراته وأفكاره وطبقاته في إنجاحها، وإبعاد المجتمع عن الخطاب المحبط، الذي يقدم المجتمع لقمة للأعداء، ويوغر صدور المجتمع على بعضه، ويلغي توازنه وفاعليته، ويبعده عن المشاريع التنموية والوطنية الجامعة، ويبرز إلى سطحه المشاعر الهدامة،

التي تزيد من تقسيمه ومن انحرافه باتجاه أعدائه، وتدمير مجتمعه وغياب فكره، وانتمائه إلى وطنه وتدمير هويته.

والأهداف أيضاً تبرز شمولية نظرة الجمعية إلى المجتمع بأجمعه بكل طبقاته، وأن الهدف هو تحريك الجميع باتجاه التنوير والتنمية والتوازن، وتتيح لكل فرد من أي طبقة كان أن يشارك الجمعية رؤيتها وفكرها وعملها.

كما إن الأهداف تعبر عن وعي الجمعية باختلاف الأفكار في المجتمع وكذا التوجهات، وهي لا تلغي شيئًا من ذلك، بل تحاول أن تضع قواسم مشتركة بين الجميع، بوساطتها يترفعون عن النظرات الضيقة، والمشاريع الطبقية والطائفية، وبها يرفضون الخطاب المحبط الذي يميت الحواس ويوغر الصدور، فيلتقي الجميع على المصلحة العامة، التي تنبه وتبعث الفكر، وتحيي روح الأمة.

وقد قدمت الجمعية لتحقيق أهدافها كثيرًا من المشاريع التنموية والأفكار التنويرية، وأسست كثيرًا من المجالس، وفتحت المدارس، وحققت بذلك نهضة متوازنة في ظروف لم تكن مواتية، لمسها المجتمع بأجمعه بمختلف أفكاره وانتماءاته، بل حتى السلطة التي كان الشعب ناقماً عليها أيقنت بأهمية دور الجمعية، بل بضرورتها، وشعرت أنها أعادت توازنها مع المجتمع، دون أن يخسر أحد منهما حقه.

وأبينّ هنا باختصار جملة من أنشطة الجمعية التي أسهمت في إعادة توازن المجتمع ونهضته.

المبحث الأول:
الحرص على السلم الاجتماعي والتعايش السليم

رأت الجمعية المجتمع يعيش حالة من عدم الطمأنينة والاستقرار، سواء مع بعضه أو مع السلطة الحاكمة آنذاك، فالسلطة غير قادرة على الوفاء باحتياجاتها المالية لجيشها وموظفيها، والصراعات الداخلية والخارجية تستنزف خزانتها الفارغة، ولم يكن أمام السلطة هذه إلا التوجه باتجاه الشعب الفقير، فحضرموت والوادي منها معروفة بضعف مواردها، والشعب في غالبه يعتمد على التحويلات التي تأتي من الهند وإندونيسيا وسنغافورة وغيرها من المناطق، والتجارة والزراعة ضعيفة في المنطقة، والدولة لا بد أن تستمر، ولابد أن تفي بحاجات أفرادها، ولم يكن أمامها إلا فرض مزيد من الضرائب، ومتى لم تف بالمصروفات الرئيسة تترك العنان لعبيدها وجنودها يأخذون ما يحتاجون إليه بأسلوبهم الخاص من الناس. وهذه التصرفات من الدولة تزيد من الاحتقان الشعبي ضدها، وتزيد من تفكك المجتمع في مختلف طبقاته؛ لأن هذه التصرفات تفسد العلاقة مع الدولة، فيذهب كل فرد لاستخراج مصلحته من الدولة دون أن يأبه لغيره ممن لم يستطع ردع ظلم السلطة أو استخراج حقه منها، فتنعكس تلك التصرفات على العلاقات الاجتماعية المتوازنة بين الطبقات، وربما يلاقي هذا التفكك هوى لطبقة أو سلطة، فترى في ازدياده مصلحة لها فيزيد الطين بلة، ويزيد المجتمع بعداً عن الطمأنينة والتماسك، ويظهر في مجتمع تسوده الفردية وشهواتها كثير من العادات التي يرغب الفرد في إظهارها، ويراها تعبر عن تميُّزه وإبرازه، فيزيد عناء المجتمع أكثر، وتصبح جميع العادات الاجتماعية المتفق عليها اجتماعيًا عرضة للتغيير للأسوأ؛ تنفيذاً لرغبات الفرد وشهواته.

إنَّ مجتمع حضرموت قد وصل آنذاك إلى هذه الحالة، ولعل وضوحها كان أكثر في الوادي وفي تريم بشكل أخص، حتى أن حاشية السلطان تقوم بالتمردات والعودة إلى المجتمع لأخذ ما تحتاج إليه بالقوة. "فقد حصل مثل هذه التمرد والعصيان من حاشية السلطان وجنده في عدَّة فترات زمنية، منها سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م؛ حيث نتج عن تمرد الجند وأخذ المؤن من الرعية بالقوة خروج عدد من الأسر من مدينة تريم إلى الضواحي الجنوبية، واستمرت هذه الأزمة أشهراً"(٥)، و"في سنة ١٩٣٧م

اجتمعت الأسر التي لها حـــواصل من المهجر الحضرمي والأسر التي تمتهن مهنة الزراعة، وقـــررت الامتناع عن دفع ضريبة الدفاع"(٦).

والجمعية آنذاك ترقب ذلك كلَّه، وتجد أن الوقـوف ضد ذلك أمـر ضروري وعاجـل، وأن التواكـل أو النظـرات الفردية لا تعين على ذلك، كما إن التريث قـد يعدم الوقـت الذي لا زال قابـلاً للإصلاح، فقـــدَّمت في ذلك جهودًا مضنية، بل قدمت نموذجًا للمؤسسات الاجتماعية، التي ترغب بإصلاح المجتمع ونهضته.

ونبرز هنا أمثلة لجهدها:

دفع مرتبات الجيش ورفع الضرائب:

وقـد رأت جمعية الحق هذا كلَّه مما دفعها إلى التحـرك مع السلطان ومع المجتمع لحل هذه المشـكلة التي تؤرق الجميع، وتنذر بـانهيار المجتمع، والحق أنها قـــدمت نموذجًا رائعًا للمعارضة الفاعلة، التي تسـتطيع أن توازن بـــين إصلاح الدولة من الداخل وإجبـــارها على رفع الظلم والطغيان عن شعبها، مع الحفاظ عليها قوية قادرة على إدارة البـلد، وإلى جانب ذلك ســوق المجتمع إلى تنفيذ ما تطلبـــه منه دولته، وتعليمه كيف يبـــني مؤسســـات يحافظ بها على مصالحه واسـتخراج حقوقـه، إلى جانب دفاعه على دولته والتشـــــارك معها من أجل نهضة الجميع، والخروج من مأزق الفردية التي يعيشها، والتي لم تقدم له شيئًا من ذلك.

اسـتطاعت الجمعية بالتنسـيق مع السـلطة آنذاك تنظيم خزانة الدولة، والإعانة في إدارتها، وتوفير جزء من الموارد المالية التي تحتاج إليها، فمرتبات الحاشية التي كانت تثقل كاهل خزينة الدولة، أعانتها على الوفاء بها تجارُ المدينـة إلى جانب أسرة الكاف؛ فقد تحملت الجزء الأكبر منها.

أما ضريبة الدفاع فقد ألغتها الدولة بـعد تفاهمات جمعية الحق معها وإقناعها بـإلغائها، وضبـطت الجمعية في ذلك إيرادات سـدة تريم بـعد ضبـط إدارتها، وأصبحـت تلك الإيرادات كافية ومغنية للدولة من ضريبة الدفاع(٧).

الشائم والشارح:

وهي من التشريعات القبلية التي سارت عليها المجتمعات في حضرموت، والشايم تعني المقدار الذي يأخذه القبـيلي من ملاك النخيل وغيرها كرهًا، وغالبًا ما يكون العشر أو نصفه، والشراحـــة هي الحراســـة والســـلطة على المال في المنطقة المختصة بالقبيلة، وينتقي الشارح ما يريد من أجود أنواع التمر، وقد يزيد على المعتاد(٨)، هذا القانون ينضبـط بانضباط الدولة وقـوتها، فتمنع ظلم الشـائم والشـارح، لكنه مع ضعفها وتغليب الأهوية الفردية في المجتمع يزداد ظلم هذه العادة، وقـد وصل هذا الظلم إلى أن يصبـح هذا الأمر حـقًا للقبـائل يتوارثونه ويدافعون عنه، وأن يبـيع الشارح الأرض التي يشرحها أو يرهنها أو يؤجر ما يشـاء منها دون رغبة المالك، ويأخذ الشـارح ما يشـاء من الغلَّة بحسب أمزجتهم رغم أنف المالك، وقـد حـاول كثير من المصلحين ردع هذا الظلم ولكن دون جدوى، ومن هؤلاء المصلحين وزير الدولة القعيطية السيد حسين بـن حـامد المحضار عام ١٩١٨م وفي ١٩٣٨م، وقدَّمت الرعية شكوى إلى والي عدن ومحمياتها من الشـايم، فأرسـلت الحكومة البريطانية إنذارًا إلى كل القبائل وتوعدتهم بالعقاب(٩).

هـذا الظلـم ظـل يـؤرق المـلاك والمزارعـين في تلـك الأراضي؛ إذْ يأخذ الشـارح حـق الجميع كما يشـاء دون رادع، وقـد اسـتطاع الزعيم أبـو بـكر بـن شـيخ الكاف بـــجهوده ومن خلفه الدولتان الكثيرية والقـــعيطية إلى جانب رأي الشرع إلى توقيع معاهدة مع قبـائل آل تميم من أجل رفع الشائم، هذه أبرز نصوصها:

"أولاً: نقبل رفع الشائم حيث إنه حرام وعلى غير وجه شرعي.

ثانيًا: أن نسلم لملاك الأراضي أملاكهم ونستخدم عندهم بصفة شراح بموجب المرضاة التي تصير فيما بيننا وبـينهم وللمالك الحرية يعزل من شاء في المستقبل.

ثالثًا: أن نصلح ونسدد دعاوينا ومشكلاتنا الداخلية فيما بيننا بأنفسنا، وإذا لم نقدر نرفعها إلى المقدم العبد بن علي للحكم بالعدل والإنصاف.

رابعًا: أن نطيع المقدم المذكور إذا قام بالعدل والإنصاف، وإذا عمل بخلاف ذلك نرفع المسألة إلى سكرتارية لجنة أمان حضرموت.

خامسًا: إننا نتعهد ونلتزم بالقيام على الشروط المذكورة أعلاه، وإذا خالف أحدنا هذه الشروط فعلى كل فخيذة منا أن تقوم على المخالف، وإذا طلبت تلك الفخيذة المساعدة من أختها وجبت عليها مساعدتها.

سادسًا: أن لا يحدث منا إخلال بالأمان ولا تخريب للإصلاح ولا غير ذلك من الظلم وترويع الناس وتخويفهم"(١٠).

ومن ثم سلم الزعيم الكاف مسألة الشايم ومتابعة الاتفاق إلى جمعية الحق، وكونت الجمعية لجنة لمتابعة القضية من كل من السيد أبوبكر بن حسين الكاف، والسيد علوي بن أبي بكر الكاف، والسيد العلامة عمر بن علوي الكاف، وعبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله الكاف، والشيخ سلمان بن عبد الشيخ شامي، وحررت عقودًا مدَّتها عام بين المالك والشارح ألزمت به الجميع، وبيَّنت في نصوصه وظائف الشارح والتزاماته، وجعلت مادة في العقد يقر فيها الشارح أنه ليس له تقديم أو تأخير مما ذكر من المال في العقد لا كله ولا بعضه لا في الخريف ولا في غيره حتى الحطب والسعف والكرب، كما بينت في العقد قدر الأجرة والتزامات المالك، كما خاطبت المقدم العبد بن علي اليماني في هذا الموضوع وبينت في رسالتها ما آلت إليه الأمور مع آل تميم، وبلغوا فيها شكواهم من بعض أفراد القبائل الذين ظلوا يرعون دوابهم في مزارع الناس ويحطبون دون إذن الملاك(١١). وهكذا ظلت الجمعية تتابع تطبيق اتفاقية الشائم، وتراقب تطبيقها؛ حرصًا على المجتمع وتماسكه ورفع الظلم عنه، وإعادة التواصل السليم بين أفراد وجماعات المجتمع، ولم يستمر الأمر طويلاً حتى انتهت فكرة الشائم من عقل المجتمع الجمعي، وأصبحت منبوذة، وليس لأحد الحق في عودتها أو المطالبة بها، وأصبحت الفكرة من التاريخ الذي يستحى من ذكره(١٢).

العادات:

في ظل الاضطرابات الأمنية والاجتماعية وفساد السلطة تبرز الفردية والاعتزاز بالفرد، ويصبح الفرد هو محور المجتمع يلتف حوله ويصدر عن أمره وتكثر تلك الفرديات وتتنوع، فيختل نظام التوازن الاجتماعي، وتصبح الأهوية الفردية حرة تفعل ما تريد، وتحرك غالبها المصالح الشخصية والأفكار الضيقة القريبة، فيفسد كل شيء ومنها عادات المجتمع، فيفشل المجتمع حينئذ في إدارة عاداته، فالعادة هي نتاج مدة زمنية ليست بالهينة، ينتجها المجتمع بشكل كلي دون وعي بتطور مراحلها، فهو لا يلبث أن يرى عادات قد برزت وإذا به يتمسك بها ويراها ضمن هويته وتاريخه، ويحاول دائماً التمسك بها والحفاظ عليها، ويجد في المساس بها خطورة عليه.

تغيرت عادات المجتمع في ذلك الزمان، وظهرت عادات في الزواج وفي الوفاة حتى في المحافل الدينية والاجتماعية أثقلت كاهل المجتمع، ولم تراع ما عليه المجتمع من ظروف قاسية، فالإنتاج لها كان في زمان تسلط الفرد، وعد كثير من الأفراد مثل تلك العوائد ضرورة، بها يقدم لنفسه قيمة اجتماعية، ويبرز نفسه وجاهه، ويجد فيها حلاوة الرفعة في المجتمع، وزادت تلك العادات سوءًا مع ازدياد ظروف المجتمع قساوة، خاصة مع الحرب العالمية لما انقطعت كثير من التحويلات النقدية إلى حضرموت.

وقفت جمعية الحق أمام هذا التغيير في العادات الذي أصبح يعصف بالمجتمع، ويقلق سكينة الناس البسطاء، ويثقل كاهل الجميع خاصة الشباب، فأصدرت عدداً من اللوائح والأنظمة التي تنظم عادات الزواج والوفاة، وكذا

الاحتفالات الدينية والاجتماعية، وكانت دائماً ما تنظر إلى تلك اللوائح مع تطور الظروف ويتم تعديلها، وهناك عدد من لوائح (التبطول) في وثائق جمعية الحق، يؤكد أثر جمعية الحق في الحفاظ على توازن المجتمع في عاداته، ومنع عبث الأفراد بها وفق مصالحهم ونظراتهم الشخصية، فقدموا بذلك الجهد خدمة للمجتمع التريمي، وزادوا من توازنه وتماسكه فهناك لائحة لعام ١٩١٥م ولائحة لعام١٩٣٢م، ولائحة لعام ١٩٣٩م، ولائحة لعام ١٩٤٢م، وظلت الجمعية تراقب تنفيذ لوائحها في المجتمع، وترسل الرسائل لكل من عنده زواج أو وختان أو قدوم من سفر لتذكرهم باللوائح وضرورة الالتزام بها، حتى بلغ بها أن ترسل لقيادات الجمعية وغيرهم من قيادات المجتمع لتذكرهم باللوائح وتنتقد من خالفها(١٣).

وقد بلغت الجمعية في هذا شأنًا، وأصبحت أوامرها ولوائحها تعتد بها الدولة، بل لا تستطيع الدولة سَنَّ أمر دون الرجوع إلى الجمعية، وأذكر هنا رسالة رد من الجمعية على السلاطين تؤكد ذلك.

نص الرسالة:

"من تريم الى سيؤن ١ شعبان سنة ١٣٥٦ هـ

الحمد لله وحده، جناب المكرمين المحترمين السلاطين الفخام علي بن منصور ومحمد بن محسن آل غالب بن محسن، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الموجب خطابكم الكريم المحرر ٤ رجب، بشان إبطال بعض ألوان الحلي حسب ما شرحتموه في خطابكم المذكور، وإننا قد عرضنا هذا الأمر على رجال جمعية الحق، ورأوا أنه يحتاج إلى فكر ونظر، ولابد أن رجال الجمعية أوعدوا بعقد اجتماع آخر لهذا الشأن للبت فيما إذا كان يتأتى تقييد النساء بجميع أنواع الحلي المذكورة، وفيما إذا كان الأمر لا يؤديهن إلى جلب مجوهرات ثمينة باهضة، ويبقى الناس في تكلف أشد من أنواع حلي الذهب، فلهذا لابد من تدقيق الفكر قبل ذلك، ودمتم في انعام وسلام.

نائب مدير جمعية الحق: علوي بن أبي بكر الكاف"(١٤).

المبحث الثاني:
سن القوانين وتأسيس المجالس

درجت الجمعية في نظرتها الإصلاحية إلى النظرة الشمولية، وإلى النتائج البعيدة لمشروعها، وإلى النظرة العادلة المتساوية لكل أفراد المجتمع سلطة وطوائف وطبقات، ولذلك فهي لا تشغل نفسها وفكرها كثيراً في حلول المشكلات الفردية العابرة، بل هي دائماً ما تفكر في بناء مجتمع نموذجي، تسوده علاقة الود والمحبة والفاعلية بين طبقاته وبين السلطة، مشغول بالمشروع النهضوي الجامع، يستوعب هذا المشروع كل الطاقات والأفكار من السلطة ومن الأفراد بمختلف انتماءاتهم، ولهذا فهي دائماً ما تفكر في تربية المجتمع على النظام، وتدرك أن معرفة أفراد المجتمع وكذا السلطة للحقوق والواجبات هو المأمن الوحيد للمجتمع من الانهيار، وهو المأمن أيضًا للمشروع النهضوي التنموي الذي يرغب في التفكير فيه وفي إنجازه، ولا هناك مناص من ذلك إلا بتأسيس المؤسسات وسن القوانين، فالمؤسسة أقدر على التفكير وعلى الإدارة من الفرد، والقوانين هي الجامع للجميع في معرفة الحقوق والواجبات، وهذا الأمر مريح للسلطة وللمجتمع، بل يزيد من تماسك المجتمع ويرشده لمبتغاه من النهضة والبعد عن الحروب والصراعات، ويجعل الجميع ينتج أفكاراً ومشاريع تتراكم، ترفع قيمة التنمية، ويستفيد الجميع منها، ولا يجد الجميع وقتا للضياع أو للتفكير السلبي لا الدولة ولا الأفراد، بل سيتنافس المجتمع بطبقاته وسلطته في الإنتاج الإيجابي وفي الفاعلية باتجاه التنمية، وسيكون ذلك النفع هو البرنامج الذي سيتنافس فيه الأفراد والطبقات، وسيكون هو عنوان السيادة للأفراد وللجماعات، ولذلك اهتمت الجمعية في مشروعها

النهضوي بإنشاء المجالس، وسن اللوائح والقوانين، للسير في طريق المجتمع الذي يقوم على المؤسسات.

استطاعت الجمعية بهذا التفكير وبما أنجزت من مشاريع إصلاحية أن تقنع حتى الدولة بضرورة الإصلاح، ولذلك لم تجد الدولة حرجًا في أن تشرك الجمعية في إدارة البلد؛ ففي ١٩٧١م تمت مفاوضات بين الجمعية والسلطان محسن بن غالب بغية وضع حد لمسألة الضرائب المفروضة على الرعية، والسعي في ترتيب مالية المدينة، انتهى التفاوض إلى عقد اتفاق بين الجمعية والسلطان، كانت أهم بنوده الآتي:

- تقوم الجمعية بنفقات الحاشية وسائر حاجياتهم التي لهم على مولاهم السلطان محسن.
- تدفع الجمعية للسلطان محسن سنويًا قدرًا معلومًا من الريالات الفرنساوية بصفة دفعة على ما اعتاد دفعه سنويًا من سكان تريم، على أن يكون النصف على عائلة السيد شيخ الكاف خاصة، والنصف الآخر موزعًا على الدافعين بالقسط.
- ليس للسلطان تدخل في شؤون البلدة سواءً الاقتصادية أم غيرها، ما دامت الجمعية قائمة بتعهداتها.
- توزيع الضرائب السنوية (الدفعة) وأخذ المعشرات من الجمعية وحدها.
- الشؤون الحربية يقوم بها السلطان والجمعية.
- على السلطان تنفيذ ما استعصى على الجمعية تنفيذه.

وأضافت الجمعية بنودًا عدةً، منها:

- ألا يوليِّ السلطان على أهل تريم أحدًا إلا بعد أخذ رأي الجمعية التي هي لسان حال أهل تريم، فإذا ارتضت به الجمعية ولاه عليهم.
- كل ما تقرره الجمعية من الأمور المتعلقة بالإصلاح من حيث الدين والدنيا، فعلى السلطان تنفيذه بأسرع وقت.
- متى ما ضبطت الجمعية واردات البلاد ومصروفاتها فللسلطان الحق أن يطلع على ذلك متى ما أراد، أو من ينوب عنه(١٥).

فأسست الجمعية عدت مجالس منها:

- **مجلس القضاء الشرعي بتريم:** تأسس عام ١٩٣٧م، وكان همه إصلاح القضاء؛ لما للقضاء من أهمية في إقامة العدل والدفاع عن حقوق الناس.
- **الهيئة القضائية:** تأسست عام ١٩٣٨م، وهي مكوَّنة من العلامة الشيخ عبدالرحيم بن عبدالله الخطيب، والعلامة الشيخ حسن بن محمد عرفان بارجاء، والعلامة سالم سعيد بكير باغيثان، وتعد الهيئة أعلى من المجلس القضائي، وهي بمثابة المحكمة العليا في الاستئناف(١٦).
- **المجلس الاقتصادي الوطني:** تأسس عام ١٩٣٢م، وظيفته مدافعة الأزمة الاقتصادية التي تعصف بالمدينة ومعالجتها، ويتكون المجلس من بضعة عشر شخصًا، انتُخِب الزعيم أبوبكر بن شيخ الكاف رئيسًا له(١٧).
- **مجلس الحكم العرفي:** للفصل بين القبائل والناس على وفق الأعراف المتبعة(١٨).
- **لجنة التموين البلدي:** ووظيفتها إدارة الأزمات التموينية التي قد تحصل بسبب الحروب، وإيجاد البدائل من تنشيط الزراعة وغيرها، وقد تأسست اللجنة بعضوية السلطان عبدالله بن محسن الكثيري، والزعيم أبي بكر بن شيخ الكاف، وتأسس في هذا بلدية لمدينة تريم تهتم بتنظيف الشوارع وإزالة ما يعرقل السير ومخلفات البناء والاهتمام بالمظهر العام للمدينة(١٩).
- **لجنة المظالم المالية:** ووظيفتها الفصل في المظالم المالية المقدمة إليها، وكان يرأسها السيد عبدالله بن حسن بلفقيه(٢٠).

وهناك قوانين ولوائح عدة أصدرتها الجمعية بغية تنظيم المجتمع وتعريفه بحقوقه وواجباته، وتعليمه العمل المؤسسي، وتبيين أثره على النهضة وعلى تماسك المجتمع، منها:

قانون المجلس القضائي: ويتكون من ثلاث عشرة مادة يبين مهمة المجلس وإدارته وعلاقاته وما يتعلق به.

قانون المجلس الاقتصادي: ويتكون من تسع وستين مادة، تنظم اقتصاد البلد بما فيها الأجور ومراقبة السلع والأسعار، وألحق به قانون للسوق ويتكون من أربع مواد، وذلك لتنظيم شراء الحاجات للناس عند دخول البضائع إلى المدينة قبل أن يحتكرها تجار الجملة(٢١).

قانون الحكم العرفي: ويتكون من ثلاث عشرة مادة ترتب هذه المواد المجلس وحدود تصرفاته وأحكامه.

قانون التموين البلدي: ويتكون من خمس مواد، وللمادة الثالثة تسعة فروع، وفيها ترتيب للزراعة والأجور والتسعير وتوفير الكفاية من الأقوات وغيرها.

لوائح كثيرة لتنظيم العادات الاجتماعية الأفراح والأتراح، ذكرت أعوام تأسيسها في المبحث الأول.

هذه المجالس وهذه اللوائح كان لها الأثر البالغ في تنظيم المجتمع وترتيبه وتعريفه بالحقوق والواجبات، وانتقاله من المجتمع الذي يقوم محوره على الفرد، إلى المجتمع الذي يقوم على المؤسسات والقانون، ويستطيع أن يبني بها علاقاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بشيء من التوازن، الذي يمنع طغيان الفرد أو القبيلة أو الطبقة على غيرهم، بل قدمت هذه القوانين والمؤسسات تجربة للسلطة والمجتمع بكل فئاته، فقد انتظمت العلاقة بينهما وأصبح الجميع يسير في خدمة الآخر بغرض بناء المصالح للجميع ونهضة الجميع دون إفراط أو تفريط، ودون استعانة بالقوة لإجبار الآخر على تنفيذ الرغبات والمصالح الخاصة، فانتظم المجتمع واطمأن الجميع.

المبحث الثالث
الصحة والتعليم

لينتظم المجتمع ويعيش سليماً في صحته الجسدية والعقلية فقد اهتمت الجمعية بذلك.

الصحة:

لم يكن آنذاك في البلد مستشفيات تهتم بالمرضى ومعالجتهم، وتوفر لهم ما يحتاجون إليه من الأدوية والرعاية؛ فالمجتمع يعتمد على خبرته الشعبية التي توارثها المجتمع في العلاج، والأعشاب هي محور أدويته وأول طبيب جلب إلى المدينة كان من تفكير جمعية الحق، حيث استقدم إلى مدينة تريم الطبيب الهندي جلال الدين احمد عام ١٩١٥م على نفقة السيد عبدالرحمن بن شيخ الكاف، وكان عمل الطبيب تحت إشراف جمعية الحق وكانت تصرف الأدوية للمرضى مجانًا(٢٢).

التعليم:

اعتنت الجمعية بالتعليم منذ تأسيسها ويمكن حصر جوانب التعليم في الجمعية في الآتي:

- نشر الدعوة إلى الله:

وهمٌّ هذا هو توعية المجتمع بشكل عام وتعريفه بالدين الإسلامي وتعاليمه، وما يجب على المسلم ذكراً وأنثى من فعل ونهي، وعلاقته مع بعضه، وكان هم الجمعية في ذلك وحدة المجتمع وتماسكه والتزامه بالدين الإسلامي الذي يرفع من شأن إنسانية الإنسان، ويبعده عن كل الخصائص السيئة، وقد وضعت الجمعية مادة في قانونها تبين أثر الجمعية وأفرادها في الدعوة إلى الله، ونشر كل ما يعين على التماسك والتوازن الاجتماعي، وكل ما يعين المجتمع على النهضة، ويبعد عنه كل ما يؤدي إلى الإحباط والانكفاء على الذات، ليعيش المجتمع بكل فاعلية يرغب في النهضة ويسقط كل العراقيل التي تقف أمامه.

ولم يكن هذا الاهتمام بالرجال فحسب، بل كان عاماً في كل فئات المجتمع، فقد كلفت الجمعية العلامة السيد الحسن بن عبد الله الكاف بالبحث عن أسهل تعليم للنساء وأجدى نفعًا في مدينة تريم، كما قررت في اجتماعها الرابع بعد التأسيس ١٩١٥م السيد عبدالقادر بن محيي

الدين، والسيد محمد عبدالمولى، والسيد عيدروس بن شهاب، والسيد عبد الرحمن بن شيخ، بالبحث عن مدرس عالم يقوم بنشر الدعوة بين العوام، وقد تكفل أجرة ذلك السيد عبدالرحمن بن شيخ الكاف(٢٣).

- بناء المدارس:

أسست الجمعية مدرسة نظامية سمّتْها مدرسة جمعية الحق عام ١٩١٥م، كانت أشبه في أنظمتها بمدارس هذا العصر؛ فهناك مناهج تم الاتفاق عليها، وهناك أساتذة يلتزمون بالتدريس في الأوقات المخصصة لذلك، وهناك مبنى وهناك إدارة وهناك لوائح للطلاب وللإدارة وللأساتذة تبين كل صغيرة وكبيرة في المدرسة، والنظام، والدوام، ولائحة للاختبارات، والامتحانات، وللقبول، وللرسوم التي يدفعها الطالب (ريال ونصف سنوياً) مقابل ما تقدمه المدرسة له من الكراريس والأقلام والمحابر وغيرها من الأدوات التي يحتاج إليها الطالب في المدرسة، والمرتبات، إلى جانب المفتشين الذين يراقبون سير التعليم وقدرات الأساتذة العلمية والتعليمية، وهي شبيهة اليوم بإدارات التوجيه المدرسي.

وتقدم المدرسة ثلاثة أنواع من التعليم، وهي أشبه بمراحل التعليم الأساسي اليوم، فالمرحلة الأولى: تعليم الخط والحروف والكلمات وكيفية ربطها، والمرحلة الثانية: تعليم مهمات الدين وضرورياته، والمرحلة الثالثة: تحسين الخط وجملة من الحساب والسير.

تم افتتاح المدرسة يوم الاثنين ١٩١٦م، وتم تطوير التعليم في المدرسة بعد تولي نظارتها السيد العلامة محمد بن هاشم، فقد أضاف فنونًا جديدة، منها التوحيد، والجغرافيا، والتاريخ، والميقات، والمطالعة العربية، والفلك وغيرها(٢٤).

وقد وجه الأستاذ ابن هاشم رسالة إلى الشيخ مصطفى البابي الحلبي يطلب كتبًا للمدرسة، وهي سفينة النجا، ومتن أبي شجاع، وعمدة السالك، ومتن المنهاج، ومتن الزبد، وألفية ابن مالك، وحاشية السجاعي على القطر، وملحة الإعراب(٢٥).

وكان من أوائل المدرسين في الجمعية السيد محمد عبد المولى بن طاهر، والسيد علوي بن أبي بكر الخرد، والشيخ محمد بن عوض بافضل(٢٦).

وأبرز من تخرج في المدرسة:

- العلامة السيد محمد بن احمد الشاطري (ت١٤٢٢هـ).
- العلامة السيد محمد بن سالم السري (ت١٣٦٩هـ).
- العلامة الشيخ سالم سعيد بكير (ت١٣٨٦هـ).
- العلامة القاضي مبارك عمير باحريش (ت١٣٦٧هـ)
- العلامة السيد أحمد بن زين بلفقيه (ت١٤١٤هـ).
- الأديب عمر (حداد) بن حسن الكاف (١٣٨٩هـ).
- العلامة عمر بن علوي الكاف (١٤١٢هـ)
- العلامة الشيخ عمر بن عبد الله الخطيب.
- العلامة الشيخ توفيق أمان (١٣٩٩هـ).
- العلامة الشيخ عبد القوي الدويلة.
- العلامة الشيخ أحمد بن أبي بكر بافضل (ت١٤٠٠هـ).

وغيرهم كثير، وقد استفاد من المدرسة طبقات المجتمع كافة، وأسهمت المدرسة في تغيير النظرة إلى التعليم وأهميته في النهضة، كما نحت بالتعليم إلى التنظيم بدلاً من التعليم في الكتاتيب والحلقات المعتادة، وهي بهذا تقدم نظرة جديدة للتعليم في المجتمع، أسهم هذا في افتتاح مدارس بعد ذلك من مثل مدرسة الكاف، وأصبح المجتمع بعد ذلك يذهب نحو التعليم المنتظم، لما رأوا من انجازاته والتزامه بالوقت والسن المحدد.

الخاتمة والنتائج:

في ختام هذه الورقات يمكن إبراز جملة من النتائج، أهمها:

١) مثلت جمعية الحق مؤسسة المجتمع المدني الناجحة والفاعلة أصدق تمثيل، في رؤيتها الشمولية للمجتمع بجميع طبقاته وفئاته، وفي رؤيتها الفكرية في النهضة والإصلاح.

٢) قدمت الجمعية نموذجًا يستحق الدراسة والتحليل للمعارضة السياسية؛ إذ استطاعت أن توائم بين المجتمع والسلطة، وأن تجبر الدولة على أداء وظيفتها التي ارتضاها منها المجتمع، وكف جماح ظلمها وظلم مؤسساتها، مع الحفاظ عليها وعلى مؤسساتها؛ لتكون دولة قوية ينظر إليها المجتمع بهيبة، إدراكًا منها أن إسقاط الدولة في نظر المجتمع يعني الخراب الاجتماعي، وتعميق قوتها أيضًا دون رادع اجتماعي يعني التدمير.

٣) غيرت الجمعية مفهوم الإدارة في المجتمع والسلطة، وبينت للمجتمع والسلطة مخاطر الفرد وتسلطه في الدولة وفي المجتمع، ولذلك حاولت أن تغير فكرة الفردية إلى فكرة المؤسسة، التي تعتمد على اللوائح والأنظمة، فأسست لذلك جملة من المؤسسات، وسنَّتْ كثيراً من الأنظمة واللوائح.

٤) أسهمت الجمعية في توازن المجتمع والسلطة، وفي نشر الطمأنينة والعدل بين فئات المجتمع كلها، وقدمت نفسها للمجتمع مشروعًا نهضويًا، وقد أدرك المجتمع ذلك كما أدركت الدولة، ولذلك كانت محور حل مشكلات السلطة والمجتمع أجمع.

٥) قدمت الجمعية في التعليم نموذجًا جديداً لما عليه التعليم الأهلي آنذاك، ونحت به نحو التنظيم، وطورت في مناهجه لتناسب العلوم والواقع آنذاك، وجعلت التعليم المنظم متاحًا لجميع المجتمع بكل فئاته وطبقاته.

---

* أستاذ النحو والصرف - بكلية الشريعة جامعة الأحقاف.

الهوامش:

١) الدور الكافي ص١٠٣ والحياة العلمية في تريم في القرن الرابع عشر الهجري ص٢٠- ٢١.

٢) جمعية الحق بحضرموت ص٢١.

٣) أدوار التاريخ الحضرمي ٤٠١ وما تلاها.

٤) نفسه ص١٤.

٥) جمعية الحق بحضرموت ص١٤.

٦) جمعية الحق ص١٣٣.

٧) جمعية الحق ص١٣٣- ١٣٤.

٨) أدوار التاريخ الحضرمي ص٣٤٢.

٩) انجرامز سلطان حضرموت غير المتوج ص١١١- ١١٢، وجمعية الحق ص١١٣.

١٠) الزعيم أبوبكر بن شيخ الكاف ص٢٥١- ٢٥٢.

١١) جمعية الحق ص١٢٢.

١٢) الزعيم أبوبكر بن شيخ ص٢٥٣.

١٣) جمعية الحق ص٦٩- ٩١.

١٤) جمعية الحق ص٩٠.

١٥) جمعية الحق ص١٠٥-١٠٧.

١٦) الزعيم أبوبكر بن شيخ ص٤٩٤، وجمعية الحق ص٥٥-٥٧.

١٧) جمعية الحق ص١٣٥.

١٨) جمعية الحق ص٦٥.

١٩) الدور الكافي ص١٢٥، وجمعية الحق ص١٤٦.

٢٠) جمعية الحق ص١٥٣.

٢١) نفسه ص١٣٥-١٣٦.

٢٢) جمعية الحق ص٩٥.

٢٣) جمعية الحق ص٩٤.

٢٤) جمعية الحق ١٦١- ١٧٠

٢٥) مجلة الإخاء العدد (١١) يناير ١٩٣٩ مص٣- ٤.

٢٦) جمعية الحق ص١٦٢.

المراجع:

- القرآن الكريم.
- الحياة العلمية في تريم في القرن الرابع عشر الهجري المؤسسات التعليمية والعلمية ونظامها التعليمي، تأليف: أ.د/ محمد يسلم عبد النور.
- أدوار التاريخ الحضرمي، تأليف محمد بن أحمد الشاطري، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، نشر عالم المعرفة جدة.
- الدور الكافي المسمى تاريخ الثروة الكافية ورجالها، تأليف العلامة المؤرخ محمد بن هاشم العلوي، اعتنى به علي أنيس الكاف، الطبعة الأولى، تريم للدراسات والنشر ٢٠٠٩م.
- الزعيم أبوبكر بن شيخ الكاف صانع السلام وباني النهضة الاقتصادية والاجتماعية في حضرموت، تأليف جعفر محمد السقاف، وعلي أنيس الكاف، الطبعة الثالثة ٢٠٢١م، الكاف للدراسات والنشر وتريم للدراسات والنشر.
- انجرامس سلطان حضرموت غير المتوج، تأليف د/ صادق عمر مكنون، الطبعة الأولى ٢٠١٨م، تريم للدراسات والنشر.
- جمعية الحق بحضرموت ودورها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وثائق وحقائق، تأليف السيد علي أنيس الكاف، الطبعة الأولى ٢٠١٦م، مركز الكاف للدراسات والنشر، وتريم للدراسات والنشر.
- مجلة الإخاء، صدرت بتريم.

103
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

المجالس القروية ودورها الاجتماعي في حضرموت

في القرن العشرين الميلادي

تعرضت حضرموت خلال قرون لغزوات وحروب وهجرات وهجرات عكسية، وتكونت دول وكيانات وتجمعات خضعت لسنة التغيير والتداول والانحسار، وظهرت تحالفات وعلاقات ترسخت فيها أعراف وقوانين وعادات تنظم حياة المجتمع في المدن والأرياف والبادية، وبسيادة النظام الطبقي تكوَّن الهرم المجتمعي وفقًا والأنساب والقوة (ويتغلغل هذا التقسيم في كل مظاهر الحياة الاجتماعية)(١)، وفي ظل غياب سلطة مركزية استدعت الحاجة إلى الاحتكام إلى تلك الأعراف وتوافق الناس على الاحتكام إليها، وتعددت وتنوعت، وأصبحت (سلطة الأمر الواقع).

وفي الشريعة الإسلامية تفصيل لحقوق كل مسلم وواجباته، كما أن الدولة ومؤسساتها وتشريعاتها الضامن لكل الناس؛ إذ تصان الحقوق وتحقق العدالة، ويلجأ المتخاصمون لأجهزتها القضائية والأمنية، وفي حال عدم وجودها أو ضعف مؤسساتها تكون الأعراف وأوعيتها ملاذًا للبحث عن سلطة للتحاكم إليها، وإيجاد نوع من التماسك الاجتماعي.



صالح مبارك عصبان*

والحديث عن هذه الأوعية ينطلق من كونها وسائل أو أدوات تتناسب مع العصر الذي ظهرت فيه، وتحكمها ظروف ذلك الزمان، بما فيه من أوضاع سياسية واجتماعية، وجهل وتخلف، وقامت بدورها بناء على تلك الأوضاع.

في تحليلها لمفهوم (الهوية الحضرمية) قدمت د. ليندا بوكسبيرجر وصفًا للتفاعلات داخل الطبقة الواحدة وعلاقتها بالطبقات الأخرى، والأدوار التي تقوم بها كل طبقة في المجتمع، ويدل هذا التوصيف على أن نشوء المكونات الاجتماعية يرجع ضمن مؤثرات أخرى إلى توريث العمل فيها، كالحفاظ على الوجاهة الاجتماعية، والألقاب، والتصدر للوظائف، وحتى مع تغير المكان والعادات استمرت هذه الطريقة تفعل فعلها مع تعديلات طفيفة في الطرق والوسائل(٢).

وهذه محاولة للتعرف على نوع من أنواع المكونات الاجتماعية في حضرموت ألا وهي (المجالس القروية)، وتختلف عن غيرها من التكوينات الأخرى في أنها جاءت متأخرة، وذلك في أوائل خمسينيات القرن العشرين الميلادي، أي في بدايات تشكل الدولة المعاصرة في حضرموت.

المكونات الاجتماعية التي سبقت المجالس القروية:

تمر المجتمعات بمراحل تاريخية في مسارها السياسي والاجتماعي، وتنتابها عوامل الضعف والقوة، ويحتاج الناس إلى سلطة تنظم شؤون حياتهم وتدير أمورهم، وبظهور ملامح الدولة تتضاءل مظاهر الاعتماد في الشؤون

العامة على الدوائر الضيقة المنحصرة في الأسرة أو القبيلة أو الجغرافيا، وتتوسع المشاركة المجتمعية في بناء الوطن وفقًا وهوية واحدة تجمعها، وتتحرر الشخصية من الانغلاق والتقوقع، وقبل محاولات التحديث في حضرموت (عاشت عزلة ثقافية حجبتها عن الاتصال أو التأثر بالحركات الإصلاحية والثقافية التي كانت مع الجهالة المتفشية، وكانت تتحكم فيها الأفكار القديمة والتقاليد البالية، الأمر الذي أشاع فيها روح اليأس والخنوع والاستسلام لمعتقدات ما أنزل الله بها من سلطان)(٣).

وتظهر تدخلات مكونات المجتمع في سياق تاريخي يرتبط بما قبل ظهور سلطة مركزية قوية، وحتى بعد تمدد السلطنتين القعيطية والكثيرية، وإجراءات البسط على الأراضي بالشراء أو المعاهدات، وحضور أدواتها الجديدة في الحكم، حافظت تلك المكونات الاجتماعية على وضعها، ودخلت بشكل أو بآخر في تحدٍّ مع السلطات الوافدة على محيطها الجغرافي والاجتماعي، ويمكن الاستئناس في هذا الأمر بحركات التمرد وإقلاق الأمن ومقاومة التطوير، كبناء المدارس، وفتح الطرق، غير أنها حاولت في وقت لاحق - كما سيأتي - التعاطي مع تطورات العصر؛ لتكون في قيادة الأوعية المدنية الجديدة، التي قلصت وظيفة القوى التقليدية، المتكئة على ما يسمى (بالشعور الجماعي) حسب نظرية ابن خلدون (العصبية)، فالفئة التي تقوى فيها (العصبية) تفرض نفوذها على الآخرين(٤).

ظهرت (المنصبة) في القرن العاشر الهجري، ((والمناصب جمع منصب وهو المرجع في الأمور الهامة والمشاكل الاجتماعية كما يطلق في اللغة العربية على هذا، وعلى المقام وعلى الوجاهة والشرف والحسب))(٥)، وتمثل المنصبة أداة روحية سياسية، تمارس وظائف الفصل بين المتنازعين ومعاقبة المخطئين، واستقبال الضيوف، والإشراف والتصرف في أراضي الأوقاف، وتعد رمزًا للمنطقة عبر (دار المقام)، التي تقام أمامها احتفالات المواطنين في الأعياد، وألعابهم الشعبية، وتنطلق منه (الطيالة) للمنصب في الأعياد والمناسبات، مع (أخدام السقاف) والرايات، وللمنصبة دور في الإصلاح بين القبائل المتناحرة، وإغاثة الملهوفين والتوفيق بين الحكام، كما حصل من قبل منصب آل الشيخ أبي بكر بن سالم في الصلح بين السلطانين عيسى بن بدر وعمر بن جعفر الكثيريين وغيرهما، ومن صور العقاب التي تفرضها المنصبة: الحبس والضرب والتهجير والتحريج، ولتأكيد حضور المنصبة روحيًّا يتم الحلف أمام أماكن رمزية، كالأضرحة والقباب، وعبر الأستاذ محمد بن هاشم عن هذا الدور بقوله: (عينات ملجأ السلاطين) في كتابه (تاريخ الدولة الكثيرية)، مما يدل على نفوذهم وقوتهم، ويتوارث الأبناء والأحفاد (المنصبة)، ويحصل أن يتولاها من لا دراية له ولا خبرة ولا علم، ووجَّه الفقيه عبدالله بن علوي الحداد نقدًا لهؤلاء بقوله: ((إنهم اتكلوا على وجاهة آبائهم بدون أن يتزوَّدوا من العلم والاستقامة كما تزود آباؤهم))(٦).

وبالرغم من الهالة التي تحيط بالمناصب فإنها لم تسلم من المصادمات مع ذوي القوة والنفوذ؛ ففي القرن الثالث عشر الهجري حصلت مناوشات بين منصب آل الشيخ أبي بكر بعينات والسلطان جعفر بن عمر الكثيري، وأخرى بين المنصب ذاته والمقدم عبدالله بن أحمد بن يماني، وحين تأسست جمعية الحق بتريم وقف منصب آل العيدروس موقفًا عدائيا منها، وكان هذا الموقف أحد أسباب الحرب التي دارت بين المنصب وسلطان تريم عام ١٣٤٥هـ.

ويرتبط بالمناصب ما يسمى (بالحوط)، (جمع حوطة، وهي الموضع الذي يختطه المنصب أو أحد المعتقدين، ويحوطه ويعلن بأنه أصبح حرمًا آمنًا على الدوام، لا يمكن فيه قتل ولا قتال، ولا نهب ولا ظلم)(٧)، ويمارس المنصب تصرفاته التي سبقت الإشارة إليها في حوطته، ويصبح المواطنون رعاياه، تسري عليهم سطوته وأحكامه، وربما بالغ في منع أشياء عنهم؛ حفاظًا - بزعمه - على قدسية

حوطته، وعدم مسِّها بما يدنس مكانتها، ومن ذلك منع أنواع من الألعاب الشعبية، أو استحداث عادات في معيشتهم وحياتهم وأفراحهم. وانتشرت في القرون الماضية في حضرموت (الحوط)، وتختلف أهميتها ومكانتها و(قدسيتها) وسطوة مناصبها حسب النسب والقوَّة، وما يتمتعون به من صفات في التعامل مع الأحداث بمهادنة المعارضين والرفق بالرعايا.

والحوطة وحدة إدارية سياسية في مجتمع مغلق، ورمز روحي، والجمع بين هذين الأمرين جعلها تتحكم في حياة من يسكنها أو يعيش في ضواحيها، يقول المؤرخ محمد بن هاشم عن حوطة عينات: ((وعينات حوطة الشيخ أبي بكر بن سالم العلوي أصبحت كعبة مقصودة للمفاوضات السياسية... فكثر الواردون والصادرون إلى عينات من جميع الطبقات إما للاستشارة أو الاستغاثة))(٨).

وللدكتور عبدالعزيز بن عقيل بحث بعنوان (حوطة في طور التأسيس)، وهو عبارة عن قراءة تحليلية لمخطوطة (المقصد في زبارة المشهد)، وللتعرف على نشأة الحوط ودلالاتها، يقول: ((إن هناك خيطًا عامًا، يلملم جميع الفكرة المتناثرة في المخطوطة لخدمة غرض وظيفي، فلقد وظفت جميع الرؤى والأحلام والمشاهدات، والكرامات والأشعار، وحكايات النهب والسلب، التي كانت تمارسها بعض المجموعات قبل وبعد إنشاء الحوطة، وخصائص المكان وسبب اختيار المنشآت التي بنيت في المشهد والعادية القديمة (ريبون)، ووصفها ووصف أول زيارة أقيمت، أقول، جميع هذه وظفت لإعطاء المشهد مكانته القدسية للقيام بدور الحرم التجاري الديني الآمن في المنطقة التي تشكل مخارج وادي دوعن والعين وعمد والكسر أي حضرموت الغربية))(٩). ومع هذا لم تمنع هذه المنزلة حالات الحروب والسلب والنهب.

ووجدت (القعيدة) أو (شرع القبولة) حسب تعبير الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري، الذي حدد فيه الدور القبلي بحضرموت بين الأعوام (١١٣٠ - ١٢٧٠هـ)، وجاءت عبر قرون من الكر والفر بين القوى المتطاحنة، التي تكبر وتصغر حسب مصادر القوة والتحالفات والأثر الخارجي، ((ولم تستطع أية قوة من تلكم القوى المتطاحنة أن تتغلب على نظيرتها في ذلك الجيل العصيب، ومن أجل هذا التكافؤ الرائع ظلت البلاد وأهلها عرضة للسلب والنهب والقتل والخوف والفقر والجوع وغير ذلك من الويلات التي تتولد عادة من الفتن والحروب))(١٠) والنفوذ والبقاء إيجاد نوع من استمرارية التعايش ومعاقبة الخارجين عن الأعراف، وضعت أسس يتم الاحتكام إليها واستندت إلى (أحكام ملفقة) وعادات سارية، وعهود قديمة، وظهرت منها إصطلاحات، مثل (الطارف غريم)، و(الشايم)، و(الدماء المهدورة)، و(البشعة)، و(اللوم والشوم)، و(المبدأ بالوجه)، و(البادي والتعاشير)، و(العربون)، و(الوثور)، ((والكلام يطول حول هذه التقاليد والتشريعات التي يرجع الكثير منها إلى القرون السالفة، ومنها ما هو من رواسب العصر الجاهلي ومعظمها مسجل في مضامين وفي تآليف بلغني بالتواتر عن ثقات شيوخ القبائل))(١١). ويوجد على رأس تلك المكونات من امتلك خبرة وتجربة وحكمة ويستعين في بعض القضايا بأهل العلم الذين يسعون للتخويف بالله وعدم الجور، وتحظى أحكام (المقادمة)، و(الحكمان) بالقبول غالبًا.

ووجدت في المناطق الحضرية ما يسمَّى (بالحويف)، ((ففي الوادي تجمعات سلالية، وعلى أساس طبقي، وفي الوادي تجمعات على أساس خدماتي (حويف)، فنظام الحويف في حضرموت قديم ومن قبل القرن السابع الهجري))(١٢)، وتعمل وفق ضوابط ونظم في تعيين المقدم ومستشاريه، ويلتزم رجال الحافة بأداء خدمات للطبقات الأخرى في أفراحها وأحزانها، ويقدِّمون خدمات لمحيطه الجغرافي، كإطفاء الحرائق، وإنقاذ الغرقى،

106
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

وتجهيز الجنائز، وخدمات الأعراس والمناسبات الدينية بتقديم الأكل والقهوة والبخور وغسل الأيدي، بالإضافة إلى الألعاب الشعبية، كالرزيح، والخابة، والشبواني، التي لا يشاركهم فيها رجال حافة أخرى؛ إذ توضع حدود فاصلة بين الحويف؛ لمنع التعدي، وتجاوز المهام وتداخلها. والحويف كغيرها تتأثر بما يحيط بالمجتمع من عادات وتقاليد(١٣).

وتقوم بين الحويف عداءات تقليدية، كالتنافس على الزعامة، وأداء الخدمات، والألعاب الشعبية، وتتطور إلى عراك بالأيدي والعصي والسكاكين، وتبرز المنازعات على الجنائز، وتخطي الحدود، وفي ذروة الصراع يمنع تخطيها إلا في أوقات معينة، كحضور صلاة الجمعة، أو زيارة الأقارب(١٤).

وتعرضت (الحويف) في وقت لاحق لانتقادات من قبل طلائع المثقفين، الذين تأثروا بالحركات الإصلاحية والوطنية، وسمعوا أو قرأوا عن التغيرات في الوطن العربي، وتولت الصحافة الحضرمية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين الميلادي زمام هذه الرؤية، مبيِّنة المهازل التي تحصل، ومستوى التفكير، الذي لا يواكب تطورات العصر بالاحتكام، والتمسك بعادات بالية، معيقة للنمو والتحديث، ومسببة للانقسام بين أبناء القرية أو المدينة الواحدة، ومورثة للمشاحنات والأحقاد، ومقيدة لانطلاق الشباب نحو مجتمع حر، تسود فيه العدالة والمساواة، وينتشر فيه العلم والبناء، ففي العدد (٤٠٠) من صحيفة الطليعة نشرت مقالاً بعنوان الحويف أو مملكة الشيطان)، ومما جاء فيه: (من الواقع الذي يشبه أسطورة خرافية في مجتمعنا، (الحويف)، ففي مدن حضرموت بدون استثناء عدة حويف، كل حافة لها حدودها العرفية داخل المدينة وتقاليدها (الحويفية) الخاصة، وقانونها الذي هو أغرب الأساطير). ومن العناوين الأخرى (لصالح من هذه الإنشاءات وبماذا تعود على أصحابها؟)، و(العامل بكير يتعرض للإهانة والسجن من قبل شرطة تريم)، وفيه خبر عن سجن الشيخ سالم بن سعيد بكير باغيثان، رئيس مجلس الإفتاء بتريم في زمانه، وذلك بسبب نزاع بين الحويف إثر مخالفة الشيخ سالم لبعض عوائد الجنائز، والجدير ذكره أنه صدر في عام ١٩٤٥م إعلان سلطاني بإلغاء نظام الحويف وحدودها، وعلل قرار الإلغاء بأن هذا النظام جر على الأهالي ويلات التفرق والشقاق، وهدد بعقوبات صارمة على أية تصرفات للإبقاء على هذا النظام، وحث الإعلان الشعب على المحبة والإخاء، وبث روح الوطنية والتكاتف لإصلاح بلادهم، وقال هادي أحمد السقاف في كلمة أمام السلطان الكثيري في احتفالات عيد الجلوس، مبينًا بعض صور التنازع: ((إن التفكك والحزازات والعنصريات والتشبث بها وعدم التضامن لأكبر دليل على تأخر الشعوب، وفي وحدة صفوفها وجمع كلمتها أعظم برهان على نجاحها وتقدمها))(١٥).

وعمومًا فالتشكيلات التي سبقت المجالس القروية يلاحظ عليها:

- أنها قائمة على أساس طبقي.
- اعتمادها على ممارسة الضغوط في أحكامها ويفرض القوي نفوذه على الآخر.
- بروز نظام (التبعية) في تشكلها الرأسي.
- توارث القيادة والزعامة.
- عدم وجود نظام مكتوب في أغلبها يحدد عملها.
- مثلت وسائل مناسبة في عصرها وفقًا وظروف الحياة عامة.

وعندما بدأت ملامح الدولة والتحديث بدأ العد التنازلي لها، فظهرت تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية لا تتناسب مع تلك التكتلات، وحاول البعض الدخول في منافسة مع الوضع الجديد.

الحراك الوطني لتحديث المجتمع:

ونقصد به الجهود التي بذلت من قبل الأفراد والمؤسسات الناشئة لنقل حضرموت من عصور الجهل والتخلف إلى عصر جديد يكون للعلم فيه شأن، وللعمل الجماعي والتعاوني مشاركة، ولن يتم ذلك إلا بتطوير التعليم، وبث الوعي الوطني في المجتمع؛ لنبذ عوامل التقسيم والتمايز، والاتجاه صوب البناء، ومن الوسائل التي تبنت هذا العمل تشكيل الجمعيات الأهلية التي قامت على أسس تضامنية، هدفها تحسين أوضاع المجتمع، وشملت حواضر حضرموت، ومنها جمعية الحق بسيئون، التي أسسها المؤرخ والأديب عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف عام ١٩١٣م، وجمعية الحق بتريم ١٩١٥م، وجمعية الأخوة بتريم ١٩٢٩م، وغيرها من الجمعيات التي هدفت إلى إصلاح الأوضاع، ((وبالنسبة لحضرموت كانت الحقبة من الزمن (عشرينيات القرن العشرين) فترة الإصلاح الاجتماعي، حاولت الجمعيات في حضرموت وخارجها (المهجر) الدفع بالتربية والتعليم إلى الأمام ومعالجة المشاكل الاقتصادية وكذلك إصلاح النظام السياسي... ولكن المصلحين واجهوا معارضة من العلماء المحافظين ورجال القبائل وكذلك الخصوم السياسيين))(١٦)، ولكنها مضت في طريقها تفتح المدارس والأندية الأدبية، بل تبنى بعضها إدارة الشؤون المحلية بالمدن، وتنظيم حركة المجتمع، ووضع لوائح لعادات الزواج، وحصر المواليد والشؤون البلدية.

ومن عوائق التحديث المأمول اهتزاز حالة الأمن، ووضعت هدنة إنجرامز عام ١٩٣٧م حدًا لهذا الانفلات، أو كما أسماه الدكتور صالح بن أبي بكر بن الشيخ أبي بكر أنه إحدى أدوات (كسر العظم) للرضوخ لسلطة الدولة، ووضع السلاح، والنزوع إلى الحالة المدنية، مع عدم الانتقاص من دور أهل الصلاح والحل والعقد(١٧). وجاء تشكيل جيش البادية ليعزز هذا الأمر، ووضعت في القرى والمدن نقاط أمنية ترمز لحضور الدولة.

وأسهمت الأربطة العلمية والمعاهد في تخريج الفقهاء؛ لرفد المحاكم بالقضاة، وتناقص تدريجيا دور المحاكم العرفية والعادات، وطالبت مؤتمرات الاصلاح الحضرمية بإصلاح القضاء واستقلاله ليؤدي دوره في حل النزاعات، وصدر قانون إنشاء المحاكم في السلطنة القعيطية عام ١٩٥٢م، وفي عهد الشيخ عبدالله عوض بكير (ت ١٣٩٩ هـ) تم تنفيذ إصلاحات عامة، أدت إلى إلغاء أحكام العادات والتقاليد البالية، ونشر المحاكم الشرعية في المقاطعات والألوية ومحكمة الاستئناف، وبتنظيم القضاء اتجه الناس إلى درجاته المختلفة(١٨).

ثالثًا: المجالس القروية ودورها الاجتماعي:

آلت الأوضاع بعد الصراع على الحكم إلى وجود السلطنتين القعيطية والكثيرية، وجاء المستعمر البريطاني عبر معاهداته وتدخلاته، وأنتجت هذه المعاهدات - حسب السياسة الاستعمارية وتطورات العصر - مؤسسات الحكم اللازمة؛ لإظهار هيبة السلطنتين، وخدمة المشروع الاستعماري، ووجه المستشارون البريطانيون السلاطين للبدء في ذلك في الجانبين العسكري والمدني، وساعد الحراك الوطني عبر الهيئات السياسية الناشئة، وما تموج به البلدان العربية من ثورات وتغييرات، على ظهور الهيئات المدنية من اتحادات ونقابات، ((وكانت الخطوة التي اتجهت إليها الحكومة بعد استتاب الأمن وتأمين المواصلات هي تحسين الإدارة))(١٩)، وتم تقسيم السلطنات إلى ألوية ومقاطعات، ويترأس السلطان مجلس الدولة مع استحداث منصب الوزير والإدارات المتخصصة في الأوقاف والمالية والتعليم والصحة وغيرها، وأصبح الأمر ضروريًا لوجود شكل من أشكال الدولة في المدن والقرى فصدر قانون إنشاء المجالس المحلية عام ١٩٥٠م، وقانون المجالس البلدية والقروية عام ١٩٥٢م في السلطنة القعيطية، فتم ((إدخال نظام عمل المجالس المحلية نتيجة للتطور الحكومي القائم على أساس توزيع السلطات ومعه لوائح تنظيم المجالس

سواء كانت المجالس القروية أم البلدية التي أسست في المدن والقرى))(٢٠)، وفي السلطنة الكثيرية صدر قانون المجالس المحلية المنتخبة في نوفمبر عام ١٩٦٥م، وقاومت المكونات التقليدية التوجهات الجديدة، وعدتها منافسًا أو بديلاً عنها، وسحبًا للبساط من تحت أرجلها، وتدخلاً في مواضع وأماكن تدَّعي الوصاية عليها، وجادلت عن أحقيتها في إدارة شؤونها، ولكنها اتجهت فيما بعد إلى المهادنة، والبحث عن موطئ قدم في المجالس البلدية والقروية، ويناقش الدكتور عبدالله بجرة في كتابه (سياسة النظام الطبقي في حضرموت) هذه الإشكالية من خلال تأكيده على أن رموز المنظومات التقليدية شعرت بتقلص دورها، فبحثت لها عن دور جديد ونافست (القوى المثقفة الناشئة)، واستطاع المناصب وغيرهم من ذوي النفوذ الحصول على أدوار قوية في المجالس، فتمكنوا من التأثير على قراراتها، وأصبح الولاء للسلطان، وإقامة علاقات مع ممثليه كالوزير والنائب والقائم، جسرًا للوصول إلى الإدارات الجديدة(٢١).

وهذه التجربة خطوة جريئة للمشاركة الشعبية المحدودة قياسًا على تعقيدات المجتمع الذي لم يتعاف بعد من ندوب قرون من الصراعات والانقسامات، كما أنها أحدثت وعيًا في الانتماء الوطني ومعنى الدولة.

تفاعلت الصحافة المحلية مع هذه المؤسسات، وعدَّتها صحيفة الطليعة عملاً نبيلاً وخدمة إنسانية، وأنها ((قامت من أجل الجميع ولصالح الجميع، ولترسل بأنوارها الهادية لكل بلد؛ لتبدد الظلمات وتنير لأهله الطرقات، قامت لتنادي بالإخاء بين الجميع ونبذ التفرقة والتمييز، قامت لتنظيم العدالة والإنصاف وتدفن الظلم والإجحاف))(٢٢). وأشارت صحيفة الرائد إلى أن الغرض من إنشائها التخفيف على المحاكم بحل المشاكل الخفيفة، والقيام بإصلاح ومشاريع تحتاجها القرى، وأوردت المادة الثالثة من قانون المجالس التي تنص على حقوق المواطنين بتقديم النقد والمقترحات والتوجيه الهادف للمصلحة العامة، وألزمت المجالس بأن تعير تلك المقترحات اهتمامًا كافيًا لتطبيقها(٢٣)، ويمكن إيراد بعض مهام وأهداف تلك المجالس، في الآتي:

- تمثيل السلطات العليا في القرى.
- فرض وجود الدولة.
- إيجاد شعور وطني لدى السكان.
- جباية الضرائب.
- حل النزاعات.
- تطوير المناطق عبر مشاريع أهلية في الجوانب الخدمية، كالمياه والصحة والتعليم.

وتقوم لجان مركزية بالإشراف الدوري والرقابة على أعمال المجالس وأرشيفها وميزانياتها، ورصدت (جريدة الأخبار الحكومية) الصادرة عن السلطنة القعيطية في عامي ١٩٥٣م/ ١٩٥٤م أنشطة المجالس.

ولم تسلم المجالس من الانتقادات في محاولة لإصلاح مسارها بعد أن ظهرت على السطح بعض الشوائب، ولعل المحافظة على جزء من الأدوات القديمة وحداثة التجربة في مجتمع لازال يعيش رواسب الماضي، أسهم في ظهور الشوائب ((ففي الحالات التي تستبدل فيها حكومات استعمارية - أو حتى وطنية - نظامًا سياسيًا تقليديًا مستغلاً في المناطق الريفية فإن الحكومة الجديدة عادة ما تميل نحو الجماعة التقليدية الحاكمة وتستخدمها من أجل أن تساعدها في تسيير دفة الحكم الجديد في المنطقة))(٢٤).

ومن صور الانتقادات الموجهة إليها داء الأنانية لدى بعض الأعضاء، تقول صحيفة الطليعة مخاطبة أعضاء المجلس: ((إن واجبكم نحو مجتمعكم ووطنكم يناديكم، بل ويناشدكم أن تتحرروا من حب الذات وسيل المجاملات والميول الشخصية، كونوا مخلصين))(٢٥)، وكذلك مطالبتها بعدم الاقتصار على جمع الضرائب، والتخلص من الإفراط في التحكم والسيطرة، والصراع بين الأعضاء؛ إذ ((تحولت

هذه المجالس إلى هيئات ذات نفوذ وأمر ونهي، فتعددت صلاحيتها، وتناست واجبها الحقيقي الذي أنشئت من أجله))(٢٦)، ومن النقد أيضًا أنها كانت قائمة على التعيين والتدخل في شؤونها من قبل السلطات العليا.

لقد أتت المجالس القروية في ظروف سياسية وأمنية مستقرة، بل ووجود سلطة، لكنها غير مكتملة البنيان، وضعيفة في نواح عدَّة، مع معارضة لتلك المجالس من قبل ممن يرون فيها تضرراً لمصالحهم، كما أنها تختلف عن المكونات التقليدية الأخرى من حيث أسسها القانونية؛ إذْ صدرت قوانين تنظم عملها محددة الحقوق والواجبات والأهداف، وتعد ثمرة من ثمار نضال الوطنيين في حضرموت منذ بدايات القرن العشرين في مجال المطالبة بحق الشعب في المشاركة الشعبية في إدارة السلطة، والتي أخذت مسارات عدة في تكوين النقابات والجمعيات، وتعيين موظفين من أبناء البلد، وتكوين المجالس المحلية ومجلس الشورى، وهي جزء من النضال الحقوقي في فترة الخمسينيات والستينيات برموزه الفردية والمؤسساتية، والمكتسبات التي تحققت في تلك الفترة، وحريٌّ بنا اليوم تجذير الوعي الشعبي بأهمية الدولة ومؤسساتها في كل عصر، والمحافظة عليها من الانهيار باعتبارها الضامن الحقيقي لحقوق المواطنين وواجباته في ظل عدالة ومساواة منشودة، والتحذير من كل دعاوى العودة ومحاولاتها إلى عهود ما قبل الدولة، ووسائلها غير المناسبة للعصر وحركة الزمن.

وعلى كل حال فإن التجربة لم تنل حقها من البحث؛ وذلك لفقدان غالب (أرشيف) تلك المجالس بفعل التغيرات والإجراءات التي حدثت بعد يونيو ١٩٦٩م، وظهرت بديلاً عنها، أولاً اللجان الشعبية، ثم لجان الدفاع الشعبي، واستولت على ملفاتها، ووضعت في أماكن غير صالحة للحفظ، فتعرضت للعبث، وعوامل طبيعية أخرى، كالأتربة والأرضة، وخسر التاريخ الحضرمي تراثًا يمكن الغوص فيه واستخراج الكثير من العبر والدروس.

* المدير التنفيذي لمركز واد حضرموت للدراسات والنشر.

الهوامش:

١) د. عبد الله بجرة، سياسة النظام الطبقي في حضرموت / ٨.

٢) ينظر، د. ليندا بوكسبير جر، على حافة امبراطورية / ٢٤.

٣) أحمد عوض باوزير، حضرموت، الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي مابين الحربين العالميتين، أوراق الندوة العلمية كلية التربية المكلا.

٤) ينظر: بحث السيد فريد العطاس، حضرموت والشتات الحضرمي في كتاب الشتات الحضرمي / ٤٦.

٥) محمد أحمد الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي ٢/ ٢٦٥.

٦) كرامه مبارك بامؤمن، الفكر والمجتمع في حضرموت / ٢٦٥.

٧) الشاطري، مصدر سابق ٢/ ٢٩١.

٨) محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، / ١٢٥.

٩) د. عبدالعزيز بن عقيل، حوطة في طور التأسيس، مجلة آفاق العدد ١٠، مارس ١٩٨٧م.

١٠) ابن هاشم، مصدر سابق / ٢٧.

١١) للمزيد انظر الشاطري، مصدر سابق، ٢/ ٢٣٢- ٢١٣.

١٢) عبدالقادر الصبان، نشؤ الحركة العمالية وتطورها، مجلة الحكمة، العدد ١٠٢ نوفمبر ١٩٨٢م، عدن.

١٣) صحيفة الطليعة، العدد١٥١ مايو ١٩٦٢م - المكلا.

١٤) ينظر الشتات الحضرمي لمجموعة باحثين، وعلى حافة امبراطورية، مصدر سابق.

١٥) الطليعة، مصدر سابق، الأعداد ٤٠٠، ٢٤٠، ١٨٢، ١٠٦.

١٦) الشتات الحضرمي، مصدر سابق ١٦١.

١٧) صالح أبوبكر بن الشيخ أبوبكر، تريم بوابة الفكر القومي العربي إلى اليمن، ٢٢٣.

١٨) للمزيد من المعلومات عن تطور القضاء في حضرموت انظر بامؤمن، مصدر سابق، عهد السلطان صالح بن غالب القعيطي، محمد عبدالقادر بامطرف، حسين بن علي باسمير، السلطنة القعيطية في حضرموت، محمد سعيد عبد الله بن علي الحاج، عمر بن عوض القعيطي حياته وعهده.

١٩) سعيد عوض باوزير، صفحات من التارخ الحضرمي، ٣٢٦.

٢٠) باحمدان، مصدر سابق، ٩٢.

٢١) د. عبد الله بجرة، مصدر سابق ٢٩- ٣١.

٢٢) الطليعة، مصدر سابق العدد ٦٠ أغسطس ١٩٦٠م.

٢٣) صحيفة الرائد، المكلا، العدد ٧٦ أبريل ١٩٦٢م.

٢٤) د. بجرة، مصدر سابق ٥٠.

٢٥) الطليعة، مصدر سابق العدد ٦٠ أغسطس ١٩٦٠م.

٢٦) الطليعة، مصدر سابق.

110
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

الأسماك والأحياء البحرية في بحر العرب

ساحل حضرموت (أنموذجًا)

الحلقة التاسعة



(١ - ٣)

أول من اكتشف أهمية الخيصة (المكلا)



أ. عمر خميس بامتيرف

الخيصة بوصفها الطبيعي عبارة عن مكان بحري حصين، يلجأ إليه الصيادون بقواربهم الخشبية التقليدية عن طريق البحر لتحميهم من العواصف وريح الزيب وريح الشمال الرئيسة، وهي بمثابة موقع إنزال، رغبها الصيادون لتسهل لهم الطلوع إلى البحر والعودة، وحتى لا أقع موضع الشك في تعريف طبيعة خيصة المكلا تم حصر جميع الخيص الواقعة على طول شريط ساحل حضرموت، والشواهد ثابتة بعلاقة الصيادين فترة مزاولة مهنة الاصطياد المتعددة الطرق والوسائل منذ أن كانت الخيصة خالية من البيوت السكنية بسبب انعدام أهم الخدمات الضرورية للإنسان (الماء)، وتجدر الإشارة لذكر جميع الخيص وتحديداً الأماكن التي يوجد فيها صيادو حضرموت فترات التعزيب، وهي : (خيصة بلحاف، خيصة بئر علي، خيصة المغداف، خيصة البيضاء، خيصة المجدحة، خيصة رأس الوكفة، خيصة الحمراء، خيصة مويسع، خيصة حصيصة، خيصة إلخة، خيصة حرو، خيصة الحمراء، خيصة ظلومة، خيصة الدحس، خيصة بروم، خيصة الخامة بشموسة، خيصة المكلا، خيصة خلف، خيصة المغلة، خيصة خلفة، وخيصة شرمة بالديس الشرقية، خيصة القرين بقصيعر).

111
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م


وسيلة صيادي المكلا إلى سنة ١٩٧١م

ورغم أهمية موقع الخيصة (المكلا) على بحر العرب فإنها لم تحظ بأي أهمية قبل القرن الحادي عشر الهجري تسمح لسلاطين كندة وآخرهم أبو دجانة، وسلاطين الكثيري وأولهم بدر أبو طويرق، وسلاطين آل بن بريك وأولهم ناجي (الذين حكموا حضرموت واستوطنوا فيها، كما أنها لم تدرج ضمن مصفوفة أطماع الغزاة ورغبتهم، الذين استهدفوا كل مناطق الساحل بما فيهم البرتغال) حتى الإباضية والرسوليون لم يقصدوها، ولا يوجد لهم أثر فيها غير الصيادين التقليديين وعششهم التي تحولت بيوتًا من الطين فترة وجودهم في مواسم معينة وقصيرة لاصطياد أنواع خاصة من الأسماك والأحياء البحرية عبر قواربهم الشراعية الخشبية التقليدية، ومن بعد القرن الحادي عشر استقرت بعض أُسر الصيادين في خيصة حصيحصة وخبصة المكلا، فحظيت بعد ذلك بأهمية كبيرة عند أمراء آل كساد رغم وجود منفذ بري رئيس واحد لها من جهة الشرق يسمى بين القرون لعبور من يستهدفها (الصيادون، والجمالة، والوافدون من مناطق دوعن وعمد والوادي والصحراء). ولازالت أثر الطريق وموقعها عرض الجبل من جهة الشرق النافذة عبر الهضبة إلى خلف المكلا، وهي المعلم الأثري القديم الذي يجب الحفاظ عليه وتشبيكه قبل طمسه؛ ليعطي للخيصة أهمية تاريخية، ولا توجد طريق عبور من جهة الغرب إلا عبر العيقة الممتدة من البحر حتى جول الشفاء، والعبور منها كان صعبًا إلا عبر وسيلة القوارب الخشبية التقليدية (هوري أو سنبوق)، وفيما بعد تم فتح منفذ ضيق يمر من الديس بمحاذاة العيقة، يربط الديس بالخيصة، إلى أن جاء أمراء آل كساد اليافعيين من سنة ١٧٠٣م حتى ١٨٨١م، الذين يعود لهم الفضل في عمارتها واهتمامهم بإقامة فرضة (ميناء بحري)، واستغلوا فرصة تخديم خيصة خلف الطبيعية موقع إنزال ومحل ورشة للسفن، التي تعاود السفر، وللقوارب الخشبية التي تعمل على طول الشريط الساحلي، حتى أصبحت مركزًا تجاريًا للأسماك والمتاجرة بها بسعر الجملة، وظلت خيصة خلف محل اهتمام صيادي الشكات والشباك الفاعية والعائمة،وللموالة الذين يملكون العباري والبومات، ومنهم مَنْ أقام المحلات التجارية (دكاكين) لتسويق معدات الاصطياد خارج المكلا، وشُيِّدت الأحواش لتخزين الأسماك المجففة وتصديرها (اللخم، والقديد، والمالح، والحنيذ، والوزيف، والصيفة) لتغطي حاجة حضرموت، ودول الجوار عامة، ومن موالة أهالي المكلا وخاصة في تسويق اللخم والحنيذ والمنتوج والمالح والصيفة هم:


صيادو المكلا من اليمين الربان ناصر عوض بن سليم وفي الوسط الباحث والربان عوض سالمين عبدون ومن اليسار النوخذة فرج بخيت بن سعدون

112
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

أحمد محمد بوسبعة، والشيخ محمد سالم باوزير (بو سالم)، ومحمد عمر بازرعة، كما فتح سوق بيع التجزئة للأسماك المجففة ويسمى سوق اللخم، ويباع فيه الحنيذ والمنتوج والمالح، وموقعه بالقرب من جامع الشرج، وبعدهم جاء سلاطين القعيطي، وكان أول اهتمامهم توسيع فرضة الخيصة (المكلا)، وبناء سوق السمك بحارة المكلا يستقبل إنتاج صيادي المكلا وروكب وشحير وبروم، وفيما بعد تم بناء سوق السمك الثاني بالقرب من مسجد ورسما بالشرج، الذي أصبح موقع إنزال، يستقبل جميع صيادي الساحل كافة، وفيه تسوق الأسماك بطريقة الحراج والبيع بالتجزئة، كما تم إنشاء جسر العيقة الأرضي لعبور الصيادين والمشاة، يربط الشرج بالمكلا ومن ملاك العباري من أهل المكلا آل بوسبعة، وعوض البحري، والشيخ عبود باحسين، وسعيد باشراوي، ومحفوظ باذيب، وأحمد يسر باسماعيل، ومن نجاري القوارب عبدالله المحافيظ، ومحمد حمد المحافيظ، ومحمد عبدالله المحافيظ، ومحمد عبدالله بو عابد، ومحفوظ باطرفي، وسعيد مبارك عبد الرحيم النجار.

ومن الأسماك التي تحظى باهتمام أهالي المكلا المتميزين بأفضلية الجودة في طباخة الرز المكشن (صيادية)، واعتمادهم على أسماك الزينوب والثمد والتبانة، ومنها أجود الصيادية والمقلي من أسماك الخودر والبوغة والحزلق، ودهرة أسماك النسار والجدب والشروي والقربيب والظبية والخمخمة والطسمة والبكسة وغيرها من أسماك البياض.

Family: lethrinidae

الاسم الحضرمي : khoter gahash laho

الاسم الإنجليزي : gymnocranius griseus

الاسم العلمي : grey largeeyee bream



خوضرة Khoter gahash laho

الاسم الحضرمي : gadob

الاسم الإنجليزي : selar crumenophthalmus

الاسم العلمي : oxeye scad



جدب حنصيل gaddob



جدب برحي barhi جدب باعضيم gadob ba adhem

Family : scombridae

الاسم الحضرمي : tabainae

الاسم الإنجليزي : auxls thazard

الاسم العلمي : frigate tuna



سمكة تبانه أم القلم تبانه tabainae

Family: scombridae

الاسم الحضرمي : shiriway

الاسم الإنجليزي : euehynnus affinis

الاسم العلمي : kawakawa



شروي shiriway

وأول أستيطان فعلي في الخيصة (المكلا) بدأ من القرن الحادي عشر الهجري حينما كانت الديار محصورة في قرية (البلاد) وقليل من الديار في الشرج والحارة، وأول من سكنها هم الصيادون أصحاب المهنة المنقولون من روكب قبل وصول آل كساد وبعده إلى الخيصة سنة ١٧٠٣م، ولا يوجد غيرهم في ذلك الوقت يعمل في البحر إلا الأسر التالية: آل بن طرش، آل بازنبور، آل بامندود، آل بكير، آل بامسعود، آل بن شباء، آل بن زهيدان، آل باخميس، آل بن ثعلب، آل بامحفوظ، آل باصديق، آل باحويرث، آل بامجحفي، آل الصيغ بن دحمان، آل بامتيرف، آل حاتم، آل بحول، آل بن قرمان، آل وحدين، آل باعنتر، آل بن زقر، آل بامسيكة، آل باتمومان، آل بامحيسون آل قرنح، آل بامحفوظ، آل مشيع، آل باخليعة، آل باحمران، آل باربود، آل باعجاج، آل باضبع، آل باشكيل، آل بن طاهر باوزير، آل بامدهاف، آل باعليان، آل باركبة، آل بن جامع، آل باجامع، آل بادمدوم، آل بوسبعة، آل باسعد، آل باعقيل، آل حمدون، آل بازهير، آل بن جوهر، آل باسماعيل، آل باشغنون، آل بازومح، آل با نصيب، آل بانوبي، آل النوبي، آل بايعشوت، آل باهرب ومن بعدهم جاءت اسر كثيرة من الصيادين والتجار قطنت البلاد والحارة وبرع السدة. وفي الحلقة القادمة سوف نفيد بأسماء أول من اسس الجمعية السمكية المحدودة في المكلا فترة القعيطي.

إعلان حكومي رقم ١٤٤ لعام ١٩٥٦م

وثيقة رقم ١

قانون صيد الأسماك

أحكام صيد الأسماك، (تسجيل السفن) ١٩٥٦م

التسمية والمشروع

١- يمكن تسمية هذه الأحكام بأحكام صيد السمك (تسجيل السفن)١٩٥٦م.

ويسري مفعولها أعتباراً من تاريخ أول يوم في يناير ١٩٥٧م.

الاصطلاحات

٢- وفي هذه الأحكام مالم يتطلب المضمون غير ذلك.

(أ) مأمور الضرائب، تحمل المعني المعين لها في المادة الثانية من قانون الضرائب.

(ب) السجل معناه سجل سفن صيد السمك المعمول به بمقتضى هذه الأحكام.

صيانة التسجيل

٣- يقوم ضابط الأسماك بفتح وصيانة سجل سفن صيد الأسماك بالصورة المبينة في الجزء الأول من الجدول التابع لهذه الأحكام.

السفن التي تسجل

٤- كل سفينة تستعمل أو يسمح المالك باستعمالها بصورة كاملة أو جزئية لغرض اصطياد السمك كمهنة أو للمتاجرة تقيد في السجل وعلى كل مالك لمثل هذه السفينة أن يتقدم إلى ضابط الأسماك طالبا تسجيل تلك السفينة في السجل.

العلامات المميزة

٥- وعند تسجيل أي سفينة في السجل على ضابط الأسماك أن يعطي لتلك السفينة علامة مميزة تتكون من حرف أو أحرف، ورقم بالأعداد العربية واللاتينية، وتقيد هذه العلامة المميزة في السجل ثم تعلم أو تحفر على لوحة القاعدة أو عمود المؤخرة أو أي جزء آخر في السفينة حسب إرشادات ضابط الأسماك.

شهادة التسجيل

٦- وعند تسجيل أي سفينة يقدم ضابط الأسماك إلى مالك السفينة شهادة تسجيل تتكون من نسخة صادقة للقيد المتعلق بتلك السفينة في السجل.

التسجيل السنوي

٧- وتسجيل سفينة تحت هذه الأحكام ينتهي في اليوم الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر الذي يعقب تاريخ وقوع هذا التسجيل، ويقدم المالك مرة أخرى إلى ضابط

الأسماك خلال أربعة عشر يومًا من انتهاء التسجيل طالبًا بتسجيل تلك السفينة (ترفق به شهادة التسجيل المنتهية)

تغيير الملكية

٨- وعند وقوع أي تغيير في ملكية أي سفينة مسجلة في السجل فإن على الشخص المسجل كمالك لتلك السفينة، أو إذا كان هذا الشخص ميتا فعلى نائبه الشخصي أو أحد ورثته أن يتقدم حالا بطلب إلى ضابط الأسماك بالصورة المبينة في الجزء الثاني من الجدول الملحق بهذه الأحكام، وأن يقدم مع طلبه هذا شهادة التسجيل المتعلقة بذلك .

التسجيل عند تغيير الملكية

٩- وعندما يتسلم ضابط الأسماك ذلك الطلب كما هو مشار إليه في المادة الثامنة من هذه الأحكام، ويقتنع بصحة ذلك فيمكنه أن يسجل السفينة باسم المالك الجديد وأن يصدر لهذا المالك الجديد شهادة تسجيل ملغيًا التسجيل السابق لتلك السفينة .

عرض العلامة المميزة

١٠- أ) وبعد أن تسجل سفينة بموجب هذه الأحكام فيلزم أن تعرض عليها العلامة المميزة المعطاة لها بوضوح على الدوام بالطريقة المقررة في الشطر الثاني من هذه المادة ولن يقوم أي شخص أو يسمح بتغطية هذه العلامة المميزة أو محوها أوإخفائها أو طمسها .

ب) وستطلى العلامة المميزة بالأعداد العربية واللاتينية باللون الأبيض بوضوح بحيث يمكن قراءتها وعلى ظهر أسود على الجانبين من مقدمة السفينة وعلى جانبي الشراع أو على شراع السفينة الرئيس (إذا كان موجودا) ويكون عرض كل طرف ورقم بوصة ونصف في الأقل .

فقدان شهادة التسجيل

١١- عندما يقنع مالك سفينة مسجلة تحت هذه الأحكام ضابط الأسماك بأنه فقد شهادة التسجيل المتعلقة بتلك السفينة فيمكن لضابط الأسماك حسب اختياره المطلق أن يعطي ذلك المالك نسخة ثانية من تلك الشهادة .

إبراز شهادة التسجيل

١٢- على المالك أو الشخص الذي تكون في حيازته أو تحت رعايته أي سفينة تسجيلها مطلوب بموجب هذه الأحكام أن يبرز شهادة التسجيل لتلك السفينة عندما يطلب منه ذلك أي ضابط بوليس أو ضابط ضرائب أو ضابط الأسماك أو أي شخص مفوض من قبله بالمكتوب على شرط أن لا يدان شخص بمخالفة هذه المادة بسبب عجز فقط عن إبراز شهادة التسجيل هذا ، إذا أبرزت لضابط الأسماك خلال ثلاثة أيام من المطالبة بإبرازها .

منع استعمال السفن غير المسجلة

١٣- لن يستعمل أي شخص لصيد الأسماك في المياه الأقليمية أي سفينة لم يجر تسجيلها طبقاً لنصوص هذه الأحكام .

العقوبات

١٤- وأي شخص يقوم أو يسبب أو يسمح بوقوع أي شيء في المياه الإقليمية فيه مخالفة لهذه الأحكام أو يعجز عن الامتثال لأي نص منها يكون مذنبا باقتراف جناية، وعند إدانته بذلك يتعرض لغرامة لا تزيد عن خمسين دينارًا أو سجن لمدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر أو للغرامة والسجن معاً. ويمكن إضافة إلى ذلك أن يلغي ضابط الأسماك تسجيل أي سفينة اقترفت مثل تلك الجناية بصددها .

افتراضات

١٥- وفي أية محاكمة جنائية تحت هذه الأحكام سيفرز حتى يثبت عكس ذلك إن أي سفينة يُدعى أن جناية اقترفت بصددها كان يلزم أن تسجل بموجب هذه الأحكام وأن هذه السفينة لم تسجل، وأن هذه السفينة كانت وقت اقتراف الجناية داخل المياة الإقليمية .

البينة

١٦- وفي أي إجراءات بصدد أي سفينة تفترض صحة المواد المدونة في السجل حتى يثبت عكس ذلك، وأي قيد في السجل يمكن إثباته بوساطة نسخة منه تدل على توقيع ضابط الأسماك عليها .

115
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

سعيد دحي و طاهر عاطف

شاعران من المكلا



أ.د. عبدالله حسين البار

الحداثة الشعريّة نمطان.

نمطٌ صعبٌ ومخيفٌ، وهو الذي يمثّلُه شعراءُ في العربية الحديثة والمعاصرة أدونيس واحدٌ منهم، ومنهم الشعراءُ خليل حاوي وصلاح عبدالصبور وأحمد حجازي والسياب وأنسي الحاج ودرويش والبردّونيّ وآخرون من أمثالهم تنسرب لغتهم الشعرية في دوائر المتعة النصيّة، كما علّم بارت.

ونمطٌ سهلٌ أليفٌ، وهو الذي يمثّله شعراءُ في العربية الحديثة والمعاصرة نزار قباني واحدٌ منهم، ومنهم نازك الملائكة ولطفي أمان وفاروق جويدة وعمر أبو ريشة وخالد عبدالعزيز وآخرون من أمثالهم تعلّقت لغتهم الشعريّة بمربعات اللذّة النصيّة ومثلّثاتها، كما دلّ على معناها بارت أيضًا.

وما بين ذينك النمطين نمطٌ يجمع بين صفتيهما لعلّ الشعراء العرب الكبار بُلند الحيدريّ ومحمد الفيتوري وأمل دنقل خير من يمثّله.

ولقد مشى الشاعر المكلاوي الأستاذ سعيد محمد دحي على خطى المنتمين إلى النمط الأول بامتيازٍ.

وسار الشاعر المكلاوي طاهر عاطف الكلدي مترسّماً طريق المتمثّلين خصائص أصحاب النمط الثاني ومميزات بناء لغتهم الشعرية باقتدار.

وهذان الشاعران متجايلان، جمعتهما حقبةٌ من الزمن واحدةٌ، وأحاط بهما إطارٌ مكانيٌّ واحدٌ، فقد ولدا في مدينة واحدة هي المكلا، وترعرعا في البيئة نفسها، وتقلّبا في أزقتها وشواطئها وسفوح جبالها بل في قمم تلك الجبال. وعرف كلّ منهما من تلك المدينة وجهًا غير الذي عرفه الآخر. واستهوى كلاً منهما ما رأى فانشده به وأُخذَ به وسار إليه مشتاقًا. سيّان قبحه وجماله، دنسه وطهره، ذنبه وغفرانه. فلكلٍّ فيها ما يهوى. وذلك شأنُ المدن من أمثالها، وإن بدت ملامح تلك الصور محدودةَ الأثر فيها لا ترقى إلى ما نجده في المدن الكبرى، لكنه موجودٌ، وتجلّت أصباغٌ منه على أشعار هذين الشاعرين، كلّ على حسب شخصيته وتجاربه وثقافته في العموم والخصوص.

لكن، على الرغم من ذلك التوافق بينهما بدت صورة الشعر عند كليهما مختلفةً في بناء لغة الشعر، وهندسة القصيدة وتكنيكها. فالمطّلع على شذراتٍ من شعر الشاعر طاهر عاطف يلحظ ما شاب لغتها من شائباتٍ تتعلّق بالمفردة والتركيب وسبك البيت وحبك المعنى، في

حين خلت منها لغة الشاعر سعيد دحي فصفت مظهراً وشفّت مخبراً. وهذا إجمالٌ في القول قد نجد له فسحةً في هذا المقام فنفصّله، وقد يعزّ علينا تفصيله فنكتفي بالمجمل منه، لأنا نودّ النظر في بواعث هذا الاختلاف في مستويات لغة الشعر عند هذين الشاعرين.

وهي بواعثُ شتّى لا يستطيع الناقد، أو قل قارئ النص، أن يغفلها، أو يغضّ الطرف عنها. منها: قلّة المحصول التعليميّ عند طاهر موازنةً بكثرته عند سعيد. فقد درس هذا المرحلةَ الثانويّةَ في السودان، وأكمل الجامعةَ بدراسة اللغة الإنجليزيّة وآدابها في كلية التربية بجامعة عدن، وعمل معلّماً لها في كليّة التربية بالمكلا، ناهيك باتساع آفاق المعرفة أمامه حين هاجر واغترب عن بلاده. وهذا حالٌ لم تسنح فرصته للشاعر طاهر عاطف. فكان اعتماده في التحصيل على ما وقع بين يديه، وما أملته عليه قريحته ولا غير. حتّى معرفته باللغة الإنجليزية لم ترق إلى المستوى الأكاديميّ الذي ارتقت إليه معرفة الشاعر سعيد دحي به، فاختفى أثرها في شعر طاهر.

ومنها: ما يتصل بجامع النصّ الذي تمثّله كلا الشاعرين. فسعيد انفتح على تجارب شعراء الحداثة في العربيّة الحديثة وسواهم من أمثالهم في اللغة الإنجليزيّة، مستفيداً مما قرأه عنهم في العربيّة، ومما دلّته عليه الدراسة والثقافة العامة. وهو ما صفرت منه يدا طاهر، فانحصر في النموذج (النزاريّ)، وفي منزع بعض شعراء المكلا خاصّةً، كالشاعر يسلم باحكم، والشاعر عبدالرحمن باعمر ومن في حكمهما من الشعراء الذين عرفتهم المكلا، فتقاصرت لغته الشعريّة في حين جلّى سعيد لغةً وعلا.

ومنها: الرؤية لمفهوم الشعر وغايات القصيدة والموقف من القصيدة. فأما طاهرٌ فقد عنّ له أن الشعر صدى تجارب شخصية محضة، ثم بدا له أن يجعل منه فضاءً يعالج به بعض مشكلاتٍ في مجتمعه. وهو في أغلب ما خلّف من



الشاعر سعيد دحي

نصوصِ شعره المبعثرة في أماكن شتّى، والمدوّنة بأقلام محبين لا يتعمّقون في قراءة الشعر ولا درسه ولكنّهم حفظوا له نصوصًا عديدة هي كل ما بقي له من نتاجٍ شعريٍّ وكان سببًا في بقاء اسمه يتردّد على أفواه رواة الشعر، وقليلٍ من دارسيه. أقول: إنه في أغلب ذلك أقرب إلى شعراء الفطرة والطبع منه إلى شعراء الصنعة والمحكّكين الذين يعيدون النظر في قصائدهم ويراجعونها حتى تبدو تامة النسج مكتملة الصياغة. فهو ممن يجيدون سبك الشعر لكنه لا ينشغل بتنقيحه ولا يعتني بهندسته ولا يدقق في تكنيكه، ناهيك بأنه لم يقع على قارئ ناقد يهذب له ما شاب شعره من شوائب، ويصلح له ما بدا مختلاً منه، أو يدلّه عليها ليصلحها هو على أقلّ تقدير.

أما سعيد فقد كانت القصيدةُ كتابَ ذاته، وهدهدَه الذي يأتينا من سبئه بنبأ يقين. ولذلك عمقت قصيدته رؤيةً وتنوّعت موقفًا وازيّنت هندسةً وتكنيكًا. والإبداعُ في أصله تكنيكٌ.

ولعلّ العامل الحاسم والفاعل في التمييز بين هذين الشاعرين (المكلاويين) يكمن في طبيعة الانتماء السياسيّ، ومدى الالتزام به، وبشروط نواميسه قبولاً ورفضًا. فسعيدٌ ينطلق من رؤًى سياسيّةٍ تجعله يقبل موقفًا ويرفض

117
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

آخر، ويبشّر بصورٍ من المعاني وينذر بأخرى آخرين لينفروا منها، وإن بدا في واقعه المعيش متحفّظا في الجهر بها والإعلان عنها لأمرٍ كذلك الأمر الذي بسببه جدع قصيرٌ أنفه، لكنها موجودةٌ في شعره ولها فيه دلائل لا تخفى.

أمّا طاهرٌ فقد كان أقرب في شعره إلى المستغرقين في الذات ومشكلاتها، فقد حمّلَ وزرًا من زينة تلك الذات ومن مباذلها، ومن انسحابها من المجتمع وقضاياه بعد أن اتخذ المجتمع وراعوه منه موقفًا هو إلى المقاطعة أقرب من سواه. فبدا في صورٍ من شعره أدخل في من وصفوا (بالبوهيميّين) واللامبالين بقضية أو موقف.

ومن هذه البواعث والدواعي انبثق التمايز والاختلاف بين الشاعرين. ووقوفنا اليوم معهما على تلك البواعث سبيلٌ للوقوف على مميزاتٍ بينهما في الأداء وخصائص الأسلوب. ولعلنا إن أمكن الوقت وأسعفت الصحة حين نعرض لقصائدهما بشيءٍ من التحليل نتعرّف على النصوص التي كان من المتوجّب ذكرها في مظانّ من هذه المقالة لكن اتساعها وتناميها حال دون الاستشهاد بما تيسرّ من تلك القصائد فعذرًا عذرًا حبيبي القارئ، فللضرورة أحكامها كما يقولون.

* * *

طاهر عاطف وشعراء عصره
موازنةٌ نقديّةٌ بين قصائدَ ثلاثٍ

قبل البدء في عملية التحليل نبدأ أولَ ما نبدأ بنشر القصائد الثلاث، لغاياتٍ ثلاث.

الأولى: لتوثيق نصّها، وأعني بذلك قصيدة الشاعر يسلم أحمد باحكم، ومطلعها:

ماس تيهًا وثنى العطفَ غراما فحنا القلب عليه وترامى

وقد شوّهها التداولُ إلى حدّ الابتذال، فغدت مسخًا في الرواية، وعجز المتبصرّون بالشعر عن تذوّقها وتبينّ شعريتها لما امتلأت به من أخطاءٍ لم يصوبها قلمٌ، ولم يسدّد



الشاعر طاهر عاطف

قوافيها عارف بالشعر يحسن ضبطه. وإنيّ أشكر هنا كلّ الذين أسعفوا وساعدوا على العثور على النصّ الكامل وشبه المنضبط لهذه القصيدة، وقد عزّ الوصول أليها لولا همّةٌ قعساءُ اتسم بها بعض الأحبة شيبًا وشبانًا.

والثانية: التعريف بنموذجٍ من شعر طاهر عاطف ليتعرّف القراء على شيءٍ من تجاربه الإبداعيّة وطرائقه في نسج الشعر وسبكه. وقد اخترنا له قصيدةً مطلعها:

من رصيف الحزن أهديكم سلاما
شاحبَ اللونِ كأحزان اليتامى

وقوامُها واحدٌ وثلاثون بيتًا. يبث فيها طاهرٌ بعضَ وجده وشجنه ويتحسرّ فبها على ما فاته من زمنه، ويأسى على ما تبقّى منه لقادم الأيّام. ومن أسف أننا لم نجدها مذيّلةً بتاريخٍ كما صنع في قصائد أخرى له أودعها كرّاسةً مخطوطةً في أمانة أحد الأحبّة الذي تكرّم وأعارنيها لنفيد منها ما نفيد ثمّ نعيدها إليه مشكورًا، وقد تمّ.

وقد استدعت تتمّةُ القول في هاتين القصيدتين استحضار الثالثة الأخرى، وأعني بها قصيدة الشاعر عبدالرحمن عمر باعمر، ومطلعها:

مرَّ كالبان اعتدالًا وقواما
بخطًى تبعث في القلب السلاما.

وهي ذائعةٌ منتشرةٌ، لا يكاد يجهلها أحـــدٌ، ولها في أفئدة المتلقّين ومحبّي شعر الغناء الفصيح في حضرموت وسواها من البـلدان مقـامٌ معلومٌ. وقـد خُيِّلَ لي ذات زمنٍ أنها من قديم ما لحِّن وغُنِّيَ حـتّى أخبرني الأستاذ عزيز الثعالبي بـغيضٍ من حـكايتها وحـكاية قـصيدة الشـاعر يسـلم باحكم، فعلمتُ أن لا تزال بلادي مبـدعةً ولاّدةً، وأنّ نهر الإبداع فيها سائرٌ لا ينضب ماؤه.

وبهذا اكتمل أمامي متنٌ شـعريٌّ، قـوامُه ثلاثُ قـصائدَ اتفقـت في شيءٍ واختلفت في أشـياء ممّا اسـتوجب هامشًا نقـديّا يكشـف فيه كاتبــه غامضًا، ويضيء معتماً، ويضع القـــصائد الثلاث في ميزان الوعي بالشـــــعر وإدراك خصائصه الأسلوبيّة.

وهاكم القصائد الثلاث قصيدةً قصيدةً.

١) قال الشاعر يسلم أحمد باحكم:

ماس تيهًا وثنى العِطف غراما
فحنا القلبُ عليه وترامى
ذو محيّا تخجل الشمسُ له
إذ بدا كالصّبح، أو زاح اللثاما
بحياتي أغيدٌ قلبي به
هام مذ حيَّا، وأحياني ابتساما
مُتْ رقيبي. إنّ عيشي قد صفا
من لقاهُ، ولديّ الأنسُ داما
رقص القلبُ سرورًا إذ وفى
لِيَ وعداً. إنّه وعدُ الكراما
لا بلغت القصدَ إن رمتُ به
بَدَلًا، أو سَمِعَتْ أذْني مَلاما
هاتِ أطربنا بذكراه وكرّرْ
فيه وصفًا. وأدر فينا المُداما
نحتسيها بنتَ دنٍّ، عَرْفُها
زاد لمّا فاح نَدًّا وخزامى
آهِ ما أنعمَ أوقاتي بها!
تمّ لي بدرُ التداني. يا سلاما
مُتُّ لولا أنّه أدركني
من لمى رشفته تحيي العظاما
أنتَ عينُ الأنسِ حقًّا، ولكم
أصبح القلبَ مقرًّا ومقاما.

* * *

٢) قال الشاعر عبد الرحمن عمر باعمر:

مَرَّ كالبانِ اعتدالًا وقَواما
بخطًى تبعثُ في القلبِ السَّلاما
رَقَصَتْ من تيهِهِ أعطافُه
وأريجُ السِّحرِ قد أزرى الحزاما (أو الخزامى)
أسْكَرَ الروضَ شذًا من طِيبِهِ
وشدا الشّحرورُ يزجيه الغراما
يا حبيبًا خفقَ القلبُ لَهُ
تَرْجمت دقّاتُه منه الكلاما
قُلْ لمن قد لامني في حُبِّه
لا تُطِلْ عَذْلَكَ فينا والملاما
ليس يدري الوجدَ إلّا مُدْنَفٌ
يجرعُ اللوعةَ أو يُسقى الحِماما
قد صفا لي من زماني واحدٌ
كان لي من كلِّ دنياي المَرَاما
فصنعنا من هوانا جَنّةً
سَبَحَتْ أرواحُنا فيها هُياما
وانتَشَت سكرى بأقْداحِ الهوى
فَنَسِينا حَولَنا هذا الأنَاما
يا لدنيانا نعيمًا عامِرًا
نحتسي القُبلةَ خمرًا ومُداما
يا حبيبي تِهْ دَلالًا في الورى
واسكنِ الأحشاءَ دارًا ومُقاما
ومُرِ القلبَ فَمَا أسعدَهُ
أن يطيعَ الأمرَ يا روحي دواما

ما مقامُ العمرِ أن فارقتني
وجعلتَ النورَ في عيني ظلاما

* * *

٣) وقال الشاعر طاهر عاطف: رسالة من رصيف الحزن

من رصيف الحزن أهديكم سلاما
شاحبَ اللونِ كأوجاع اليتامى
مفرقي شابَ ولكن لم يزل
رغم أهوال الهوى قلبي غلاما
يسألُ الركبانَ عن أخباركم
وينادي: أين أحبابي القدامى
أنتمُ أضرمتمُ النَّارَ بقلبي
مَنْ سواكم يا ترى يطفي الضَّراما؟
نضبت بئرُ الهوى من بعدكم
كيف يحلو لي الهوى فيها مقاما؟
صار قلبي زاهداً من بعدكم
نذر العمرَ صلاةً وصياما
رضع القلبُ الهوى من ثَدْيكم
فتعالوا علّموا قلبي الفطاما
ناسكٌ يقتاتُ من ذكراكم
كلُّ شيءٍ غيرَكم أضحى رُغاما
هذه الأيّامُ مِن دوراتِها
لم يَدُمْ حُلْوٌ ولا مُرٌّ أقاما
يحتسي الأحبابُ من كاساتِها
عَلْقَماً حيناً .. وأحياناً مُداما
وتُريهم كلَّ يوم عجباً
تارةً حرباً .. وأطواراً سلاما
قُلَّبٌ ساعاتُها .. غدّارةٌ
لا تُراعي الوُدَّ أو تَرْعى الذِّماما
هل نسيتم كيف عشنا زمناً
نملأُ التاريخَ عشقاً وهُياما؟

إنْ مشينا فخُطانا قَبلَنا
تزرعُ الدَّربَ غُصوناً وحَماما
أو سمرنا فالدُّجى في نشوة
وضياءُ البدرِ سُكْراً يترامى
أو جلسنا والضُّحى منتصفٌ
لفَّنا الفُلُّ وغطّانا الخزامى
قبلَنا ما كان قبلٌ .. بعدَنا
لن تلاقي عابدَ الحُسنِ إماما
كلُّ شيءٍ صار لا معنى له
فكؤوسُ الخمرِ وهمٌ والنَّدامى
وحديثُ العشقِ أضحى تافهاً
والجميلاتُ مللن الابتساما
والليالي فقدت روعتَها
وضياءُ الكونِ قد صارَ ظلاما
والروابي الخضرُ لا لونَ لها
والعصافير مضت تنعي الغراما
والروابي فقدت فتنتَها
وخيولُ الشعر مزقن اللِّجاما
وبناتُ الحَضْرِ ما عُدن هنا
وبناتُ البَدْوِ غادرن الخياما
وزُقاقات (المكلا) أَقْفَرَتْ
والزِّحامُ الحلوُ ما عاد زحاما
والغواني فوق (جول الديس) لا
تُلْهمُ الشّعرَ الذي يحيي العظاما
وخُصُورُ القومِ لا تُرقصُها
مَرَّ كالبانِ اعتدالاً وقواما
كلَّما ماست أمامي حُلْوةٌ
صحت يا قلبُ: فأصغى ثُمَّ ناما
كُلُّ ما حولي قبيحٌ .. ذابلٌ
فكأنَّ الحُسنَ قد أرخى اللِّثاما
وخيالي لم يَعُدْ يسعفني
ولساني كاد أن ينسى الكلاما

تنهض العلاقة بين القصائد الثلاث على أساسٍ من ثنائيّة الائتلاف والاختلاف بينها، وتجلّت في عددٍ من المستويات، أوّلها:

المستوى الإيقاعيّ: اتفقت القصائد الثلاث في إيقاعها الوزنيّ بحرًا وقافيةً وحرفَ رويٍّ، فجاءت جميعها من بحر الرَّمَل التام، عروضه محذوفةٌ وضربه تام، وجاءت قافيتها مردوفةً، ورويّها الميم، والألف بعده وصلٌ.

كما اتفقت في (التصريع). وهو كما عرّفه ابن رشيقٍ في (عمدته) ما كانت عَرَوُضُ البيت فيه تابعةً لضربه تنقص بنقصه وتزيد بزيادته. وهو هنا بزيادة.

لكنّ القصائد الثلاث اختلفت في أشياء أخرى، فمنحها الاختلافُ هويّةً إبداعيّةً انمازت بها قصيدةٌ من قصيدة على عددٍ من المستويات، أهمُّها مستوى العنوان. فقد تميّزت قصيدة طاهر بعنوانٍ يتدلّى من أعلاها كالثريّا المتلألئة، بينما عُرِفت قصيدتا باحكم وباعمر بالجملة الفعلية الأولى التي اُستفتحت بهما القصيدتان، فصارتا عنوانًا لكلّ واحدةٍ منهما، فيقال (ماس تيهًا) و(مرّ كالبان).

وإذا كانت قصيدة باعمر قد حملت في الديوان المطبوع عنوانًا هو (غصن البان)، فهو غير شائعٍ، وليس فيه ما يدلُّ على تلك القصيدة لا جوهرًا ولا عَرَضًا. فإذا أجبتَ سائلاً يسألك عمّا تقرؤه، وقلتَ: قصيدة (غصن البان). ما فهم منك قصدًا. حتّى إذا قلتَ له: (مرّ كالبان). وعى قولك وأدرك مقصودك.

ولعلّ الحال ينطبق على قصيدة الشاعر يسلم باحكم لو أنّه طبع ديوانه ووضع لقصائده عنواناتٍ لم تعرف بها من قبل فيتغيرّ المقصود منها بتغيرّ العنوان.

أمّا قصيدة طاهر فقد وُسِمَت بالعنوان من بدئها. والعنوانُ علامةٌ سيميائيّةٌ كما يقولون، ومن هنا أهميّته عند تحليل النصّ. إنّه بوّابةُ العبور إلى النصّ. هذا في العموم، أمّا ونحن منحصرون في نصٍّ طاهرٍ فإن القول سيتخذ تحليلا تفريعيًّا.

عنوان القصيدة - كما وسمها به الشاعر نفسه - هو (رسالةٌ من رصيف الحزن)، ووضع هذا الدّال (رسالة) عنوانًا لقصيدةٍ ثيمةٌ عرفتها الشعرية العربية في عصرها الحديث منذ الشاعر بدر شاكر السيّاب حتّى الشاعر نزار قباني. وما من شاعرٍ من شعراء الحداثة العربيّة إلا بعث قصيدةً موسومةً بعنوانٍ هو (رسالة إلى، أو من)، واختلفت سمتها، فقد تكون ثوريّةً اجتماعيّةً كما في (رسالة إلى سيف بن ذي يزن) للمقالح، أو عاطفيّةً وجدانيّةً كما في (رسالة من تحت الماء)لنزار قباني. وقد تأتي (رسالة) نكرة لا تُدرَك هويّتُها إلا بقراءة متنها الشعريّ كاملاً كما في قصائد كتبها السيّاب ودرويش وعددٌ آخر من شعراء الحداثة العربيّة، وتكرّر استخدامهم لهذا الدّال عنوانًا في أكثر من قصيدة. بل ظهر عنوانًا لمجموعٍ نصيّ كاملٍ هو (مئةُ رسالةِ حبٍّ) وهو للشاعر نزار قباني.

جاءت قصيدة طاهر لتنتظم في هذا النسق الشعريّ، وليست الوحيدةَ فيه، فلها نظائر، لكن هذه القصيدة استحوذت على الاهتمام كونها عمدت إلى تبيان موقفه من التحوّلات الاجتماعيّة التي رآها تحدث في مجتمعه (الصغير) المكلا، وكان معنيًّا بتحوّلاته لأثرها في نفسه وأحواله المتبدّلة. فكأنّ تلك الرسالة هي كتابُ ذاته الذي ينفث فيه أساه ويشكو بثّه وحزنه إلى الآخرين حيث هم يوجدون، وفي هذا ما يخصب تجربة قصيدة طاهرٍ عمّا في قصيدتي باحكم وباعمر اللذين هيمن عليهما حسّ الغناء والطرب فتخيّلا مواقفَ وصاغا فيها مقاطعَ من شعرٍ تنسجم مع طبيعة اللحن المصوغ من أجلها ليتذوق المتلقي طربًا، ويبتهج من أداء الغناء. ومن هنا عزّت قراءة القصيدتين بعيدًا عن دائرة التلحين، وعزّ تلقيهما نصّين شعريّين معزولين عن تلكم الدائرة، في حين تألّقت قصيدةُ طاهرٍ

في وجدان المتلقي وإن لم يضمّها نسقٌ لحنيٌّ. وهذا اختلافٌ جوهريٌّ بين القصائد الثلاث وإن انتظمت في نظامٍ إيقاعيٍّ واحد.

ينتصب الدّال (رسالة) – وهو نكرةٌ – خبراً لمبتدأ محذوف إن أردت ذلك. ولقد يغدو مبتدأً خبره شبه الجملة من الجار والمجرور وما بعدهما، وهذا، كذلك، جائز. لكن قف عند حرف الجر (مِنْ)، فستراه يفيد معنى ابتداء الغاية، وهو معنى غير ما جاء في استخدام (إلى) عند المقالح الذي أفاد معنى بلوغَ الغاية وانتهاءها. وهكذا هم الشعراء يوظّفون أقسام الكلام اسماً وفعلاً وحرفًا لمقاصد الشعر ودلالاته المتنوعة.

يتلو حرف الجر تركيبٌ إضافيّ (رصيف الحزن)، وكلّنا يعرف الرصيف، وكلّنا يعرف الحزن من حيث هما دالان لهما وجودهما في المواضعة اللغوية، إنْ شيئًا حسيًّا أو حالاً معنويًّا، لكن الشاعر انزاح بهما فأدخلهما دائرة الاتساع.

وللرصيف حضور في أدب الحداثيّين عامة، وفي أدب (الوجوديّين) منهم خاصة، فهم يرون فيه نقيضًا للتجدّد والتنوّع من حيث هو وجودٌ إسمنتيّ حجريّ لا يتغيرّ ولا يتجدّد، تمرّ فوقه الجموع ذهابًا وإيابًا وهو حيث هو فغدا رمزا للصبر والاحتمال.

ويا رصيفا يحفر الصبر في

لوحيه تاريخ الأسى والشحوب

ويستنكرون جموده وعدم تململه من ذلك الحال ولو بنأمة خافتة أو حركة ضعيفة.

يأتي لفيفٌ ويليه لفيف

وأنت ثاوٍ ههنا يا رصيف

تستعرض الأطوار مستنكرا

ومبديًا صبر الحياد الحصيف.

ويعجبون من اتحاده بالجموع التي تعبر فوقه وتثقل عليه الأعباء المتجدّدة دون تمرّدٍ على الموجود.

ثُمَّ ماذا؟ ورصيفٌ مُثْقَلٌ

برصيفٍ يحسب الصمت حصافة.

... إلى آخر ذلك.

ولقد كان رصيفُ طاهر باعثًا على الحزن كونه مكانًا ترصد منه الذات المتكلّمة تحوّلات المجتمع وتبدلاته الاجتماعية. ومن هنا جاءت الرسالة المبعوثة منه بعد اكتمال الرؤية واشتمالها على صنوف التحول والتغيير.

وفي هذا تتجاوز قصيدة طاهر قصيدتي باحكم وباعمر معًا لانغمارها في جحيم الواقع ونأيها عن عاطفة الرومنسيّين، وبساطة الوعي في أشعارهم، فصعد بقصيدته إلى مستوى تجارب الشعراء في عصره، وإلى أضرابه من شعراء جيله.

٢) الاختلاف على مستوى الاستفتاح في مطالع القصائد:

وهناك اختلاف بين القصائد الثلاث على مستوى الاستفتاح بالضمير. فقد عمدت قصيدتا باحكم وباعمر إلى الاستفتاح بضمير الغائب (هو) تحديدًا. فقال الباحكم: (ماس تيهًا) دون أن يعينّ لنا ذلك الذي ماس فجهلنا هُويّته ولم نحدّد معالمه ولم يبق لنا منه إلا ذلك الضمير الدال على الغائب، وشايعه في ذلك الباعمر حيث قال: (مَرَّ كالبان)، فلم نعلم من ذلك الذي مَرَّ، وما صلتُه بالذات الشاعرة في كلتا القصيدتين.

ويتمدّد هذا الغياب في القصيدتين، فإذا هو عند باحكم يتحوّل إلى نعت للمجهول بالجمال دون أن نعرف من يكون ذلك المائس تيهًا، أهو صديقٌ أم حبيبٌ، أذَكَرًا كان أم أنثى أم أيَّ شيءٍ هو في عالم الأحياء والأشياء والنعوت. فقال:

ذو محيا تخجل الشمس له

إن بدا كالصبح أو زاح اللثاما

وهنا تشير الكناية في قوله: (أزاح اللثاما) إلى أن المقصود بالمائس تيها حبيبةٌ نجهلها فلم يزل الشاعر يوغل بها في الخفاء ولا يكاد يظهرها للعيان، ومثله صنع الباعمر حيث

يقول:

رقصت من تيهه أعطافه

وأريج السحر قد أزرى الحزاما

ولقد تكون (الخزاما).

ووصف المحبوب بالتيه عند باعمر إنما هو ترسُّمٌ لقول الباحكم ذلك في مطلع قصيدته، فهو تابعٌ له، ولم يكن قوله في نعته محبوبه بذلك أصيلاً كما هو الحال في مطلع قصيدة الباحكم.

لكنّ طاهراً ينزاح عنهما في الاستفتاح بضمير المتكلم، والإشارة إلى حال الذات (شاحب اللون)، وهو بهذا يَلِجُ بالذات المتكلمة إلى دائرة الانفعالية أو التعبيرية كما قال جاكبسون في حين ثوى بطلا قصيدتي الباحكم والباعمر في دائرة الملحمية والسرد. قال طاهر:

من رصيف الحزن أهديكم سلاما

شاحبَ اللون كأوجاع اليتامى

وهنا تتجلى الذات المتكلمة لضمير (الأنا) لتؤكّد حضورها على مرارة مأساته، وتعلن عن وظيفة تعبيرية للكلام يبث من خلالها المتكلم شجنه وحزنه.

وحتى إذا اخذنا بالرواية الأخرى في هذا المطلع، وقد وردت عند بعض رواة شعره، وهي:

من رصيف الحزن يهديكم سلاما

شاحبُ اللون كأوجاع اليتامى

يظلُّ ضمير الغائب هنا في مقام التجريد الذي يتعادل فيه ضمير الغائب مع ضمير المتكلم في الدلالة على الذات المتكلمة. وكأنّ الشاعر جَرّدَ من ذاته آخر يتحدّث عنه وهو يقصد نفسه.

وهو ما يؤكّده الشاعر في البيت الثاني من القصيدة بقوله:

مفرقي شاب ولكن لم يزل

رغم أهوال الهوى قلبي غلاما

وفي هذا تأكيدٌ على أنّ الغياب في البيت الأول – على هذه الرواية – هو حضورٌ ظاهرٌ في البيت الثاني، وفي ما تلا من أبيات لاحقة. ومن هنا يُسوّغ الافتتاح لضمير المتكلّم لاتساق الدّوال وتناغم التركيب. وهذا كثيرٌ في أشعار الشعراء العرب. قال الأعشى:

وَدِّعْ هريرةَ إنّ الرَّكبَ مُرتَحِلُ

وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أيُّها الرّجُلُ

فالمخاطب هنا هو الشاعر نفسه، وإنما جاء بآخر منه ليقيم بينهما حواراً ويجلو دراميّة نفسيّة ملحوظة. ومثله قول أبي الطيب:

لا خيلَ عندكَ تُهديها ولا مالُ

فَلْيُسعِدِ النّطقُ إنْ لم يُسْعِدِ الحالُ

والقول فيه ما قيل في سالفه. وهكذا صنع طاهرٌ، جَرّدَ من ذاته آخرَ وأخبر عنه ليفيد منه معنى السرد والملحمية. أما قوله: (شاحب اللون) فهو في الرواية الأولى منصوبٌ على الحاليّة، وهو في الرواية الثانية مرفوعٌ على الفاعليّة. وهذا من سمات الكلام السامي الذي يحتمل الصفة ونقيضها، ومن هنا وسم الشعراء بأنهم أمراء الكلام.

٣) الترادف:

وفي قصيدتي الباحكم والباعمر اتفاقٌ على استخدام الترادف على مستويي الإفراد والتركيب. فأنت حين تقف على مطلع قصيدة باحكم تجده يفتتحها بالجملة (ماس تيهًا) التي تعادل في الدلالة قولك: تكبر واستعلى. ثم يشفعها بجملة ثانية هي: (وثنى العطف)، وهي دالة على التكبر والاستعلاء. أما (غراما) فهي نابيةٌ في موضعها، لأنّ حال المتكبر المستعلي أن ينأى عن الهوى والغرام. ولذلك يروون عن (نرسيس) في الميثولوجيا اليونانية نأيه عن الغواني الحسان ترفعًا وتأبيًّا وتكبرًا على الرغم من تهافتهنّ عليه. ولكنّ باحكم رأى في محبوبه ذلك الحال، فله ذلك. لكنّ جملتي (ماس تيها) و (ثنى العطف) مترادفتان تمنحان الدلالة عينها.

أما في قصيدة الباعمر فإن الترادف بين المفردات لا يخفى من مطلع القصيدة: مَرَّ كالبان اعتدالاً وقواما. وهل الاعتدالُ إلا القوامُ والقوامُ إلا الاعتدالُ؟ وهو مولعٌ بذلك حتى تكرّر في ابيات أخرى من القصيدة:

يا لدنياي نعيماً عامراً

نحتسي القبلة خمراً ومداما

وهل الخمر غير المدام؟ وقال:

يا حبيبي تِهْ دلالاً في الورى

واسكنِ الاحشاءَ داراً ومقاما

وهل يكون المقام إلا في الدار حتى غدت الدار مقاما؟

لكن باعمر أحكم الوصف بالطمأنينة في السير حين قال: (بخطًى تبعث في القلب السلاما).

على أن قصيدة باحكم مليئةٌ بالخروج عن الصحة النحوية كما في قوله: (إنّه وعدُ الكراما) حيث نصب ماحقُّه الجرُّ بالإضافة، ونصب ما حقُّه الرفعُ كما في قوله: (ياسلاما). وكلُّ ذلك بتأثير العامية ومزاحمتها للفصحى في شعر الرجل وتلك خصيصةٌ معروفةٌ في شعره، ولعدم وجود التنقيح الذي يساعد على الخلاص من منكرات الخطأ وملبسات الجنوح عن الصواب.

ولا يخفى على عين اللبيب المتفحّص ما في قصيدة باعمر من ترسّم لخطى باحكم في كثير من معانيه، وكأنه يعيد تجربته نسخةً ثانيةً دون أن يتجاوزها كما صنع طاهرٌ في نظمه قصيدته التي تجاوزت القصيدتين معا وإن شايعتهما وزنًا وقافيةً ورويًّا.

ولعلّ قارئًا كريماً يسأل: ما الرابطُ الجامعُ بين الشاعر يسلم أحمد باحكم والشاعر طاهر عاطف الكلدي، ولكلٌّ منهما مشربُه الشعريُّ واتجاهُهُ الإبداعيُّ؟

والإجابةُ عن هذا السُّؤال، وهو صائبٌ، ستتجاوز التعاقب اكتفاءً بالتزامن إجراءً نقديًّا يبين عن الغامض ويكشف عن المقصود.

فالناظرُ في لغة قصائد باحكم التي شدا بها الفنّانان محمد جمعة خان وعبدالربّ إدريس يَلْفتُه ما يشوب فصحاها من استخدامٍ عاميٍّ، وتجاوزٍ عن الالتزام بنحو العربية وسننها. وما تتسم به تلك العامية من نفحاتِ عبيرِ فصاحة عربية على نحو يتسق مع قدرات الشاعر وحرصه على تيسير النظم على ذلك المنوال دون الالتزام بما التزم به سواه من شعراء عاصرهم وعاصروه، وأقاموا معه في مدينة واحدة هي المكلا، وغنّى لهم الفنانان جمعة وإدريس قصائدَ فصيحةً ذات عربية سليمة. ولقد انتجت تلك اللغة الهجين صوراً من الخصائص الاسلوبية في شعر باحكم المغنَّى وتميزت بها.

وكنتُ وقفتُ من ذلك على بعض ظواهر تستحقّ ذكراً في هذا المقام، وهي إن قلّت عدداً فعلى قدر النزر اليسير المتوفّر من شعره. من ذلك:

١- تسكين المتحرك، وهو كثيرٌ، وكأنه لا يطيق حركات الاعراب فقيّد حركة المفردات: (في دقيقةْ القمرْ ولّ وفاجأنا الظلام)، (سحر عينكْ ياجميل.. فاتني ارحم قليل.. لا توقعني قتيل.. من لحاظكْ يا اغن). وهو هنا يلتزم بسنن العروض دون التزام بقواعد اللغة.

٢- وضع همزة الوصل في موضع همزة القطع والعكس: فنجد (فاتني أرحم قليل)، وهي همزة وصل غدت عنده همزة قطع. ونجد (صاد قلبي بلحاظ وَاصْبح...)، وصوابها (أَصْبَح)، وهي همزة قطع غدت عنده همزة وصل.

٣- استخدام المفردة العامية إن عزّت الفصيحة عليه: (لا تجنّي جنان، يارشا حالي ملان، لا توقعني قتيل)، (توقعني) عامية أي تطرحني أرضًا أو قاعًا كما يقال في العامية.

٤- تغيير البنية الصرفية للفعل اقتضاء لسلامة بنية التفعيلة: فنجد (ذاقني كأس المنية = أذاقني)، (لم أكن أقرف ذنبا = أقترف)، (فَكُني يا نار للملتاع بردا وسلام = فكوني)، فحذف عين الفعل دون موجب صرفيٍّ... إلى آخر ما هنالك من ذلك، وله اشباهٌ ونظائر.

هذه اللغة المشوبة لا نملك أن ننعتها بالعربية الفصيحة ولا بالعامية المحكية محليًّا ولكنّها مزيجٌ من هذه وتلك. وهي ميسرة لدى شاعرٍ أتقن ضبط وزن الشعر بحرًا وقافيةً ورويًّا، ووجد في اللحن منجاةً لإخفاء عيوب لغته ونبوِّها عن قواعد العربية وسننها. فشاعت قصائده بين المتلقين بوساطة جمعة وإدريس ومن تابعهما من مغنيين، فلهج بها المتعلم والجاهل، وتذوقها المقرزم بالشعر والعالم بأسراره، وجذبت الألحان الموضوعة على تلك الأشعار أفئدة تهوى الغناء وتطرب له.

ومن الغريب أن لغةً كتلك اللغة لم تجد من يقوّمُها ويكشف عن ملامحها ليتبينّ شُداةُ الشعر مواضع الاستقباح والاستحسان فيها على الرغم من وجود عارفين بأصول العربية ومتمكنين منها في المدينة أو خارجها فتركت وشأنها تفعل أفاعيلها في أفئدة المتلقين دون تبصرٍ.

هذا الصنيع من شاعرٍ كباحكم كان ذا أثرٍ سلبيٍّ على شاعرٍ مثل طاهر فظهرت في شعره أصباغٌ من تلك اللغة الهجين دون أن تلقى مُعينًا يهذبها ويُنقّحُها ويُخلِّصُ شعر طاهر منها. وهو لم ير في استخدامها حرجًا، ألم يجدها في شعر شاعرٍ ذاع صيته؟ يغني له كبار المغنين ويتباهى بترديد أشعاره كل أهل مدينته. فَلْتَبْقَ في الشعر إذًا ما بقيت القصائد، ولْيَتكفَّلِ الزّمن ببث الرأي فيها. وليس هذا الصنيعُ نتاجَ نظرةٍ فلسفيّة للغة كما فعل دانتي في اللغة الايطالية ولكنه صدى انفعالٍ واستسهالٍ للإبداع دون مشقّة وإعنات.

وهاك نماذج مختارة عشوائية من شعر طاهر. قال:

كنتُ أصلبْ كلَّ يومٍ ألف مرة
كنتُ أبلعْ كلَ يومٍ ألف جمرة
لم أذق ثانيةً واحدةً معنى المسرّة
كل أيام فراقي لم تكن إلا عذاباتٍ وآلامًا وحسرة

هنا عمد الشاعر إلى جزم الفعل المضارع دون مسوّغٍ للجزم ليستقيم له الوزن، وأمضى السطر الشعريّ على وزنه مفترضًا فيه صحة الأداء، مع أنه كان في ميسور الشاعر وقد أعسره الوزن على الوقوع على الصيغة الملائمة لاستقامته أن يجعل جملتي (كنت أصلب / كنت أبلع) في سطرين متناظرين يتلو كل فعل منهما الظرف اللاحق به. وسيحقق التوازي بين التراكيب للشعر نغماً لا يخفى. وخذ مثلاً آخرَ:

١- كلُ ما فيك تغيرّ.

٢- صرت أحلى: صرت أكثر.

٣- لا زلت عالي الرأس مرفوع الجبين.

٤- لوحةً عظيمةً تسر الناظرين... إلخ.

وبمسٍّ قليلٍ من قلمٍ حصيفٍ يمكن للسطر الثالث أن يصبح:

لم تزل
عاليَ الرأسِ ومرفوعَ الجبين

ويستقيم له الوزن ويصحّ له المعنى. كما يمكن استبدال كلمة (عظمى) بكلمة (عظيمة)، فَيَسْتَدُّ المعوجّ.

أما أطرف ما استخدمه طاهرٌ في قصائده من العامية الحضرمية وكان مُوَفّقًا في استخدامه فهو قوله:

لا أنتَ هارونُ الرشيد أبثُّه
غُرَرَ القصيد، ولا أنا بنْ هاني

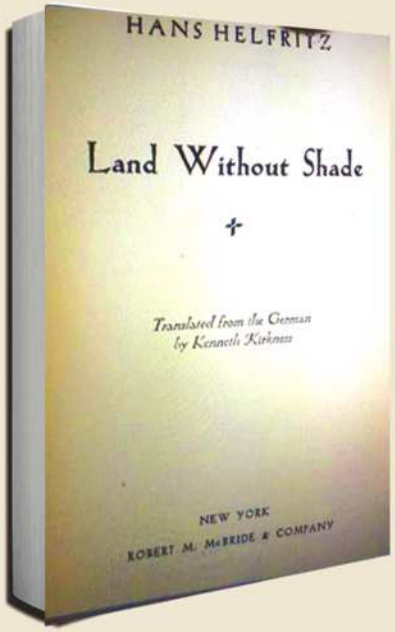
ففصيحها (ابن هاني). ولكنّ الوزن سينكسر فحذف همزة الوصل وجاء بها حضرميةً ذات رنين موقّعٍ وموفٍ بالقصد.

وجميع هذه الهنات في شعره ما كان لها أن تأتيه من جهة شعراء العربية قديمهم وحديثهم، وإنما مصدرها ما لمسه في لغة شعر باحكم من استخدامٍ للعامية فيها دون تنقيح فاستساغها ثم احتذاها، وما كان له أن يصنع ذلك لو لا اختفاء صوت الناقد وقلمه الذي يصحح الخطأ ويحرص على السلامة اللغوية في العربية.

لكنّ طاهرًا يظلُّ على الرغم من كلّ ذلك شاعرًا غطت عليه الأيام برداءٍ ثقيلٍ فجهل قومه مقامه وقد آن لهم أن يعرفوا قدره فينتصروا لإبداعه.

المكلا ٢٢/ ١٠/ ٢٠١٩م

125
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م



أرضٌ بِلا ظِلال

هانس هيلفريتس (Hans Hilfritz)

ترجمها من اللغة الألمانية إلى اللغة الإنجليزية
كينث كيركننز (Kenneth kirkness)

نيويورك
روبرت م. ماكبرايد

أرض بلا ظل
حقوق النشر هانز هيلفرتز ١٩٣٦م
طبع في الولايات المتحدة الأمريكية
النسخة الأولى

(٤ - ٤)

النسخة الألمانية لهذا الكتاب
نشرت في مدينة ليبزج (liepzig) في كتابين
الأول بعنوان (شيكاغو الصحراء)
والثاني بعنوان (أرض بلا ظلال)



ترجمة: د. خالد عوض بن مخاشن

الفصل الخامس

في إقليم حضرموت

إن كانت هناك أرض مجهولة لم تُعرَفْ ولم تُرَ إلى اليوم وهي موطن لواحدة من أقدم الثقافات التي عرفها العالم، فهي بلا شك حضرموت، حتى سكان هذه البلاد أنفسهم ليس لديهم إلا القليل من المعرفة والوثائق عن تاريخ بلدهم. على الرغم من أن الكُتَّاب العرب القدامى قد ذكروا المدنَ الثلاث التجارية المهمة: شبام، وسيئون، وتريم، فإن أحداً منهم لم يشر بدقة إلى مواقع تلك المدن وأهميتها، والاعتقاد العربي هو أن هناك مملكة مستقلة في حضرموت، كانت معاصرة لمملكة سبأ، هذا الاعتقاد قد أكَّده المؤرخ العربي نشوان. ففي عهد الرسول كان يحكم هذه البلدة ملوك يحملون ألقابَ أقيال، وعبر هؤلاء الحكام انتشر الإسلام فيها.

تبوأتْ مراكز الإشعاع الحضاري والثقافي مثل روما وأثينا وبابل مواقع مرموقة في التاريخ العالمي، كذلك استطاعت مدن حضرموت نشر تأثيرها ليتخطى حدودها، غير أننا لا نعرف سوى القليل عن ذلك التأثير، والشواهد الباقية إلى الآن على هذا المجد التليد المنسي هي تلك البنايات الرائعة، والتي لا تزال موجودة في هذا البلد.

يمكن للمرء أن يصف مدن حضرموت بأنها مدن فن العمارة العالمية؛ فروعة هذه البنايات في هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية؛ حيث لا يتوقع الإنسان إلا أن يجد الصحاري والجبال الجرداء، ولكن ما رأيناه فقد تخطَّى كل توقعاتنا - فقد رأينا ناطحات سحاب في وسط الصحراء، في وقت كان لا يوجد في أمريكا سوى أكواخ بائسة.

تقدم كل واحدة من هذه المدن والحواضر الكبيرة والصغيرة الكثيرة صورة معمارية فريدة ورائعة لبنايات لا يتصور المرءُ أن العرب قادرون على بنائها، ويسكن هذه البنايات أناس متشبثون بعادات العصور الوسطى وتقاليدها. بنُيت مساكن الفقراء وأحياء التجار وقصور السلاطين بالنمط والأسلوب نفسه، ولها جميعًا الشكل نفسه. تُبهر نقاوة هذا الأسلوب المعماري وأصالته من يشاهد هذه المباني للمرة الأولى، وتخلق لديه انطباعًا رائعًا لا ينُسى أبدًا. توجد نقاط تشابه بين هذا الفن المعماري والفن المعماري البابلي والآشوري، ويكمن هذا التشابه في الشرفات المفرجة الناتئة، والأسوار الخارجية، والأبراج الضخمة في زوايا المباني، وفتحات الرماية، وأقواس البوابات، والبيوت الشبيهة بالقلاع الحربية.

يكمن السبب وراء اتباع هذا الأسلوب المعماري (غير الشائع عند العرب) إلى حالة عدم الاستقرار التي تعيشها البلد، فالجنوب العربي لم تتوقف فيه الحروب، وعمليات السلب والنهب أبدًا، كما أن غارات البدو تعدُّ عادة الحياة اليومية، وقد شهدْتُ بنفسي ثلاث حروب قبلية صغيرة. لهذا تجد كل بيت وكل قرية وكل مدينة عبارة عن قلعة حربية محصنة ومكتفية ذاتيًا، وزيادة في التحصين تبنى هذه البيوت والقرى والمدن على أراضٍ مرتفعة أو على قلاع جبلية، ولا يعملون نوافذ في الطوابق الأرضية من هذه البيوت، وعادة ما تخُزَّن فيها المواد الغذائية، وتُوضَع فيها الحيوانات، ويسكنون الطوابق العليا من هذه البيوت.

تُبنى هذه البيوت من الطين. أما بخصوص عملية بنائها فتتم على النحو الآتي: عندما يقرِّر سلطان أو مواطن ثري في مدينة من مدن الجنوب العربي بناءَ بيتٍ، يُدعَى الأصدقاء والأقارب إلى اجتماعٍ، تتم فيه مشاوراتٌ مطوَّلة، وتُوضع الخطط الأوليَّة للبناء، وقبل البدء في البناء يتم البحث عن حرفيين مهرة، وعند العثور على البنائين والنجَّارين، يبدأ التفاوض والجدال حول الأُجور، بعد ذلك يتم اختيار الموقع الذي سيُبنى فيه البيت الجديد. ولقد لاحظْتُ بأن النساء يعملْنَ في الحقول، ولم أُشَاهِدْ قَطُّ امرأةً تعمل في البناء.

الأيدي العاملة في البناء هنا رخيصة، ومواد البناء أرخص؛ إذْ يتم اختيار مكان في الوادي به تربة جيدة، وبتم الحفر إلى أن يظهر الماء، وإن كان من النادر الحفر عميقًا، بعد ذلك يسكب الماء على هذا التراب المحفور ويضاف إليه التبن (تبل)، ثم يُدعس ويخُلط بأرجل العمال أو أرجل الحيوانات ليُصنع منه (المدر)، الذي يترك تحت أشعة الشمس الحارة، إلى أن يجفَّ تمامًا، بعدها يستخدم في بناء البيوت، وهذه هي الطريقة نفسُها التي تُبْنَى بها البيوت الطينية في مصر والموصل منذ قرون.

يتم البدء في بناء البيت في الجنوب العربي من الوسط، وفي الأخير يتم استخدام نوع من السقالات مصنوع من جذوع النخل، تستخدم جذوع النخل أيضًا دعامات للأسقف. وبعد الانتهاء من البناء يتم طلاء الخشب غير المنحوت، أو يتم نحته بعناية.

هناك صفة مهمة تمتاز بها البيوت في الجنوب العربي ألا وهي المزاريب الخشبية، التي تقوم بتصريف المياه من مختلف الغرف والأسطح؛ إذ يُولَى لها اهتمام خاصٌّ؛ كي لا يوصل الماء إلى الجدران الطينية ويتلفها، كما أن هناك خصوصية أخرى في هذه البيوت وهي استخدام مادة جيرية تشبه الإسمنت في زخرفة الرفوف وعتبات الأبواب والنوافذ، أما الرسومات التي تعمل على الجدران الطينية وهي بنية اللون فهي من الجص الأبيض السميك، وتوجد موارد كثيرة لمادة الجير في الجبال؛ إذْ يتم ضربه بأعمدة خشبية طويلة.

تريم هي العاصمة الحالية للإقليم، وتتكون من خمسة أحياء أو مناطق، كل واحد من هذه الأحياء تسكنه قبيلة واحدة، ويعيش السكان الأصليون هنا مع البدو الذين جعلوا من هذه المدينة سكنًا دائماً لهم، أكبر الأحياء وأهمُّها هو حي الحوطة، ومعظم سكانه من البدو آل تميم، وفي كل حيٍّ يوجد قصرٌ، يعود لأحد الإخوة الخمسة من آل الكاف، وقد نزلنا في بيت يعود للسيد عبد القادر بن حسين بن شيخ الكاف.

كل سيد ينبغي عليه أن يكون جاهزًا لتلاوة نسب عائلته، ابتداءً من اسمه إلى اسم آخر جدٍّ له، وهذا قد يأخذ من الوقت ربع ساعة كاملة، يُدرَّس ويُحفَظ تاريخ العائلة في ذاكرة السيد منذ مرحلة الطفولة لضمان عدم نسيان بعض الأسماء المهمة في العائلة عند الكبر، وبما أن العرب ليس لديهم تشكيلة واسعة من الأسماء ليختاروا منها، تجد الاسم الواحد مكرراً أكثر من مرة واحدة في شجرة العائلة نفسها، وهذا يُعقِّد ويصعّب من مهمة الذاكرة خلال تذكُّر تلك القوائم من الأسماء وسردها.

وعلى أي حال فإن هناك سجلَّ شجرة العائلة، والذي يعدُّ أثمن المقتنيات لدى الأُسَرِ، ويتمُّ الرجوعُ إليه مراراً، ويعدُّ مُعيناً للذاكرة إنْ وهنتْ.

لتريم سلطانٌ أيضًا، ولكنَّ السادة أطاحوا بكل سلطاته تمامًا، فهو مثل إمبراطور سابقًا، ويعيش في المنفى مع حاشيته ووزرائه وعبيده، وله قصر ضخم في سيئون القريبة من تريم.

حظينا باستقبال حار في تريم، وأُعطي لنا قصر كاملٌ، ونُثرت علينا الهدايا القيمة وكأنهم استقرأوا كل رغباتنا، وانهال علينا الزُّوَّار صباحًا ومساء، ففي الصباح تمتلئُ الغرفة بالضيوف قبل أن نصحوا من النوم، ويبقَوْنَ إلى منتصف النهار. وعند عودتنا من أي جولة للتنزُّه مشيًا في المدينة، على الرغم من ندرة قيامنا بهذا الشيء فإنَّ ظهورنا في الشارع يلفت انتباه الناس، ويثيرُ وفضولهَم وكأنهم يشاهدون إمبراطوراً يستعرض استعراضًا مهيبًا، نجد دفعة من الزُّوَار في انتظارنا، وينبغي علينا أن نقوم بدور المضيف الودود تجاههم، هذا الشيء قد يكون متعبًا إلى حدٍّ ما في طقس معتدل كطقسنا، غير أنَّه في طقس استوائي كهذا يعدُّ مُنْهِكًا للأعصاب، ولاسيَّما أن هذه اللقاءات تمتد إلى الليل. لدينا رغبة شديدة في رد هذه الزيارات، وأن نقوم بزيارة من زارونا غير أنَّ الفكرة لم تلقَ ترحيبًا من أبرز الزوَّار لاعتبارنا نصارى (مسيحيين كُفَّارًا)، لا ينبغي استقبالهم في بيوت مسلمين، بل أعلن البعض منهم بأنهم سوف يطلِّقون زوجاتهم ويغادرون تريم إذا سُمح لنا بالبقاء في تريم مدة أطول.

يوجد بتريم مسجد يسمى مسجد الرباط، وهو عبارة عن معهد عالٍ لتعليم العلوم الدينية والقضاء، ويقدم لطلاَّبه كل شيء حتى تكاليف زواجهم يتكفل بها، ولكن ليس من السهل على النساء الالتحاق بهذا المعهد، فهُنَّ معزولاتٌ تمامًا عن المجتمع وعن الحياة العامة، ويعشْنَ في أماكن الحريم، ولا يُسمَحُ لهن بالمشاركة في الأنشطة الترفيهية والابتهاجية للرجال، وفي حال نزولهن إلى الشارع – وهذا نادر الحصول –يرتدِيْنَ حجابًا أسودَ غليظًا، به فتحتان للعينين، ولا يسمح لهن بالسفر ولا ارتياد المساجد، فهي حكرٌ على الرجال فقط، وأفظع جريمة يمكن أن يقترفها الأجنبي في هذا البلد هي السفر بصحبة امراة.

النساء في الجنوب العربي لا يتمتَّعْنَ بصحة جيدة، أو في الأقل هذا هو حالهن في المدن، في حين أنَّ النساء البدويات في المناطق الريفية لا يعانين من الأمراض الشائعة في المناطق الاستوائية، ويَعِشْنَ حياةً أكثرَ تحرُّرًا.

الزواج الأحادي هو السائد في الجنوب العربي؛ إذ لا يتزوج الرجل إلا امرأة واحدة، ولا يقدر على تكاليف تعدد الزوجات سوى الأغنياء منهم، تتم الزواجات حسب الطريقة الشرقية المألوفة، أي إنَّ الرجل يشتري

128
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م

زوجة، فالزواج هنا عبارة عن ترتيبات وتفاهمات تجارية بين الأهل، ويتزوج الولد حين يصل عمره أربع عشرة سنة، وتتزوج البنت حين يصل عمرها اثنتي عشرة سنة.

على الرغم من أن المرأة تعيش حياة تسودها الرتابة والملل، فإنها قد تحظى بقليل من البهجة؛ إذ يسمح لها بتربية الدجاج، وبما أنها عادة ما تكون دائماً في بيتها ولا تخرج منه إلا نادراً، وبما أن الدجاج في حاجة إلى من يطعمهن، فإن بيوت الدجاج تثبَّت على الجدران الخارجية للبيوت خارج النوافذ. في حضرموت تُربَّى الدواجن في البيوت إما في بيوت مثبَّتة على الجدران الخارجية وإمَّا في بيوت على الأرض، وهي دواجن أليفة جداً، إلى حد أنها تضع بيضها بالقرب من نوافذ بيوتهم.

كيف تبدو ناطحات سحاب الجنوب العربي من الداخل؟

حَسَنًا تدخل عبر باب منحوت جميل إلى فناء، أو بهو فيه سُلَّمٌ طيني مَطْلِيٌّ بالإسمنت، يقودك إلى (المجلس)، أي غرفة الاستقبال الرئيسة، هذه الغرفة جيدة التهوية، وتسمَّى أيضًا (مرواح)، وبجوار هذه الغرفة توجد المطابخ والحمامات (بيوت الماء)، المطابخ بها رفوف طينية، توضع عليها الأواني والأوعية، أما الحمامات فتجد بها جرار الماء الكبيرة، وقنوات في أرضية الحمام متصلة بالمزاريب الخشبية لتصريف المياه المستخدمة إلى خارج البيت. تصب المياه الملوثة الآتية من الحمامات في الشارع مباشرة، أما الفضلات الأخرى فتجد طريقها إلى حفرة غير مُغَطَّاة في الشارع، لا تصل القمامة إلى الشوارع الرئيسة، ولكنها توضع في الأزقَّة الموجودة بين البيوت.

غرف المعيشة متشابهة في كل البيوت، وجدرانها مزخرفة بالجير الأبيض، وأرضياتها مسمَّتة، وإطارات النوافذ خشبية، وبها شبابيك صُنِعَتْ بطريقة فنية، أما النوافذ الزجاجية فلا تُعرَف هنا، ولمعظم الغرف أبوابٌ مزدوجة وأقفال خشبية تسمى (القالودة). فيما عدا المنحوتات الخشبية للحرفيين الحضارمة والمشهورة في الشرق، لم نجد أي أنواع أخرى من الأثاث كما تعنيه هذه الكلمة عندنا. يُفرَش السجَّاد على أرضية الغرفة، وتُوضع مخادُّ كبيرة ذات ألوان فاتحة للاستناد عليها، ويستخدمون البنادق القديمة والسيوف والخناجر المرصعة كزخارف جدارية. يجلس الخدم في الغرف نفسها مع أسيادهم، ويستمعون باهتمام إلى ما يُقال، والمشروب المحبوب والشائع لديهم هو الشاي والقهوة غير أنَّهم يضعون مع البن الزنجبيل مما يجعل طعم القهوة حاراً، وهو ما يحرم الشخص الأوربي من أي متعة في شربها، بينما يضع البعض قليلاً من العنبر في القهوة، والعنبر عبارة عن إفرازات رمادية اللون تخرج من أمعاء حوت العنبر، توجد طافية على المحيط غالبًا بالقرب من الشواطئ، ويستخدم العرب هذه المادة الغالية الثمن في صناعة البخور الذي يحبونه كثيراً.

تريم مدينة يحيط بها حزام كثيف من أشجار النخيل، إنها مدينة الجداول الجارية والمنارات البيضاء المتلألأة، فمن نافذة قصري أستطيع رؤية هذه الواحة الكبيرة بأطرافها المترامية وبيوتها الكثيرة الممتدة أمام ناظري.

هدوء عجيب جاثم على المشهد في الجنوب العربي، فالطمأنينة والاستكانة هما الصفتان البارزتان للناس هنا، إنهم أناس يعيشون في عالمهم الخاص بهم، أناس لا يعني لهم الزمن أي شيء، أناس أنتجوا نمطًا ثقافيًا نقيًا، لم يُعَدْ له أي وجود فيما يسمى بالعالم المتحضر.

التشابه بين نمط المباني وميول السكان الموسيقية أمرٌ جديرٌ بالدراسة، وهذا شيء نفهمه جيِّدًا، غيرَ أنَّ موسيقى الشعوب الشرقية كالعرب والهنود والصينيين لغزٌ محيرٌ لمعظم الناس، وأمرٌ مثير للعناء للبعض الآخر، وبالرغم من ذلك فإنه من الخطأ المرور سريعًا على موضوع كهذا، فعلى المرء أنْ يحاول أن يفهمه، ومن الممكن أنْ يتعلَّم منه، وفيه سيجد أدلَّةً من فنون أخرى، وبمقارنة هذه الموسيقى بموسيقى شعوب أخرى قد نستطيع الوصول إلى استنتاجات ذات أهمية ثقافية وتاريخية.

129
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

الدكتور سالم محمد سالم بامؤمن
الرجُـل المثـال



[تحل علينا الذكرى الثانية لوفاة فقيدنا المغفور له بإذن الله تعالى سالم بامؤمن في السابع عشر من شوال سنة ١٤٤١هـ، سالم الذي كان ملء أفئدة طلابه ومحبيه وصدورهم، ومصدراً هنيئًا، ومنبعًا مريئًا لدارس ومستفهم، صديق صدوق مع الصاحب والقريب، إن افتقدنا جسمه فروحه خفاقة ترفرف في سماء معارفنا طلبةً ومريدين، لن ننساه وابتسامته تشع من عالم الملكوت، لتجلو الذهن من آفات الزمن ومنغصاته.

في الذكرى الثانية لوفاته، كهامة مجتمعية وتربوية... افتقدناه في ذروة العطاء بعزيمة وحيوية الصادق المخلص لمجتمعه وتلاميذه.. وهنا أسطر سيرته كما عرفته].



عمر عبدالله بامطرف

التبس علي الأمر وحرت وأنا أحمل قلمي لأسطر سيرة شخص عزيز علي، قريب من جوانحي، أصيل في تواصله، شهم في تواده! أأترجم سيرة شخصية لمحب وصديق، أم أترجم سيرة نابغة في مجتمعه؟! تريثت حتى أبدِّد الالتباس والحيرة، فمهما كانت الصداقة أو المحبة أو الصلات والروابط الخاصة مع الآخر، إذا لم يعضدها سبب وجيه قد لا تجد الحافز أو المسوّغ لتسويد صفحة من سيرته.

سيرة سالم -رحمه الله- صديقًا ومحبًا، ونابغة في مجال تخصصه العلمي وأديب.. مهذب في سيرته الشخصية، إضافة إلى النبوغ مع حسن الخلق، إلى الصداقة والمحبة، كل ذلك دافع قوي وحافز متماسك وثيق للترجمة.

وكتابة السير أو التراجم ليست بالأمر السهل أو الهينّ، أيًّا كان القرب من صاحب السيرة، فإبراز الوقائع من حياة الشخص، أو الإحاطة بها كاملة، قد لا يفقهها أقرب الأقرباء المقربين لصاحب السيرة، لأكثر من سبب، وأهمها عندي هي تلك التي تظهر بمظهر السلوك الاعتيادي المألوف أو البديهي في حياة الشخص، بدون تكلف أو حذلقة، وهي في جوهرها وخلاصة موقفها الأصالة والشهامة والتفرد فيما لازم سيرته الروحية والنفسية، التي يستمد منها مفاهيمه الفكرية والعملية، ورؤيته للواقع والوقائع دون ادعاء وتبجح.

قد لا ندرك ما وراء بعض العلاقات أو التعاملات في ظاهرها غير المألوف أو البديهي الذي يربطنا بالآخر، وقد تتوارى وراء المألوف أو البديهي عبقرية مستكنَّة، تتجلى في المواقف الحرجة، التي تداهم الشخص من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر، فإذا المألوف يفصح عن موقف غريب جديد في التعامل أو العلاقة، متمكن بحذق في مفاهيمه ورؤاه وسيرته، فلا تثنيه أو تحوله عن موقف من مواقفه الثابتة في سلوكه أو تصرفاته الخاصة أو العامة، مهما صعب واستعصى، أو استغلق وغمض؛ لأنه لم يسلك طرق المداهنة أو المخاتلة، التي تزين القبيح، و تستهجن الحسن.

صاحب السيرة، ينصت لمحدثه إنصات من يجهل ما خفي عليه، متعجبًا مندهشًا، لا يقطع حديثًا، ولا يمل منه، أو عنه، وهو أعرف بما حدثه به محدثه:

وتراه يصغي للحديث بقلبه وبسمعه ولعله أدرى به

صاحب السيرة، قد يكرر سؤالاً من التقى به أكثر من مرة، سواءً اقتنع بالرد أو لم يقتنع منذ البداية، فهو ممتحن أكثر مما هو متسائل، لكي يبني فهمه على يقين دون أن يعيب محدثه بتناقضه مع الوقائع، أو تناقضه مع رد أو ردود سابقة، أو يصدمه بفعل من أفعاله المشينة، وهذه من فضائل صاحب السيرة التي يجهلها الكثير ممَّنْ عاشره.

ولا يعني ذلك تعارضًا أو تناقضًا في موقفه، إنما هو قبول خصوصية الآخر في فكره أو ولائه، سواء كان ذلك عن قناعة أو عن تقليد أو عن مكر وخداع.

لقد ابتلينا في مرحلة من مراحلنا المستجدة بتغيير النظم والأوضاع، بحيث نقلت الفرد نقلة كبيرة، فكان من نتائجها تباعد بين المستجد وما كان عليه من نظام ووضع، وتباعد بين الأفراد والأسر، وتباعد بين التكتلات والفرق، وذلك باستحداث أعراف ومفاهيم، أكانت حسنة أو غير حسنة، إنما هي أشبه بالإعارة لمجتمع تسيرّه عوائده واعرافه ومفاهيمه، التي توارثها جيل من بعد أجيال، والتكيف مع المستجد إن قبِله من قبله، فإن المتروِّيَ في قبوله يتطلب الوقت الكافي لقبوله، من هنا تعددت الولاءات والانتماءات.. اختلاف في الفهم والقصد، اختلاف في الرؤى والرغبة، اختلاف في السيرة والسلوك، وهو مما لا يحجب -في الواقع- تذبذبًا محبطًا لبعض ذوي الولاءات أو الانتماءات المستجدة.

صاحب السيرة، بحسن خلقه، ورهافة حدسه، قد أعد نفسه وشكلها بفهمه وعلمه.. سار بخطى مرسومة لا يضار ولا يجابه غيره، ممن سار على نهج أو طريقة بدون ركيزة من علم أو معرفة، أو متخبط في متاهة دون هدف محدد، فمن الصعب، إقناعه أو تغيير مساره لوجهة غير ما ارتادها لنفسه، فليكن كما هو دون تدخل من أي نوع.

بهذه الموهبة حصل على ود الكثير إن لم أقل الكل، مع أن البعض يضيق بتلك الموهبة، التي لا تجامل ولا تداهن، بمعاني المجاملة والمداهنة المبتذلة المعروفة، بخاصية التملُّق والنفاق.

لأن صاحب السيرة عامَلَ الكُلَّ بنُبله، وحُسنِ خُلُقه، وخدم الكل بمصداقية ونزاهة، لا برؤى الآخر وفهمه، فكان له الفضل الذي ساد في مفهوم أوساط مجتمعه بكل طبقاته ومشاربه.

وإذا كنا نستمد من سيرة الأفاضل العبرة والعظة في قول وفعل، فالترجمة لسيرة الفاضل اعتبار واعتراف بفضل أسداه لمجتمعه وذويه.

سطرت -مع اعترافي بقصر باعي- ما عن لي من سيرته، مع يقيني أن غيري أقدر مني على بسط الترجمة، وإظهار ما خفي من سيرته كنابغة في بيئته، و متميّز في تخصصه، سواء العلمي أو العملي. على أنني لم أسطر إلا الحقائق التي أعرفها عنه، ولم أبالغ في الوصف، أو اختلاق صفة لم تكن فيه، أو إخفاء خصلة عرفتها من خصاله الحميدة.

131
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م



غير أنني - على وفق اجتهادي - لمعرفتي بصاحب السيرة، لست منزَّهًا من غفلة أو نسيان، مع يقيني أنني أجهل الكثير من خفايا صاحب السيرة، وإنما أنا أدون ما عرفت؛ لأنه في ظل كل مجتمع، رابطة تربط الفرد بآخر.. روابط متنوعة.. بخصائص اتفقت أو اختلفت، ومفاهيم ورؤى اتحدت أو تجزأت، إنما تظل الرابطة.. رابطة تحددها نوعية العلاقة مع الآخر، وتربطني بصاحب السيرة رابطة قوية من الود والإخاء، ومن الرضا والصفاء.. رابطة إن تراءت بالعلاقة الشخصية، فهي مرتبطة بالعلاقة العامة، ولعلي ألحق بهذه الرابطة ما هو جدير بربطه، فقد كان أستاذًا لي بحكم تخصصه في تصحيح مفردات اللغة، وربما أرشدني إلى تناول موضوع لم أكن أفكِّر فيه، رغم اختلافنا في بعض منهجية المواضيع ومقاصدها، وهو اختلاف أوجبه فارق السن، وفارق المعرفة.

ومع أن لقاءاتنا في الفترة الأخيرة بعد أن تبوَّأ منصب نائب عميد كلية التربية للدراسات العليا والبحث العلمي (جامعة سيئون) تضاءلت واختصرت، ربما لاستحواذ المنصب على جل وقته، إضافة إلى طلبات العون والمساعدة من بعض الطلبة والطالبات في الجامعة، وقبوله بمهام أخرى ليست من مهامه الوظيفية، ومن طبعه وطبيعته لا يرفض مهمة موكولة له من زميل أو من مسؤول وهو قادر على أدائها، سواء كان في تخصصه أو من غير تخصصه، ثم علاقاته الاجتماعية المميزة مع غيره في فرح أو ترح، وأفراحنا وأتراحنا تأخذ الكثير من الوقت، لهذا تجده مشغولاً ومنشغلاً مع غيره بليل ونهار، سواء في وقت إجازة، أو وقت راحة، فإن تمت لقاءات معه فهي أقصر مما كانت عليه من طول وشمول.

من أين أبدأ؟

لا أدري من أين أبدأ، وكيف أبدأ؛ فسيرة الشخص مرتبطة بالبيئة الاجتماعية، التي تؤثر في سلوك الفرد وطموحه وقيمه، والاختلاف في المجتمعات ناشئ عن أسس العوائد وعوائدها، التي تسيّر تلك المجتمعات، وفي مجتمعنا وجود الفوارق الطبقية بين شريحة وشريحة أخرى.. أي بين طبقة وطبقة على وفق التقسيم الطبقي الموجود، غير أنَّ الغالب على هذه الطبقات الوئام والتناسب، مع أنه لا يخلو من استعلاء، وما يرافق الاستعلاء من ظلم وبغي.

والمجتمع الذي عاش فيه الأب بالتقسيم الطبقي هو من أسفل السلم الاجتماعي من الطبقة الكادحة، التي تعمل بالأجر اليومي، وهو أدنى أجر إن وجد في تلك المرحلة، بحيث أن مرددوه لا يفي بمتطلبات الأسرة على تواضعها وتقشفها.

وفي ظل هذا الوضع، هناك من فكّر ونزح إلى مواقع أخرى من الوطن، لعله يجد مالم يجده في موطنه، غير أن فكرة التحول من منطقة في نطاق البلد إلى أخرى محفوفة بالمخاطر، مخيبة للآمال، فمن نزح غيّب، ولا يعرف سبب تغييبه، ومن عاد عاد بائسًا قانطًا يجر قدميه الدامية، من طول تسكُّع في شوارع تلك المدن والقرى النائية، لهذا آثر الكثير من شباب الأسر الخنوع لواقع هو منه وفيه على علاته، ومنهم الأب.. أب سالم.

ووجود الصراع في تلك الفترة بين الشرائح الطبقية .. صراع تحتِّمه الظروف المعيشية في ظل هيمنة القوي، وصاحب المال، والضحايا هم مَنْ لا يملك قوة ولا مالاً، أو بمعنى أكثر وضوحًا من هم في آخر السلم الطبقي الاجتماعي بعوائده.

واقع هذه الطبقة، لا يمكنها من الانتساب حتى إلى عُلْمَهْ (كُتَّاب) من العلم، التي تدرِّس مبادئ القراءة وأركان الصلاة والصيام، وما تعلق أو انتسب لذلك من أمور الدين؛ لأن سد الرمق أهم من تلقِّي ما يمكن معرفته بالمتابعة والاقتداء بإمام المسجد، والإنصات إلى الموعظة، فكان الجهل المسيطر في ظل هيمنة، رسخَّتْها ظروف الواقع من فقر وظلم واستعلاء.

نشأ الأب في كنف هذا الواقع في عائلة من شرائح المجتمع الأكثر فقرًا ومعاناة في سبيل تحصيل لقمة عيش لا تكاد تسد الرمق.. تعسرت سبل المعيشة، وتفاقمت المصائب فيما حل في البلد، من فوضى عارمة بانعدام الأمن، وشبه مجاعة تطال تلك الشريحة في فترات معينة، وربما اجتاحت عامة المجتمع في وقت آخر، فلا يكاد الإخوة الأربعة بعملهم المتقطِّع يوفون بمتطلبات الأسرة على تواضع تلك المتطلبات في أدناها.. هاجر مع إخوة له هو أصغرهم، وهو في سن اليفاعة إلى شرق أفريقيا.. تقلَّبَ في الأعمال في مغتربه.. أعمال متنوعة بمردود محدود، ومع تنوع الأعمال لم يوفِّرْ شيئًا من المال يختصر به غربته التي دامت حوالي ثلاثة عقود، فعلى قول المثل العامي: (ما جابته بقرة دحباج كلته)؛ إذْ لم تكن شرق أفريقيا إلا موقعًا لسدِّ الرمق بأفضل مما يسد الرمق في بلده.

عاد بعد تلك العقود من مهجره.. لم يوفر من اغترابه شيئًا يذكر، إلا التحدث بالرطنة السواحلية، - كما أخبر كاتب السيرة بذلك - .. رجل بسماحته وصفاء طويَّته.. مرح بشوش قنوع، نقي السريرة، واضح العلانية، لا المال ولا الثروة همُّه، ولا همه رغد عيش، ولا رفاهية جانب.. يكفيه الكفاف وراحة البال.. تزوَّج بعد أن باشر مهنته العضلية مع العمال، وطلَّق، ثم تزوج واستقل بأسرته، في بيت الأسرة الكبير (أي: بيت أبيه).

ومع أن التقسيم الطبقي وعوائده ما زال بمفهومه، فإن حياة الناس تتغير وتتلون، وتتكيف مع ما استجد في المجتمعات من مفاهيم وأعراف وتقلبات مندرجة تحت آنية الظروف المعيشة، فقد استجد في المجتمع منحى آخر غير ما كان في مراحله السابقة.. ساد الأمن والأمان في ظل نظام مدنيٍّ، يحتكم لقانون السلطة التي ساوت كل الطبقات الاجتماعية في الاحتكام إليه.

انتظم الأب مع العمال بأجرة يومية، ومن بعد، التحق بإدارة الاشغال العامة بالأجر اليومي أيضًا، ومن ثم توظف براتب شهري.

كان زواجه الثاني من أم صاحب السيرة، وقد شارف على الخمسين من عمره.. بداية رحلة أو طور من حياة هي الأجمل، فالزوجة هبة ونعمة من المولى عز وجل.. زوجة من طبقته، ومن أسرة عريقة في الفضل والتقوى والكرم، على وفق الإمكانيات المتاحة، على شحتها في ذلك الوقت، فكانت له نعم المعين في تخطي الكثير من متاعب الحياة ومطالبها.. عملت في مزارع أسرتها لتشارك وتعاون الزوج أعباء نفقات البيت، وتوفر الكثير من متطلباته.. وفرت له الراحة والسكون، في جو من الألفة والحنان، لا تكدر رسوخه وحشة، ولا تقلق استقراره ضغينة، وذلك قوام الأسرة السعيدة.. عاش الأبوان في وئام تام، وتمم ذلك الوئام أنْ رزقهما الله ابنًا يحمل ملامح الأب وسمته.. أولياه كل عنايتهما ورعايتهما، خاصة أنهما لم يرزقا غيره.

هذا الولد هو الدكتور سالم..

هي البداية.. بداية مسيرة صاحب السيرة، والمسيرة مرتبطة بالكيفية التي اكتنفت الشخص وأحاطت به ووجهته الوجهة التي تريد لمستقبله .. ربما هو من التجاوز الذي لا يجد الكاتب ما يعينه على مفردات تفي بالغرض

الذي يريد؛ لأن التخطيط للمستقبل أي مستقبل للطفل في واقعنا في تلك الفترة لا يوجد؛ لعدم وجود التأهيل للآباء لرسم الخطط المستقبلية، سواء لمسيرة الطفل، أو هيكلة الأسرة، لكن التوجيه يجيء عفويًا أو تلقائيًا من قاعدة "وينشأ ناشئ الفتيان منّا" "على ما كان عوده أبوه.." الأبوان غرسا في جوانح الطفل المحبة، والصدق والعفة، والأدب، والطاعة، والالتزام بالواجب، فكانا هما من أنار له الطريق لأن يسير بخطى حثيثة مطمئنة نحو ما يصبو إليه.

تولاه أبواه ..ولم يكونا ذا علم أو جاه من مال أو مركز يشار إليه، إنما هي القناعة والرضا، بما قسم الله وقدر.. عاشا في مجتمع، فلئن ساد فيه الجهل، فقد طما على الجهل في البيت مشاعر الحب والود، ودماثة الخلق، وحسن المعشر، ولين العريكة، ومن هنا استروح الابن السعادة والاطمئنان والاستقرار، أي الثقة بالنفس، وراحة البال.

فعامل الثقة بالنفس الذي أولته إيَّاه أسرته، لازمته طفلاً ويافعًا، ودفعته للنجاح المتواصل في كل مراحل حياته.

المراحل الدراسية:

- التحق بالتعليم الأساسي في مدرسة دمون من عام ٧٢-١٩٨٠م.
- حصل على دبلوم دار المعلمين والمعلمات عام ١٩٨٤م.
- بكالوريوس آداب تخصص اللغة العربية في جامعة عدن عام ١٩٩٣م.
- ماجستير في الأدب تخصص الأدب الأموي في جامعة حضرموت عام ٢٠٠٨م.
- الدكتوراه في الأدب والنقد تخصص الأدب الأموي في جامعة الملك سعود الرياض عام ٢٠١٦م.

عبقرية مبكرة:

في عام ١٩٨٤م -١٩٨٩م وهو في العقد الثاني من عمره، كانت له تجربة متميزة في السلك التدريسي، أعتقد أنه لم يسبقه غيره في مدارسنا الحديثة، ولم يخلفه أحد في تجربته، ونجح نجاحًا باهرًا في إبراز موهبته الفذة، وبرزت عبقريته وتميزه الذي رافق تلك التجربة، والتي هي أقرب للمستحيل في إنجازها في تلك الفترة الزمنية، أي مما لا يمكن النجاح فيه.

أخذ على عاتقه فصلاً من فصول مدرسة الأُخُوَّة (بتريم) من السنة الأولى إلى السنة الرابعة بكل المناهج والحصص، كتجربة تعليمية لن يقوم بها إلا ذو كفاءة عالية من خلق ورحابة صدر وتفهم لنفسية الطالب ومشاعره.

حالة الطفل أو الطالب في فصل.. طلبة وطالبات، في فصل مختلفين اختلافًا كبيرًا في التنشئة.. اختلاف في نوعية التوجيه الأسري وانتمائه الطبقي.. مختلفين في الذكاء والفهم، مختلفين في المسار الاجتماعي باختلاف الموقع، بمعنى آخر كل طفل – طالب وطالبة – له شخصيته المستقلة الخاصة به، بحيث يجب أن يعامل كل طالب بما يوائم رغباته أو مفاهيمه، على وفق تنشئته الأسرية.

لنلقي نظرة إلى طلبة فصول المدارس.. كل المدارس، من الصعب أن تجد طلبة الفصل في مستوى واحد في التلقي والفهم، ولا في الخُلُق والطوية، لاختلاف المشارب والتنشئة، ومن الصعب أيضًا أن يتفوَّق طلبة الفصل جميعًا تفوُّقًا لا رسوب فيه.. بمعنى لا تجد الراسب في درس من دروسه، من الصف الأول إلى الرابع.. طلبة جمعهم الفصل في المدرسة، وفرّقتهم التنشئة، سواءً المكتسبة من الأهل، أو من الفطرة، فأي قوة خارقة لمعلم يأخذ بمجاميع هؤلاء الطلبة في فصله إلى النجاح.

وإن استثنينا من طلبة وطالبات الفصل (٤٦ طالبًا وطالبة)، ثلاث حالات رسوب لطالب واحد وطالبتين في فصل دراسي، فلا يؤثر على النتيجة العامة للتفوق الحاصل.

للأسف الكثير من المعلمين اعتبروا التعليم مهنة أو حرفة.. عليه أن يلقي دروسه مقابل المرتب، والجيّد في المعلمين من استطاع تلقين الطالب فكرته وأوصل المعلومة إلى عقله، سواءً كان الطالب ذكيًا أو متوسط الذكاء، غير أنه لا يجهد نفسه في إيصال المعلومة للامبالي أو متدني الذكاء في الفصل..

صاحب السيرة اعتبر التعليم رسالة.. رسالة إنسانية بكل معاني الإنسانية وفحواها.. يجب أن تصل المعلومة لكل طالب من طلبته.. يجب أن يستوعبها الذكي والغبي؛ لأن للغباء أو اللامبالاة أسبابًا تتوارى وراء الدافع، فكان منه التحرِّي عن الأسباب لإيجاد الحلول بعد اكتشافها؛ لغرس بذرة المبالاة في الوجد، واقتلاع فهم مغلوط في نفسية الطالب، ليحل محله فهم آخر من الثقة، وليس ذاك بالأمر الهين، فلا يقدر عليه إلا ذو موهبة وطاقة كبيرة من جهد وعناء وصبر.

كان هذا المعلم، بشخصية مكتملة، وبكفاءته الخلقية والنفسية والعلمية، استطاع أن يسبر غور كل طالب في الصف، وفهم خصائصه ورغائبه ومشاكله.

لم تكن له دراية أو رؤية خاصة أو عامة مسبقة عن الطلبة والطالبات على وفق انتمائهم وتنشئتهم، إنما لديه قوة الإرادة والمثابرة المتأنية ليجعل منهم نموذجًا يحتذى به في المدارس رغم فروقات الانتماءات للطلبة وتباينها.

من أوليات مهامه مع طلبته، أنه لم يحسس أحدهم بما درج عليه بعض المعلمين إن لم أقل أكثرهم، بأن هذا الطالب غبي، وذاك أبله، وآخر ذكي، بما يستشعر البعض منهم الشعور بالنقص، أو الإحساس بالدونية.. أحسَّ الجميع.. جميع الطلبة أنهم توَّاقون للمعرفة، وأنهم متساوون في التلقي والفهم مساواتهم في الصف.. غرس الثقة في جوانح الطلبة.. كل طالب على حده بمتابعته وتنمية مداركه.. بذل محاولات مخلصة جمة، لا يكلُّ ولا يملُّ ولا يتضجر، سواء في قاعة الفصل أو في غير قاعة الفصل.. تحرَّى عن الطالب السرحان وقت الدرس.. عن رغباته.. عن مشاكله الأسرية.. اعتبره زميلاً أو صديقًا عزيزًا عليه.. تم تشويقه للمعرفة، ليفهم الدرس بعيدًا عن القسوة، أو السخرية، أو النقد الجارح، فضلاً عن الضرب.

توثقت العلاقة بين المعلم والطالب.. علاقة ثقة ورابطة من أوثق الروابط النفسية والروحية.. علاقة تتراوح بين مساعدة الطالب في الدرس، واعتماده على فهمه من ناحية، وعلاقة السلوك العام للمعلم ورؤاه في سلوك الطالب، الذي يهيئه للمحاكاة أو التقليد بل النهج العام للطالب.

هي العبقرية الفذة التي جانبت سلوك الكثير من المعلمين.. هي العبقرية التي أرست للتاريخ.. نعم أقول للتاريخ.. لتاريخ مدارسنا في تبني فصل من الفصول الدراسية أربع سنوات لأربع مراحل، رافق النجاح لكل الطلبة.

من أسباب فشل بعض الأسر في التربية، المفاضلة بين الأولاد.. التزكية والتمجيد لولد والذم والتحقير لآخر، وترديد صفات التفاضل لولد، وصفات الخسة والنقيصة للآخر، مما يسبب الإحباط للطفل، بتجسد حالة أو حالات من الهلع والخوف في مسيرته الدراسية، والخوف مصدر الكثير من العلل، والطفل في كل الأحوال بحاجة إلى العطف والمودة، والمدح والثناء من والديه وذويه والمقربين إليه، ولذلك فإن وراء الخلل في رؤى الابن ومسيرته، والموسوم بالنقيصة، تكرار ما يسمع بأنه سلبي فاشل، فيقنع نفسه بالفشل، ومن ثم لا يبالي نجح أو رسب في فصله، لاقتناعه بالوصف أو المفهوم الذي عرفه في موقع نشأته.



ألَمَّ المعلم بحاجة الطالب لنوع من التكريم محاط بعاطفة صادقة، ومودَّة مخلصة؛

لتجلية ما علق بـــذهن الطالب وفؤاده من انكســـار ونقـيصة.. فانجلت الغمة، وشـعر الطالب بـذاته، فكان لمستواه التعليمي النجاح، بفضل معلم نذر نفسه لجلاء ما علق بذهنه.

صاحب السـيرة، من الأقـليات في الهيئات التعليمية؛ إذ اعتبر التعليم رســـالة، في تلك المرحـــلة وفي غيرها من المراحل، فحالفه التوفيق.

هو التبرير المنطقي لنجاح صاحب السيرة في مسـيرته مع الصف من أولى إلى رابعة.

بعد تخرج الصف الرابع.. الصف النموذجي الذي رعاه وهيأه للنجاح معلم واحـد، اقـترح هذا المعلم على مدير المدرسة.. مدرسـة الأخوة (حـينها كان الاسـتاذ القـدير خميس عوض حمدون).. مقـترحًا بـفعاليات عيد الصف النموذجي بـعد التخرج.. المقـترح كان من ١١ صفحـة، وتجنبًا للإطالة اخترنا نموذجًا لتلك المقترحـــات، تفي بالغرض؛ لنفهم حـصافة المعلم ونظرته لأهمية المشـاركة العملية للطالب؛ لتكون بمثابـة شـــهادة نجاح لطلاب الصف فيما أُسند لكل طالب أو مجموعة من طلبـة الصف عمليًا ونظريًا بـكفاءة ونبـوغ، يجسـد للحـاضرين جهد معلم واحد في كل حصص المنهج العلمي والعملي.

بعض المقترحات :

- إقـامة معرض مدرسي في المواد والجوانب كافَّة، يحتوي على اللغة العربية الرياضيات - التربية الطبيعية - التربـية الدينية - الرسم..
- إعداد جلسة أدبـية وإدارتها وتقـديمها من قبـل تلامذة الصف.
- إعداد مسابقة مدرسـية في الدروس في نطاق مجموعات الصف.
- إصدار نشرة محررة من قبل تلامذة الصف.
- توثيق عيد الصف للذكرى والاستشهاد بذلك في نموذجيته.
- عرض نشاطات لا صفية للتلاميذ في التجليد - النجارة.
- كتابة أبيات شعرية - كتابة مقالات.
- كتابـة بـعض التعاريف والمصطلحـات العلمية التي توصل إليها التلاميذ.
- عرض لجان الصف.. مجموعات الصف - هيئة رئاسـة الصف - نشـاطات الصف - كيفية سـير العمل اليومي والأسبوعي والشهري في الصف.
- الحث والإشراف المبـاشر والمســتمر من قبـــل إدارة المدرسة حتى يحس التلاميذ بـأهمية الحدث؛ لرفع الجانب المعنوي للتلاميذ.

هذا جزء من مقترحات المعلم لمدير المدرسـة، وبـما تعنيه جميع المقترحات، التي لم نأتِ على أكثرها (١١ صفحة من القطع الصغير)، إن نجاح الفصل النموذجي ليس تسـويقًا أو ادِّعاءً، أو زعماً.

قوبل الاقتراح بالقبول، وتم تنفيذه بكل فقراته تقريبًا.

هي مرحلة أبـرزت عبقـرية معلم، وريادته في تخصصه، ومع الارتياح الشـديد من قبـل الآبـاء، وكل من حـضر حفل عيد الصف النموذجي بعد التخرج، أو سـمع عنه، فكانت الإشادة والثناء من مدير عام إدارة التربية والتعليم بالمحافظة (الدكتور صالح عرم)، كما تمت الإشادة بنجاح التجربـة من قبـل وزير التربـية والتعليم بـالجمهورية (جمهورية اليمن الديمقراطية) برسالة خطية إلى صاحـب السيرة، قلَّما يحصل عليها معلم في الفصول الأساسية.

كرَّمتْه الدولة في عدن بجائزة الدولة التقديرية للمعلم في عيد العلم، كرائد متفوق في تجربـــته النوعية، في قـــيادة الفصل النموذجي.

كان لنجاح الفصل النموذجي صدى في كل الأوســاط التعليمية، مما سهل للمعلم صاحـب التجربـة النموذجية الالتحاق بجامعة عدن، وحصل على البكالوريوس آداب وتربية (تخصص اللغة العربية).

اكتساب خبرة ومعرفة:

كان لتحصيله العلمي، قد فتح آفاقًا جديدة، اكتسبها من خلال التعرف على الكثير من الزملاء، والمدرسين، بل والكثير من الأسر والشخصيات المثقفة ثقافة عالية، وإن تكن النشأة لبعض الأسر في الأغلب من موطنه، والتواصل في حد ذاته ثروة اجتماعية وفكرية وتربوية أيضًا، ومع تخرجه في جامعة عدن، استقبلته جامعة حضرموت، معيدًا في كلية الآداب والعلوم والتربية، ومدرسًا في كلية الآداب.

وفي المكلا كانت آصرة الصداقة القوية بكل معانيها وعلائقها الإنسانية والفكرية، وبما أن صاحب السيرة بنبل شمائله ودماثة أخلاقه، وتواضعه وتمسكنه في غير ضعف، مع من يعرف ومن لا يعرف.. يندمج مع الكل، وتبدو سعادته بالحديث معهم والاستماع منهم، يستهل حديثه بابتسامة مودة، منصتًا لمحدِّثه، أيًّا كان الحديث في غير المواضيع المبتذلة.. لا تفارق الابتسامة شفتيه.. استحوذ على المجاميع من طلبته وزملائه، ومن تعامل معه في إدارة أو في قاعة محاضرة، أو في سوق وفي غيره، وربما زمالة رحلة تنقل في مركوب تعارفا لساعة أو ساعات، فكل من عرفه، ادَّعى صداقته عن قرب، وله ذاكرة قوية لمن التقى به ولو لفترة قصيرة، فلقيه بعد فترة طالت أو قصرت، أو لقي أحدًا من معارفه بالنسب، أو بالمواطنة، فهو قد حفظ له وُدَّ المزاملة ورفقة الطريق.

لم يجادل أو يخاصم في غير تخصصه، يقبل بما يسمع دون تأفف أو تبرم.. لم يتهور أو ينحرف مع من يحاور، اقتنع بما سمع أو لم يقتنع، يظل محتفظًا بنبله وحصافته واحترامه لغيره، بلطفه وحرصه وبشاشة وجهه.

كان وجوده في المكلا - مقر عملي حينها قد هيأ لي معه لقاءات كثيرة رغم انشغالي، أتشوق للقائه، تشوق مريد لشيخه، ففي كل لقاء يتحف كلٌّ منَّا صاحبه بمعلومة من صفحات كتاب، أو من عمود في صفحة من صحافة، أو سرد حدث من الأحداث المستجدة - حينها - أو مناقشتها، لغرابتها على مفاهيمنا، وقد اطمأن الواحد منا في موقعه، وربما احترز في التفاصيل رغم انفرادنا أو بمعيتنا ممن نثق فيه، لترسبات فهم لمرحلة أو طور سابق ما زال في المخيلة.

توثقت الصلة التي كانت بيننا ورسخت بأكثر مما كانت عليه من ود واحترام موصول بمعرفة الأب، وفي أكثر من اتجاه، وخاصة الاتجاه المعرفي أو الذهني، سواء كان ذلك في حاضرنا، أو ماضينا القريب والبعيد.

سعى الدكتور صالح عرم لدى الشيخ المهندس عبد الله أحمد بقشان، فكانت المنحة الدراسية من جامعة الملك سعود بالرياض، وعرَض قبول جامعة الملك سعود (١٤٢٩/ ١٤٣٠هـ) على إدارة جامعة حضرموت (كلية التربية بالمكلا) للموافقة على سفره لدراسة الدكتوراه في تخصصه (الأدب الأموي)، غير أن رئيس الجامعة تلكأ في السماح له بالسفر، ومن بعد طلب من صاحب السيرة تعهدًا والتزامًا من قبل ضامن بسجل تجاري معمَّد من قبل الغرفة التجارية، يتحمل كافة الرسوم الدراسية في المملكة.

وبتاريخ ٢٢/ ٢/ ٢٠٠٩م كان توقيعه على التعهد والالتزام، وتم تعميده من قبل الغرفة التجارية والصناعية م/ حضرموت.

التحق بجامعة الملك سعود بالرياض، وحصل على الدكتوراه عام ٢٠١٦م.

سماحة صاحب السيرة ونبله وموهبته التي امتاز بها على غيره وتفوق بها على مَنْ سواه من طلبة صنوه، تتجلى وتبرز في جامعة الملك سعود بالرياض، فقد حاز القبول والرضى من قبل المسؤولين والزملاء في الجامعة، فأسند إليه في أثناء تحصيله للدكتوراه مهام إدارية ووظيفية، هي كالآتي:

- المشرف الطلابي لطلاب مؤسسة حضرموت للتنمية البشرية بجامعة الملك سعود.
- العمل في وحدة الدراسات العليا بقسم اللغة العربية بالجامعة.

- تدريس مقرر التحرير العربي (١٠٣) عرب في قسم اللغة العربية، وكلية العلوم التطبيقية، وكلية الحاسب الآلي، وكلية الصيدلة بالجامعة.
- تدريس مقرر المهارات اللغوية (١٠١) عرب في كلية السياحة والآثار، وكلية الهندسة، وكلية إدارة الأعمال، وكلية الآداب، وكلية علوم الرياضة بالجامعة.
- تدريس مقرر مصادر الدراسات الأدبية واللغوية.
- تدريس مقرر الأدب المقارن.
- تدريس مقرر البلاغة العربية (علم البيان).
- تدريس مقرر البلاغة العربية (علم المعاني).
- تدريس مقرر البلاغة العربية (علم البديع).
- تدريس مقرر الأدب الإسلامي.

المؤتمرات والندوات:

وفي أثناء تحصيله العلمي في جامعة الملك سعود كانت له مشاركة (حضور) في:

- المؤتمر العالمي لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها (جامعة الملك سعود).
- تحقيق الجودة والتميّز في تدريس المتطلبات الجامعية من مقررات الثقافة الإسلامية (كلية التربية جامعة الملك سعود).
- المؤتمر الدولي الأول لريادة الأعمال..
- المؤتمر العلمي الأول لطلاب وطالبات جامعة الملك سعود.
- التميّز في برنامج الدراسات العليا: التحديات والحلول - عمادة الدراسات.
- مؤتمر التقنية والاستدامة في العمران - كلية العمارة والتخطيط-.
- ندوة الابتزاز (المفهوم - الأسباب والعلاج) كلية التربية.
- ورشة عمل مخصصة للبرنامج الإحصائي الشهير ساس - عمادة التعاملات الإلكترونية والاتصالات.
- الملتقى الإداري - عمادة تطوير المهارات.
- مؤتمر التطبيقات المعاصرة للحسبة - كرسي الملك عبد الله للحسبة - كلية التربية.
- ملتقى كبار قراء العالم الإسلامي (مدارس واعلام) - كرسي تعليم القرآن -.
- ندوة إعداد معلم المرحلة الابتدائية (رؤى وتطلعات).
- المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية - كرسي القرآن الكريم وعلومه.
- المؤتمر السعودي الدولي الثاني للنشر العلمي - عمادة الدراسات -.
- ندوة التخطيط والسياسة اللغوية: تجارب من الدول العربية - مركز الملك عبد الله لخدمة اللغة العربية.

مشاركة في الندوات:

لصاحب السيرة مشاركة أيضًا أثناء دراسته في جامعة الملك سعود وهي على النحو الآتي:

- معرض تراث الشعوب السادس - إدارة المنح ورعاية الطلاب الوافدين.
- دورة مهارات الكتابة الصحفية - مركز التدريب اللغوي - كلية الآداب.
- دورة كيف تكون محاورًا ناجحًا - مركز التدريب اللغوي - كلية الآداب.
- دورة تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها - برنامج العربية للجميع.

من الناحية الأخرى في المجال الاجتماعي كان له في أثناء وجوده في المملكة صلات وارتباطات أخرى تعدَّت ارتباطه بالزملاء والمشرفين والأساتذة في الجامعة إلى نخب المجتمع السعودي في الرياض وجدَّة من مثقفين، ورجال أعمال، وغيرهم، فكان اسمه يتردد في أروقة المكتبات، وقاعة المحاضرات، وفي لقاءات خاصة، دون معرفة سابقة، أو بمعرفة سطحية، وبنبل شمائله، استحوذ على كثير من الأصدقاء والأصحاب من غير ممن ارتبطوا به في الجامعة.. ثلة مهدت له سبل التعرف، ويسرت له مصادر المعرفة، بل أثرت مكتبته بكثير من المطبوعات القيمة، وكان لي منها نصيب بما اعتقَد أنه من تخصصي. وكنت

أرفض بعض طلباتي منها إلا بقيمتها، فكان يحلف أن الكتب أُعطِيَتْ له مجانيَّة كهدايا، وليس في حاجة لها.

تجاربه وخبراته في مجال تخصصه:

سبق أن أشرنا إلى التجربة النوعية في قيادة وتدريس فصل من سنة أولى إلى رابعة، ولعلها مرتكز تجاربه، وهيأته لانطلاقه المعرفي والتربوي، وأساس خبراته في تخصصه التعليمي فهو:

- معيد في كلية الآداب والعلوم والتربية جامعة حضرموت.
- مدرس في كلية الآداب جامعة حضرموت.
- أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية - كلية التربية سيئون (حضرموت).
- تدريس الأدب الجاهلي (١)، (٢).
- الأدب الإسلامي والأموي.
- الشعر العباسي. - الأدب الأندلسي.
- أدب عصور الدويلات المتتابعة والنهضة.
- طرائق تدريس اللغة العربية (١)، (٢).
- التربية العملية في التدريس.
- اللغة العربية (١)، (٢) لغير المتخصصين في كليات (التمريض، العلوم الإدارية، الآداب، التربية، العلوم، البنات) جامعة حضرموت.
- تدريس مقررات (المهارات اللغوية، طرائق التدريس، إدارة الصف) في نظام الدبلوم التربوي بجامعة حضرموت.
- تدريس مقرر دراسات في الأدب القديم (مساق الماجستير - كلية التربية سيئون).
- تدريس مقرر البلاغة: اتجاهات وقضايا (مساق الماجستير - كلية التربية سيئون).
- تدريس في جامعة القرآن للبنات (سيئون).

مهام إدارية ووظيفية:

- سكرتير ومقرر مجلس قسم اللغة العربية بكلية جامعة حضرموت.
- سكرتير ومقرر مجلس كلية التربية بالمكلا جامعة حضرموت.
- سكرتير ومقرر مجلس كلية الآداب جامعة حضرموت.
- عضو اللجنة الإعلامية في ندوة (الماء في حضرموت) جامعة حضرموت.
- التصحيح اللغوي لمجلة جامعة حضرموت (العلوم الإنسانية).
- الإشراف على التدريب العملي لطلاب قسم اللغة العربية.
- رئيس لجنة الجودة والتطوير في قسم اللغة العربية بكلية التربية - سيئون.
- عضو مجلس الدراسات العليا بجامعة حضرموت.
- عضو مجلس الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة سيئون.
- نائب عميد كلية التربية للدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة سيئون.
- عضو لجنة كلية اللغات جامعة سيئون.

الإنتاج العلمي:

- كيف تقدم حصة دراسية ناجحة (بحث منشور في مجلة الرسالة التربوية - مكتب التربية والتعليم حضرموت).
- تأثير المعلم في سلوكيات طلابه (بحث ملقى في ملتقى المعلمين حضرموت).
- أنماط بناء الصورة في شعر جميل بثينة (رسالة الماجستير - جامعة حضرموت).
- الصور الذوقية في شعر جميل بثينة (بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الرابع لطلاب الدراسات العليا بجامعة الملك سعود).
- السخرية في الشعر الأموي (رسالة الدكتوراه - جامعة الملك سعود - الرياض).
- حسين محمد البار: سيرته الذاتية واسهاماته المهنية والتنويرية (بحث مقدم إلى ندوة حسين محمد البار) - المكلا.
- اللغة العربية في مواقع التواصل الاجتماعي (بحث مقدم في الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية - مكتب الثقافة بالوادي والصحراء/ كلية التربية سيئون)، (٢٠١٧م).

- التطوع والاستثمار في مجال اللغة العربية (بحث مقدم في الاحتفال للغة العربية - مكتب الثقافة بالوادي والصحراء/ جامعة سيئون ٢٠١٨م).

- الدوال السيميائية في مؤلفات الجاحظ (بحث مقدم إلى المؤتمر الرابع بجامعة حضرموت (دور العلوم الانسانية في تحقيق التنمية المستدامة) - المكلا.

- تاريخ اللغة العربية ومكانتها بوصفها لغة الوحي الإلهي ولغة العلم (بحث مقدم إلى الملتقى الثالث عشر بدار المصطفى للدراسات الاسلامية/ تريم (اللغة العربية: مكانتها ومزاياها وحاجة الأمة إليها عمومًا والمسلمين خصوصًا).

مهام أخرى في غير تخصصه :

- عضو اللجنة الاستشارية للزواج الجماعي.

- رئيس تحرير مجلة فرحة التي تصدر عن اللجنة الإعلامية للعرس الجماعي بدمُّون.

- له مساعٍ كبيرة لرفد ميزانية العرس الجماعي من أهل الخير، للثقة التي يتمتع بها.

- بوساطته، وبحكم علاقته بالشيخ المهندس عبدالله أحمد بقشان، فقد تكفل الشيخ بقشان بكل تكاليف الزواج الأول المعلن عنه، وهو عشرة مليون وخمسمائة وأربعين ألف ريال يمني، وتم دفعها للجنة الزواج الجماعي.

- عضو فاعل في إشهار نادي القراءة بدمُّون.

- رئيس تحرير الكتاب التذكاري عن الفقيد أحمد عوض باشاخة.

- رئيس تحرير الكتاب التذكاري عن الفقيد سليم سعيد باشاخة.

- عضو فاعل مع الآخرين في لجان الصلح بين الأفراد أو الفرق الرياضية، والفرق الشعبية للتراث.

- له لمسات قوية ومؤثرة في الخطب والمقالات المتنوعة في محافل البلدة.

- مدارس النجاح الخاصة بتريم طلبت منه إيصال تجربته الناجحة في الفصل النموذجي، فكانت محاضرته القيمة لمدرسي وطلبة وادارة مدرسة النجاح عن التجربة الفريدة، وقد أقدمت على التجربة في مدارسها.

- إعداد وتقديم برنامج تليفزيوني في شهر رمضان (١٤٤١هـ) مع الأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد بن شهاب.

تفاعل مع مجتمعه:

تجارب وخبرات معرفية وعملية، ابتدأت بتجربة نوعية، فتكشفت أمامها آفاق للفهم العلمي والعملي، بمحصلات نوعية لارتباطه واحتكاكه بمجتمعه والتفاعل معه في كل أطواره.

شيء لا يختلف فيه، إن حياة الناس تتغير وتتلون تبعًا لما يستجد في المجتمعات من مفاهيم وأعراف وتقلبات في السياسة أو الثقافة العامة أو الرؤى المندرجة في ظل تلك التغيرات والتقلبات، وهو مما يمكن أن تؤثر تأثيرًا مباشرًا أو غير مباشر في حياة الأشخاص، غير أن البعض يحتفظ بخاصيته المثالية في السلوك الذي يوجهه الوجهة التي من طبعه وسليقته، حتى إن أبدى التظاهر بقبول بعض المستجدات التي لم يقتنع بها فكره وطبعه.

صاحب السيرة، عرف نفسه وعرف من حوله.. تفهم الواقع الذي يعيش فيه، في كل طور أو مرحلة.. أعطى كل مرحلة من المراحل المتقلِّبة في الفهم الاجتماعي والسياسي بما يليق، مما لا يجانب المثالية في السلوك.

لهذا احتفظ بخاصيته في كل مرحلة، واحتفظ بمحبة كل من عاشره، مما يعني أنه وفيٌّ لولائه ومفاهيمه المستقاة من عقيدته.

متانة العلاقة مع صاحب السيرة في المرحلتين من المراحل الثلاث التي عاصرْتها معه، فهي مع تقلباتها السياسية والاجتماعية والرؤى المذهبية الدينية، قد طمت على كل مرحلة سابقة في تاريخ مجتمعنا، للتنوع الشكلي والنوعي، فقد كان يربأ بنفسه أن ينتسب لفريق أو تكتل أو تجمع تحت أي شعار أو انتماء.. ظل محتفظًا بود واحترام للكل، حتى ليُخَيَّل لكل فريق أو تجمع أنه معه، أو من المنتمين لأنصاره، ولا يعني هذا أنه كان صاحب وجهين، إنما هو

محتفظ بخاصيته في فكره ورُؤَاه، مع احترامه لكل صاحب مذهب أو رؤية أو انتماء سياسي أو عشائري.

نجتمع معًا منفردين لساعات، يتطرق اجتماعنا لنقاش حول بعض المستجدات .. له رؤية خاصة، يعقبها استياء وتضجر من بعض التصرفات لذوي الولاءات أو الانتماءات التي تصب في قالب الفتنة والشحناء، والزهو والتفاخر بالأجداد والآباء دون أن تكون لهم مفخرة الآباء والأجداد بين أفراد المجتمع، لا يستطيع أن يبرزها علانية، وبما أنها من خصوصيات ذوي الانتماءات المتعددة، فهو إن أسر لي بتضجره وتبرمه من سلوكيات البعض، فقد اعتبرها نتوءات في مرحلة يمكن تجاوزها في مرحلة أخرى، لأنها هشَّة في مكوناتها، لا تمتلك مكونات بقائها، فلِمَ يحشر نفسه في ولاء أو عداء مع من تجاوز مفاهيم عصره، ولم يستوعب التطور القائم بين العلاقات الاجتماعية بين شرائح المجتمع وقيمه.

مواقف معه لا تنسى:

لي معه موقف أو مواقف لا تبارح مخيلتي في حياته وبعد مماته، فقد كان يشعرني بشيء من مخصصات المحاضرات في جامعة الملك سعود، وأشعرني بموعد الامتحان لمناقشة الرسالة، وقديماً قالوا: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وبما أنني قليل المعرفة في علم البلاغة وما تفرع منها وما انتسب إليها، فإني في حالة من الارتباك من رسالة الدكتوراه في مبحث السخرية في الشعر الأموي، أراها بمعارفي عَصِيَّةً مستعصية، قد تخذله ذاكرته، أو تبهره قاعة المناقشة ومن يتولاَّها، ومع أنني من جانب آخر أطمئن نفسي أنه تخصص في ذلك وهو أهلٌ لذلك، وكنت قلقًا منتظراً النتيجة بفارغ الصبر، وما أن اتَّصل بي مبشراً بنجاحه انهمرت الدموع مدرارة تهمي في الخدود، وترتبد الكلمات في الحلق فرحة جذلة، وكنت أردِّد: ما تمنيت رد ميِّت إلا رد والدك لأهنئه بنيل وحيده للدكتوراه.

وموقف آخر، وقد شرعت في تسويد كتابي [دمون قراءة في ماضيها والحاضر] وكان همي أن أختصر القراءة، بعد أن أربكت أبحاثي عدم المراجع التي يمكن بها أن أستكمل بحثًا ما من عناوين القراءة، والمراجع التي أردت الحصول عليها .. البعض منها مخطوطة مع الضنين بها، وهي لمؤلف مؤرخ وأديب وفقيه حضرمي، أرى الإشارة إليها كمصدر في كثير من المطبوعات التي تتحدث عن تاريخنا، والبعض مراجع عامة لم أستطع الحصول عليها. وفي عودته لمواصلة دراسته أو تحضيره للدكتوراه في المملكة العربية السعودية، سأل عن تلك المخطوطة، فوجدها بمعية أحد الزملاء من الدكاترة من ساحل حضرموت، ولم أطمح حينها في امتلاكها بقدر تصفحها لأكمل بها بحثي من مصادره، لكنه استأذن زميله ليصوِّر تلك المخطوطات، ولم يمانع، بادر زميله بإشعار ذويه في الساحل – المكلا – ليتسلمها صديقنا أحمد عابد مقرم، وتم تصويرها.

النسختان (ج٢ وج ٣ من كتاب بضائع التابوت للعلامة عبدالرحمن بن عبيد اللاه السقاف) المخطوطة، التي تم تصويرها من قبل الأخ مقرم، وجدت فيها اسماً أعرفه من مؤلفاته ومن تحقيقاته ولم أقابله، فما إن عاد إلى البلد قلت: إن عليها اسم الدكتور محمد يسلم عبدالنور، ربما يكون عنده الجزء الأول، فقال زميل وصديق ومعرفة، فاتفقنا على مقابلة عبد النور، وهي أول معرفتي به، وربما كان عبد النور مرتابًا في معرفتي بمؤلفاته وتحقيقاته فذكرت له مؤلفه: الحياة العلمية في حضرموت، وتحقيق الجزء الثالث من كتاب قلادة النحر لبامخرمة، وقلت شوّه التحقيق الأغلاط الشنيعة المطبعية في الهوامش، فانزاح ارتيابه.

معرفتي بالدكتور عبدالنور من ضمن فضائل الدكتور سالم، وأنا اسطر هذه السيرة وقد حصل عبد النور على الأستاذية (بروفيسور) ولمثل هؤلاء يفتخر ويزهو من تعرف بهم.

في شهر رمضان ١٤٤١ هـ ضمَّنا لقاءٌ في نهاية النصف الأول منه، وتطرقنا للعرس الجماعي، ثم إلى الفقيد سليم باشماخة، وكانت الفكرة منه أن يمتدح دوره في اللجنة الاستشارية للعرس الجماعي، وبعد أيام أرسل لي صورة من مقال له لمجلة فرحة التي تصدرها لجنة العرس الجماعي

ويرأس تحريرها، وكعادته، اختصر إيجابيات سليم رحمه الله، ولكن بإسهاب قد لا تقبله المجلة لمحدودية أبوابها وصغر حجمها، حسب معرفتي، وقلت: المقال طويل لن تقبله مجلة فرح كاملاً، فقال: بل كان إصراري على نشره كاملاً دون حذف كلمة منه، وبعد موته سألت الأخ لطفي بامطرف وهو إعلامي اللجنة للزواج الجماعي عن مقال الدكتور سالم، فقال: نشر كاملاً.

في اجتماعنا في اللجنة الاستشارية للزواج الجماعي، هو الأخير معه (لمهرجان العرس التاسع) وجائحة كورونا قد أربك برنامج الزواج، كما اختل نظام التجمعات عامة في البلاد، وكانت للدكتور رحمه الله، وجهة نظر، أن مهرجانات الزواج الجماعي لم تعد احتفالاً بزواج، وإنما قاعدة تهيء الموهوبين في الأداء للأدوار الثقافية والإعلامية سواءً في التمثيل أو الأناشيد أو الشعر وغيره، وهي لفتة منه جديرة بالتأمل لبروز كوادر ما كان لها أن تبرز مواهبها في غير مهرجانات الزواج الجماعي بآليته تلك، ولهذا كان يحبذ تأجيل الزواج عن موعده، تضامنًا مع غيره، حتى انحسار كورونا. لكن سؤال طُرِح، لم نستطع الرد عليه.. متى سينحسر الوباء؟ وهو في ازدياد مرعب عالميًا، وبتهويل إعلامي محلي.

غفر الله لسالم، وصدرت مجلة فرحة، وفيها مقال الدكتور عن المغفور له بإذن الله سليم باشامخة بعنوان (المستشار الناصح)، وشرعت في القراءة، فإذا بالدموع تنحدر حارة مدرارة من عيني بتلقائية.. لم أستطع قراءة المقالة كاملة من المجلة، وهي في هاتفي، قبل أن تكون في المجلة.

لأن الدكتور سالم قد توفاه الله.

قبل وفاته، طلب مني ثلاث نسخ من كتابي (دمون/ قراءة في حاضرها والماضي) لإهدائها للبعض من رفاقه، وأرسلت النسخ مع ابني حسب طلبه، وأشعرني أنه تم تسليم نسخة لأحدهم، وباقي النسخ لزملاء في المكلا، وأخبرني بأسمائهم.

بعد وفاته بأيام، زارني ابنه محمد (حفظه الله) حاملاً النسخ المتبقية قائلًا: لا يدري لمن كان سيهديها، وبما أنني أدري، فقد أرسلت النسخ لمن أراد إلى المكلا حسب رغبته.

زيارتي لبيته في أواخر شهر رمضان للتهنئة بحلول الشهر حسب العوائد المتبعة في البلدة ليلة ختم مسجد النور ليلة ٢١ من شهر رمضان.. أطلعني - عليه رحمة الله - بما تم من إضافة من ضمن أرضية بيته.. غرفة استقبال رائعة بذوق فني رفيع في اختيار التشكيلات والنقوش، ودار بي في ملحقات الغرفة، وبجانبها غرفة المكتبة التي خلَت حينها من الأبواب ومن رفوف الكتب فضلاً عن الكتب، هي في نهاية التشطيب، وأعجبت بها، وأمنيتي كانت أن أجدها قد استوفت معنى المكتبة بما حوته من كتب.

وفي يوم وفاته كنت في تلك الغرفة.. غرفة الاستقبال، وكنت أنظر إلى غرفة المكتبة بحسرة، حيث بقيت كما رأيتها.. اغرورقت عيني بالدموع، مع أن دموعي حينها متواصلة كلما تذكرت سالمًا وهو على يميني في تلك الغرفة، بابتسامته الودودة، وكلما رأيت طفليه، خاصة ابنه أحمد الذي ظل بابتسامة والده، وبراءة الطفولة، وأدب الأسرة ، يقبل أيدي المعزِّين في وفاة والده.

هذا جزء من سيرة نابغة من نوابغ بلدنا.. صديق صدوق، برؤية محب، ولم تكن صداقتي معه صداقة مميّزة من نوعها لشخصي، إنما هي صداقة وصلة ورابطة حميمية لكل من عاشر وزامل وصاحب ورافق هذه الشخصية المميّزة والودودة في صلاتها مع غيره، وإن كان لبعض الصداقات أو الصلات سمة أو صفة خاصة.

ربما يتساءل غيري كما تساءلت من قبل عن كتّاب السير، أنهم يتجنبون ذكر السلبيات للشخص، نعم إنه بشر وارد عليه الخطأ والنسيان، لكنه الخطأ الذي لا ضرر ولا أذية فيه لغيره، غير أنه لم يبرأ من حاسد وشانئ، أظهر حسده وشنآنه أو أسرّه، ولقد كنت أستبعد ذلك من أن يكون له مبغض، وهو الذي لم يبغض أحدًا، ولم يسئْ لغيره في قول أو فعل، لكنني اكتشفت بعد صدور كتابي دمون قراءة في تاريخها...، بمقدمة للدكتور - غفر الله له

- أسهب في التقديم، وقد راجعته في الاختصار ، إلا أنه أصر على ما كتب لقناعته، ففوجئت بمن أضمر في مكنونه البغض والحسد، بشتيمته للكتاب وكاتبه وخص بأقذع الشتائم لمن أشاد به، وهو يعني كاتب المقدمة.

لم أجسر وأجرؤ على أن أنقل إليه ما سمعت، فبادرني هو بعد مداراة ولطف، بابتسامته المعهودة، ولباقته الواضحة الميمونة، لينقل ما سمع بتورية وتخفيف، فأشعرته بكل ما سمعت، والتقت معًا ضحكتان تبرر ما تم حجبه عن الآخر من الطرفين.

غير أن ما قيل من مذام صدر ممن لا يؤبه له، ولا وزن له في أوساط المجتمع العلمي أو الفكري، إلا في مراتب التعصب الأجوف الذي يخطو بخطوات ضد الزمن، أو جاهل متهور في ميوله وتلقيه، بطغيان أهوائه وولاءاته.

وفاته:

قبل يوم من وفاته اتصلت به هاتفيًا أسأل عن صحته من حمى لازمته، فطمأنني، وقال إنه ذهب إلى مستشفى سيئون لعمل أشعة - خوفًا من كرونا - وإن الأشعة سليمة من المخاوف، وفي مركز الحميات بعيديد (تريم) طمأنوه أن كل التحاليل إيجابية، إلا أنه اشتكى من عدم الشهية لأي أكل أو مشروب، وفي الواقع أنني لم أشك مطلقًا في أنها حمى من الحميات العابرة التي تطال الكثير، وإن تنوعت في تلك الفترة، ولم يدر في خلدي أنها آخر مكالمة.

في صباح اليوم الثاني فاجأني زوج ابنتي صالح العبد باشامخة هاتفيًا بوفاة صديقه الدكتور سالم منتحبًا باكيًا، وأنا أستوثق منه الخبر الذي باغتني وأفقدني اتزاني، واستسلمت لقضاء الله وقدره.. ذرفت الدموع.. لا أدري كيف أصل إلى بيت الفقيد وأوصال جسمي ترتجف.. زاغ البصر.. جمد دمع العين، لم أميّز بين مفتاح السيارة من غيرها، ناديت الأولاد.. الكلمات تختنق في الحلق.. لا أستطيع أن أستجمع قواي وأرد على التساؤل المرتعب من الابن.. بعد جهد جهيد بكلمات متقطعة، أقول: إلى بيت سالم بامؤمن.. سالم توفاه الله، وانسابت الدموع.

صباح هذا اليوم أدى صلاة الفجر إمامًا بأسرته في بيته، صافح وقبّل يد أمه كعادته صباح كل يوم، واستسلم لغفوة بعد صلاة وذكر، ولم يصحُ بعدها.

رحل عنا سالم.. رحل عن أهله وذويه.. رحل عن أصدقائه ومحبيه.. رحل عن البلد ومن فيه.. رحل عن الجامعة.. رحل عن طلبة هم في أمس الحاجة إليه.

وُورِيَ جثمانه الطاهر في مقبرة العشيرة ضمن مقابر بشار (الشرقية) عصر يوم الثلاثاء بتاريخ ١٧ شوال سنة ١٤٤١هـ، الموافق ٩/ ٦/ ٢٠٢٠م، عن عمر ناف عن السبعة والخمسين عامًا، وخلف من الأولاد محمدًا وأحمد وعبد الله، وصالحًا الذي وُلِدَ بعد وفاته، وبنتين.

رغم جائحة كورونا، والتخوف من التجمعات، وتهويل الإعلام المروِّع من التحشيد، وجزع الناس وخشيتهم من عدوى هذا الوباء المرعب، فإن المجاميع الغفيرة التي شيعت جنازته، جسّدت المحبة والوفاء لهذا الفقيد الذي ترك بصماته ولمساته في جيل مثقف ثقافة عليا بين أوساط المجتمع بكل أطيافه.

قيل إن سبب الوفاة كان كرونا أو كوفيد ١٩، وقيل غير ذلك، إنما عمر الإنسان محدود بزمن معينّ منذ خلق، وربك يخلق ما يشاء ويختار، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، هي هذه الدنيا التي لا خيار لنا في الخلق ولا خيار لنا في الموت.

كُرِّم بعد وفاته بوقف شرعي كصدقة جارية لروحه ببرادة ماء بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، إلى جانب تسمية إحدى قاعات الجامعة باسمه وفاءً وعرفانًا للفقيد بإسهامه اللامحدود في خدمة الجامعة وطلاب العلم.

سيظل سالم نبراسًا يشع بنوره في أفئدة طلاب مُتَنِينّ له بما غرس في جوانحهم من المعرفة، وربط المعرفة بسلوك مثالي بمسيرة جادة مثمرة، ثمراتها ثبات وتناغم بين المعرفة والسلوك، هي الذخيرة التي سبقته لآخرته، لا أقول من طلبته فقط، وإنما كل من عاشره وعرفه واستفاد منه، فما أعظمها وأجلّها، جملة تتراءى لنا على بساطتها من يقول جزاك الله خيرًا، فكم من الألسن ردّدتها للفقيد عليه رحمة الله.

143
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

من أبرز أعلام مدرسة مكارم الأخلاق بمدينة الشحر



مدرسة مكارم الأخلاق التاريخيَّة من أعرق الصرُّوح العلميَّة بحضرموت، تخرَّجت فيها أجيال عدة منذ افتتاحها على أيادي نخبة من فضلاء مدينة الشحر، وعلى مرِّ تاريخها أيضًا عمل فيها الكثير من التربويين وغيرهم، ونحن هنا سنحاول أن نترجم لعددٍ من الأعلام الذين لهم علاقة وطيدة بهذه المدرسة التاريخيَّة العريقة.



عادل حاج باعكيم*

العَلم الأول: الشيخ العلَّامة مفتي مدينة الشحر عبدالكريم بن عبدالقادر الملاحي، ولد بمدينة مروني بجزيرة أنقازيجا من جزر القمر في سنة ١٣٢٨هـ الموافق عام ١٩٠٩م، من أبرز طلاب الرَّعيل الأول المتخرج في مدرسة مكارم الأخلاق، التي فتحت أبوابها بمبنى الباغ، شرق مدينة الشحر، سنة ١٣٣٧هـ، من مشايخه السيِّد العلاَّمة أحمد بن أبي بكر بن سميط، والعلاَّمة القاضي أحمد بن عوض المصلي الذي أخذ عنه علم الفرائض، والشيخ العلاَّمة سالم بن مبارك الكلالي، والسيِّد العلاَّمة أحمد بن محسن الهدَّار، والسيِّد العلاَّمة علوي بن علي الجنيدي الذي أخذ عنه علم الحديث، والعلامة عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبوبكر.

144
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م



الشيخ العلاَّمة عبدالكريم بن عبدالقادر الملاحي

من تلاميذه ابنه أستاذنا المؤرخ عبدالرحمن، وابنه الأديب عبدالله، والشيخ الفاضل جمعان بن عبيد طايع، والشيخ الفقيه سعيد بن سالم بن بريك، والشيخ الفاضل عوض بن عمر خريص، والشيخ صالح بن عبدالله حنتوي وغيرهم كثير جداً، عمل منذ تخرُّجه في حقل التَّدريس بالمدارس الحكوميَّة، ورباط المصطفى بالشحر، بالإضافة إلى إمامة بعض المساجد، وإلقاء الدُّروس بها وفي بيته في أوقات مختلفة من اليوم، له رسالة جمع فيها ترجمة شيخه السيِّد العلاَّمة عبدالله بن عبد الرحمن بن الشيخ أبي بكر وغيرها.

توفي العلامة عبدالكريم بمدينة الشحر يوم السبت ١٧ ربيع الآخر سنة ١٤١٧هـ الموافق ٣١ أغسطس عام ١٩٩٦م، ودفن داخل قبَّة العلاَّمة عبدالله بلحاج بافضل رحمه الله تعالى.

العَلم الثاني: الشيخ العلَّامة سالم بن خميس حبليل، ولد بمدينة الشحر سنة ١٣٣٢هـ الموافق لعام ١٩١٤م، من مشايخه العلاَّمة القاضي سالم بن مبارك الكلالي، والحبيب علوي بن عبد الرحمن بن شهاب الدين، والحبيب العلاَّمة عبدالله بن عمر الشاطري، والعلامة عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر، من أقرانه السيِّد عباس بن حامد الحداد، ومن تلاميذه الشيخ العلاَّمة ياسر بن محمد باعباد خطيب جامع الشحر القديم، والشيخ سعيد بن محمد بامطرف، والسيِّد العالم الشهيد عبدالله بن محمد بن إسماعيل وغيرهم كثير.



الشيخ العلاَّمة سالم بن خميس حبليل

من مؤلفاته "خطب منبريَّة"، و"رسالة في حُكم البصق في المسجد"، وله رسائل أخرى وبعض المكاتبات، وله جمع لبعض الفوائد الجليلة في بعض العلوم، تولى الخطابة في جامع الشحر (القديم) لمدَّة طويلة، كما تولى التدريس في مدارس الشحر وبعض مناطق حضرموت، توفي بالأردن بعد عشاء يوم الأربعاء ٢٩ ربيع الأول سنة ١٤١٧هـ الموافق ١٣/ ٨/ ١٩٩٦م، ودفن في مقبرة سحاب بعمَّان رحمه الله.

العَلم الثالث: الشيخ الفقيه القاضي علي بن محمد سواد، ولد بمدينة الشحر سنة ١٣٤٣هـ تقريباً، تلقَّى تعليمه في بادئ أمره في مدرسة مكارم الأخلاق، ثم تفرَّغ للطلب عند علماء الشحر، من مشايخه السيِّد العلاَّمة عبدالله بن عبد الرحمن بن الشيخ أبي بكر، والعلاَّمة القاضي سالم بن مبارك الكلالي، والعلاَّمة القاضي عبدالله بن عوض بكير وغيرهم، عمل قاضياً ببعض مناطق حضرموت، منها دوعن، ثم محامياً، ثم عمل بالتجارة.

من تلاميذه الشيخ الفاضل عبدالله براهم باعشن، والشيخ صالح بن صلاح البطاطي، ومن مؤلفاته "مقانصة الصَّيد في الرَّد على طه باحميد" وهي رسالة ردَّ فيها على الشيخ طه بن علي باحميد السَّاكن منطقة الريدة الشرقيَّة بالمشقاص في مسألة النيَّة في الصلاة أشرط هي أم ركن، والرِّسالة ذات لهجة قويَّة ولاذعة، وله أيضًا كتاب "إزالة القترة عن قانون الأسرة"، وله بعض الفتاوى الشرعيَّة المتفرقة والمحفوظ بعضها، توفي في مدينة الشحر يوم الأربعاء ١٤ ربيع الآخر سنة ١٤١٧هـ الموافق ٢٨ / ٨ / ١٩٩٦م، ودفن في مقبرة العلامة عبدالله باهارون رحمه الله.

العَلم الرابع: الشيخ الفقيه عمر بن سعيد باغزال، ولد بمدينة الشحر سنة ١٣٤٢هـ، وتلقى تعليمه بها وببعض مدن حضرموت، من مشايخه العلاَّمة عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر، والشيخ محمد سلطان الصوري، والشيخ أحمد سلطان الصوري، والشيخ الفقيه رمضان بن ربيع باقنانة، والشيخ القاضي محمد بن أحمد باصلعة، والعلاَّمة عوض بن أحمد مصاقع، بعد تخرجه تولى التدريس في مدرسة مكارم الأخلاق، ثم مديرًا لها، ثم مدرسًا في الدِّيس الشرقيَّة، ثم بغيل باوزير، ثم بمنطقة القارة ورباط باعشن بدوعن.



الشيخ الفقيه عمر بن سعيد باغزال

في ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٧٤هـ عين مديرًا للأوقاف والتركات العامة بالدولة القعيطية، وصاحب الترجمة خلف العلاَّمة محسن بونمي في تدريب القضاة، فكانت الدفعة الأخيرة من تدريبه، من تلاميذه العالم الفقيه ياسر بن محمد باعبَّاد، والسيد الفقيه علوي بن عبدالله العيدروس، توفي بمدينة الشحر ظهر يوم الثلاثاء ١٨ من ذي الحجة سنة ١٤٢٥هـ الموافق ٨ / ٢ / ٢٠٠٥م رحمه الله.

العَلم الخامس: الشيخ الأديب محمد بن عوض عشّار حميدان، ولد بمدينة الشحر في سنة ١٩٢٣م، وبها نشأ وتلقى تعليمة في صرحها العلمي مدرسة مكارم الأخلاق، من مشايخه وأساتذته العلاَّمة عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر، والعلاَّمة القاضي سالم بن مبارك الكلالي، والشيخ القاضي سالمين بن سالم بن سرور، والشيخ مبارك باراشد، والشيخ سهل بازهير، والشيخ سالم باجبير، ثم واصل دراسته الجامعية في جامعة الخرطوم قسم اللغة العربية. وبعد تخرُّجه في السودان عمل مدرسًا بمدرسة مكارم الأخلاق، ثم مديرًا لها، ثم مديرًا لعدد من المدارس في حضرموت، ثم مدرسًا في المعهد الديني بالغيل، ثم مديرًا لثانوية الشحر عند افتتاحها، ثم مدرسًا بجامعة عدن.

للشيخ محمد "ديوان شعر" مخطوط، ومجموعة من الأبحاث الإسلامية والتربوية واللغوية والأدبية، وبعض المسرحيَّات السياسيَّة والاجتماعية، وبعض المناظرات الشعرية، توفي بمدينته الشحر في فاتحة شهر الله المحرَّم سنة ١٤٠٥هـ الموافق ٢٦ / ٩ / ١٩٨٤م رحمه الله.

العَلم السادس: الشيخ الخطيب عوض بن أحمد باحميش، ولد بمدينة الشحر سنة ١٣٤١هـ الموافق لعام ١٩٢٣م تقريبًا، نشأ يتيماً في كنف جدِّه لأمه الشيخ عبدالله بن سعيد باحميش خطيب جامع الشحر آنذاك، تلقى تعليمه في عُلمة جدِّه الشيخ عبدالله وعلى يد علماء مدينة الشحر، منهم العلاَّمة عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر،

عمل مدرسًا في مدرسة مكارم الأخلاق لمدَّة، ثم تفرَّغ للتدريس في عُلمة جدِّه لأمه الشيخ عبدالله، ثم تسلَّم منه أيضًا الخطابة في جامع الشحر، وكان توليه الخطابة في مطلع ستينيات القرن العشرين الماضي، كما تولى إمامة مسجد ابن عمران؛ في آخر حياته أصيب بمرض الشلل فأقعد بسببه في البيت، توفي بمدينة الشحر سنة ١٣٩٣هـ الموافق ١٩٧٣م رحمه الله.

العَلم السابع: الشيخ الفرضي محمد بن أحمد بن عمر باعكيم، ولد بمدينة الشحر في ١٢ / ٤ / ١٩٢٤م، نشأ بها نشأةً صالحة، تلقى تعليمه في مدرسة مكارم الأخلاق وعند علماء مدينته الشحر، من مشايخه العلاَّمة عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر، والعلاَّمة القاضي سالم بن مبارك الكلالي، والشيخ القاضي سالمين بن سالم بن سرور، والشيخ صالح جمعان باصالح، والشيخ مبارك بن عوض باراشد.

بعد إكماله الدِّراسة اتجّه للعمل في التجارة، عُرِفَ بتمكُّنه في علم الفقه والفرائض، فكانت المحكمة الشرعية بالشحر تحيل إليه بعض القضايا في المواريث وخصوصًا عندما تصل المسألة إلى المناسخات، كما تولى إمامة مسجد الشيخ علي، وكان يدرِّسُ به بعد صلاة العشاء لبعض الطلبة في الفقه والفرائض، توفي بالشحر يوم الأربعاء ٤ جمادى الأولى سنة ١٤٢٧هـ الموافق ٣١ / ٥ / ٢٠٠٦م، ودفن في مقبرة ابن جوبان رحمه الله تعالى.

العَلم الثامن: الشيخ المؤرخ الفنان أحمد بن عبدالقادر الملاحي، ولد بجزر القمر في ١٠ من ذي الحجة سنة ١٣٣١هـ الموافق ٢٤ نوفمبر عام ١٩١٣م، من مشايخه الشيخ صالح بن جمعان باصالح، والشيخ هادي بن أحمد شامي، والشيخ القاضي محفوظ بن حازم، والشيخ مبارك بن عوض باراشد، والعلاَّمة عبدالله بن عمر الشاطري، والحبيب العلاَّمة علوي بن عبدالله بن شهاب، والعلامة عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر.



الشيخ المؤرخ الفنان أحمد بن عبدالقادر الملاحي

تولى التدريس في مدرسة مكارم الأخلاق سنة ١٣٤٨هـ، ثم عُيِّنَ مفتِّشَ الأعمال اليدويَّة والفنون بمصلحة المعارف الحضرميَّة زمن السلطنة القعيطيَّة، كما تولى الإمامة والتدريس في بعض مساجد غيل باوزير، منها مسجد الروضة، ومسجد شدَّاد، ومسجد ذهبان. من مؤلفاته كتاب "المذكرة التاريخيَّة الشحريَّة"، وكتاب "التدريب العملي واليدوي"، وكتاب في الفقه الشافعي، توفي بغيل باوزير صباح يوم الجمعة ٢ صفر سنة ١٤٠٠هـ الموافق ٢١ ديسمبر عام ١٩٧٩م، ودفن في مقبرة باهارون بالغيل رحمه الله تعالى.

العَلم التاسع: الشيخ الفقيه الفرضي حامد بن يسر اليزيدي، ولد بمدينة الشحر سنة ١٣٣٣هـ الموافق لعام ١٩١٥م، نشأ وتلقى تعليمه بها في مدرسة مكارم الأخلاق وعند علمائها، من مشايخه السيِّد العلاَّمة عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر، والشيخ النحوي يسلم بن علي سند اليزيدي، والشيخ الفقيه عوض بن أحمد مصاقع وغيرهم؛ ومن تلامذته ابنه شيخنا العلامة عبدالله بن حامد.

له معرفة جيِّدة بعلوم النحو والفقه والفرائض والحديث والشعر، تولى التدريس في رباط المصطفى بالشحر في حياة صاحبه وشيخه العلامة عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ

أبوبكر وبعدها، ثم عمل محاسبًا عند أحد تجَّار مدينة الشحر، ثم عمل محاميًا ثم مأذونًا شرعيًّا؛ له شعر جميل، توفي بالشحر سنة ١٤١٧ هـ الموافق لعام ١٩٩٦م رحمه الله تعالى.

العَلم العاشر: الشيخ القاضي محفوظ بن سعيد المصلي، من مواليد مدينة الشحر سنة ١٩١٠م، من أبرز طلاب الرَّعيل الأول المتخرِّج في مدرسة مكارم الأخلاق التي فتحت أبوابها بمبنى الباغ، شرق مدينة الشحر، سنة ١٣٣٧هـ، من مشايخه القاضي العلاَّمة أحمد بن عوض المصلي قاضي الشحر، والشيخ القاضي سالم بن مبارك الكلالي، والشيخ القاضي سالمين بن سالم بن سرور، والسيِّد العلاَّمة عبدالله بن عبد الرحمن بن الشيخ أبي بكر. عمل مساعدًا لقاضي الشحر العلاَّمة أحمد المصلي، ثم رئيسًا للتعليم في مدرسة النجاح بشبام، ثم قاضيًا، ثم نائب لواء شبام، ثم قاضيًا بالغرفة، ثم قاضيًا بالمكلا.

من مؤلفاته "مرشد الإخوان في علم البيان"، و"الثمر الينيع في علم البديع"، و"وسيلة المريد في أحكام التجويد"، و"عون الفارض في علم الفرائض"، و"وسيلة النجاح في أحكام النكاح"، و"نيل المقصود شرح حصيلة المجهود في حكم المكتوب بلا شهود"، و"الإسعاف شرح كأس السلاف"، و"مذكَّرات تاريخيَّة"، و"تنبيه العزايم إلى شرح أمثال الحضارم" والأخير قمنا بتحقيقه ونشره عام ٢٠١٥م عن دار مكتبة تريم الحديثة، توفي عام ١٩٧٥م رحمه الله.

العَلم الحادي عشر: الشيخ القاضي سعيد بن علي سلومة، ولد بمدينة الشحر في ٥ / ٣/ ١٩١٨م، نشأ بها نشأة صالحة، وتلقى تعليمه في مدرسة مكارم الأخلاق بالشحر ورباط ابن سلم بالغيل، من مشايخه السيِّد العلاَّمة عبدالله بن عبد الرحمن بن الشيخ أبي بكر، والعلاَّمة عبد الكريم بن عبد القادر الملاحي، والسيِّد العلاَّمة محسن بن جعفر بونمي، درس كرس القضاء بالغيل مع زملائه، منهم الشيخ القاضي سعيد بن سالم بن سرور، والشيخ القاضي محمد بن رشاد العمودي، وتخرجوا قضاةً بتاريخ ١ / ٦ / ١٣٧٤هـ.

في سنة ١٣٧٥هـ عُيِّنَ قاضيًا بالمكلا، ثم في بعض مناطق حضرموت، منها عمد وحريضة والدِّيس الشرقيَّة والحامي والرَّيدة وقصيعر والهجرين ووادي العين وريدة الجوهيين وغيل ابن يمين وحورة، كما عينَ مساعدًا لرئيس المجلس العالي للقضاء بالمكلا، من أقرانه شيخنا المعمّر العالم سعيد بن عوض بن مبارك الكلالي - رحمه الله تعالى -، ومن تلاميذه الشيخ عبدالله بن عوض بكران، والشيخ سالم بن سعيد سلومة، له بعض الكتابات المخطوطة والمحفوظة، توفي بالشحر في ١٧ من رمضان سنة ١٤١٣هـ الموافق ١٠ / ٣ / ١٩٩٣م، ودفن بمقبرة ابن جوبان رحمه الله تعالى.

العَلم الثاني عشر: الشيخ العالم عوض بن مطران قرينون، ولد بمدينة الشحر في مطلع القرن العشرين الميلادي، نشأ وتلقى تعليمه بالشحر فهو من أبرز طلاب الدفعة الثانية المتخرجة في مدرسة مكارم الأخلاق، من مشايخه وأساتذته السيِّد العلاَّمة عبدالله بن عبد الرحمن بن الشيخ أبي بكر، والشيخ العلاَّمة القاضي سالم بن مبارك الكلالي، والشيخ القاضي سالمين بن سرور، والشيخ سالم باصالح. وصفه الأستاذ خميس حمدان بقوله: "كان فقيهًا أديبًا شاعرًا مجيدًا صريح الرأي حاد الذكاء".

تولى التدريس في مدرسة مكارم الأخلاق لفترة وجيزة، ثم سافر إلى مدينة ممباسا بإفريقيا ليعمل مع والده في التجارة، ثم عاد إلى الشحر وتولى إدارة تجارة والده بها له بعض الدروس كان يلقيها في بعض مساجد الشحر، مثل درس مسجد عيديد الذي يلقيه عصرًا، ودرس التفسير الذي يلقيه بعد صلاة المغرب في مسجد المدرسة بالسوق والذي وصف بجدَّته وغزارة مادته العلمية، توفي بالشحر سنة ١٣٩٠هـ الموافق لعام ١٩٧٠م رحمه الله.

العَلم الثالث عشر: الأستاذ المؤرخ الأديب عبدالرحمن بن عبدالكريم الملاحي، ولد بمدينة الشحر في أجواء سنة ١٣٥٠هـ الموافق لعام ١٩٣٠م؛ التحق عام ١٩٣٦م بمدرسة مكارم الأخلاق، ودرس بها سنة تمهيديَّة أولية في عام ١٩٣٧م، انتدب والده إلى مدينة الحامي ليكون أول مدير لمدرسة "الهدى والفلاح" الحكوميَّة ممَّا اضطر الأسرة



المؤرخ الأديب عبدالرحمن بن عبدالكريم الملاحي

الملاحيَّة للانتقال والعيش في الحامي، فدرس فيها صاحب الترجمة السنة الأولى الابتدائية، ثم عاد إلى الشحر فدرس السنة الثانية بمدرسة مكارم الأخلاق، ثم انتقل بمعية أسرته إلى شحير ودرس بها النصف الأول من السنة الثالثة والنصف الثاني في الشحر في مدرسة مكارم الأخلاق، ثم انتقل إلى الغيل ودرس بها أشهرًا، ثم عاد إلى الشحر ليتم السنة الرابعة الابتدائية.

في مدرسة مكارم الأخلاق بالشحر أكمل صاحب الترجمة المرحلة الابتدائية من تعليمه، ثم توجه إلى المدرسة الوسطى التي افتتحت في شهر مايو من عام ١٩٤٤م بغيل باوزير، ثم دار المعلمين؛ من مؤلفاته: "الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية لمهرجانات ختان صبيان قبائل المشقاص ثعين والحموم"، و"الحضارم في ممباسة ودار السلام ١٩٣٠ - ١٩٦٠م"، و"ملامح من التداخل المعرفي بين ربابنة اليمن وعُمان"، و"روزنامات الربان بامعيبد" شرح وتقديم، و"تاريخ الصراع الحمومي القعيطي ودوافعه ١٨٦٧ - ١٩٦٧م"، و"المسرح بمديرية الشحر نشأته وتطوره"، و"ملامح من التوسع العمراني لمدينة الشحر"، و"خصائص حكايات وقصص ومسرح الطفل وأهميتها التربوية والثقافية" غيرها.

تبوَّأ صاحب الترجمة مناصب ثقافيَّة رفيعة في الدولة، منها: أمين عام لاتحاد المسرحيين بالجمهوريَّة، ومدير عام الثقافة والسِّياحة بحضرموت وغيرها؛ توفي الأستاذ عبدالرحمن بعد حياة زاخرة بالعطاء والإبداع بمدينته الشحر يوم السبت ٢ / ١١ / ٢٠١٣م ودفن في مقبرة باهارون رحمه الله.

العَلم الرابع عشر: السيِّد العلامة عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر، ولد بمدينة الشحر سنة ١٣١٢هـ الموافق لسنة ١٨٩٤م، وتلقى تعليمه بمدينته وبغيل باوزير وتريم وسيئون، من مشايخه: الحبيب العلامة علي بن محمد الحبشي صاحب رباط العلم الشريف بسيئون،



السيِّد العلامة عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر

والعلامة محمد بن عمر بن سلم صاحب رباط غيل باوزير، والعلامة عبدالله بن عمر الشاطري صاحب رباط تريم، والعلامة علوي الجنيدي، والقاضي العلامة أحمد بن عوض المصلي، والحبيب أحمد بن محسن الهدَّار وغيرهم.

من مؤلفاته: "التحفة المرضيَّة في الأحكام الفقهيَّة"، و"الجوهر الفريد في خلاصة التوحيد"، و"الطريقة السَّهلة الجليَّة في العوامل النحويَّة"، و"الرِّسالة الجليَّة في الأحكام التجويديَّة"، و"شذرات من السِّيرة النبويَّة"، و"رسالة في علم الفرائض"، و"شرح مختصر على منظومة جوهرة التوحيد"، و"نور الأبصار في مناقب القطب أحمد الهدَّار"، ومولد "مفتاح الأنوار".

تولى إدارة مدرسة مكارم الأخلاق لثلاثين عامًا؛ فهو أبرز من عمل في المدرسة على مرِّ تاريخها، في آخر حياته أصيب بمرض ألزمه الفراش حتى وافته المنيَّة بمدينته الشحر سنة ١٣٨٤هـ الموافق ١٩٦٤م، ودفن في قُبَّة جدِّه الشيخ أحمد بن الشيخ أبي بكر بن سالم.

هذا آخر الأعلام الذين أوردنا تراجمهم في هذه العُجالة، وفي آخرها لابدَّ لنا أن نختم بأبيات من قصيدة للشاعر الشحري الكبير حسين أبوبكر المحضار - رحمه الله تعلى - إذ ذكر فيها مدرسة مكارم الأخلاق وأعلامها، وهو أحدهم بل من أبرزهم في المجال الفنِّي والشعري؛ قال:

إلى الخير سوَّاق قد ساقنا ... وزُرنا مكارم أخلاقنا
وزادت إلى العلم أشواقنا ... رحلنا إليه ونعم الرَّحيل
عسى الله يصلح أحوالنا ... به ويحقق آمالنا
ونقفوا طريق من قبلنا ... من اهل الصلاح وذاك الرَّعيل

---

* مدير دار الأسعاء للدراسات والنشر.

المراجع:

١ - عُقود الجُمان في ترجمة السيِّد العلامة عبدالله بن عبدالرحمن، عادل حاج باعكيم، الطبعة الثانية، ٢٠١٧م.

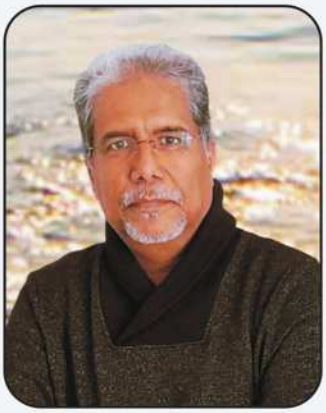
٢ - صفحات من حياة الأستاذ عبدالرحمن الملاحي، عادل حاج باعكيم، مركز الدراسات الإنسانية بجامعة حضرموت، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٣- مدرسة مكارم الأخلاق بمدينة الشحر (مقالات متفرِّقة وقصائد)، مجموعة من الأساتذة، جمع وتحرير عادل حاج باعكيم، دار الأسعاء للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢م.



150
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

الحب ذلك المغضوب عليه



د. سعيد الجريري

(1)

ذات عام، كنت مع ثلة من الطلاب والطالبات نتجاذب أطراف الحديث خارج إطار المحاضرة، فخطرت ببالي فكرة أن استكشف شواغلهم المهيمنة، بأسئلة عن كلمات، قد تبدو في ظاهرها أشبه بما يزجي به بعضهم وقت الفراغ.

– ليذكر كل منكم اسم حيوان مبدوءاً بحرف الحاء.

فسارع كل منهم إلى الإجابة:

– حمار، حصان، حرباء، حية، حوت، حلزون.

ثم أطرقوا يستذكرون، حتى ظن كل منهم أن لا كلمات غيرها.

– لقد نسيتم واحدة مثلاً: حمامة. لكن، حسناً، ليذكر كل منكم كلمة، أي كلمة مبدوءة بحرف الحاء، فسارعوا:

حبل، حديد، حَر، حوض، حمّص، حادث، حزام.

– هل من مزيد؟

– حائط، حصة، حظيرة، حسد، حقد، حماس، حجِل، حبر، حرب، حبوب، حور العين، حريم، حرمة، حرص، حكم....

– جميل! دعونا الآن نفكر معاً: لماذا تبادرت إلى ذهن كل منكم الكلمة التي قدمها؟

تفاوتت إجاباتهم ما بين أخذ الكلمة بلا اختيار، أو إلقائها بلا قصد، أو الحرص على السرعة في الإجابة.

– حسناً. أتظنون أن هذه الكلمات مجرد كلمات قيلت هكذا أم أن تأملها منفردة أو مجتمعة قد يشير إلى شيء ما أو أشياء؟

– كيف، يا أستاذ؟ تساءل أحدهم.

– سأذكر الآن كلمات لم تذكروها. على سبيل المثال: حب، حرية، حوار، حنان..... هل أضيف؟

(....) ثم انهمكنا في نقاش حول الكلمات التي ذكروها، وكيف يهيمن معجم ما على الذاكرة والوعي؟ وكيف تبدو الكلمات التي ذكرتها مهمشة في الذاكرة والوعي، والواقع أيضاً؟

(2)

لو أخذنا كلمة (الحب) مثالاً، فمما يستوقف المتأمل في نظرة المجتمع إليه، تلك النظرة الدونية، والتعبير عن تسفيهه بخطاب مباشر أو غير مباشر، حتى لكأن

الثقافة المهيمنة تقدم الكراهية على الحب، في ارتباط ما بمصاحبات مماثلة، كالحسد، والحقد على من ينشرح صدره بالحب ويتنفس مشاعر حرة. حتى ليبدو من مهيمنات معجم الأغنية، كما تمثله دواوين شعرائها كلمات من مثل: العواذل، والشواني، الحساد، أهل السبب، وما شابهها أو أدى معناها في سياقات متماثلة، حتى ليبدو الحب – بما هو علاقة إنسانية سامية – منظوراً إليه باعتباره قلة أدب، وخروجًا أو مروقًا على القيم، أو عملاً غير أخلاقي يترصده أولئك كل مرصد، ليحبطوا أي تقارب بين إلفَين اجتمعا على خفقات تتصادى.

وفي بيئة اجتماعية لا تحض على الحب، كيف يكون الحال؟ ليس من المستغرب، ربما، أن تشيع بدلاً عنه الكراهية والتباغض والتحاقد والتحاسد، لتتجاوز الجناية على العلاقة الإنسانية، إلى كونها مهيمنات في العلاقات الاجتماعية، وربما السياسية أيضاً، من منظور أن العملية، في علاقة كل ذلك بعضه ببعض، أشبه بقطع الدومينو، التي يسقط بعضها بعضًا.

(3)

ولعل الناظر في الأمثال الشعبية يرى أن الحب يكنى به عن المرأة، فيقال: "ما بدا حب زمّر". أي إن المرأة ليست بمستطيعة فعل الرجال. ولو كانت التكنية تقف عند هذا المستوى الأفقي في فهم المثل، لكانت إيجابية، لكن الحب هنا في اللهجة الحضرمية يعني "فرج المرأة"، فتكون التكنية بالفرج عن المرأة في سياق الانتقاص. لكن لماذا سُمّي الفَرج بالحب؟

أمن باب الإعلاء والتوقير أم من نافذة التسفيه والتحقير، للحب، كعلاقة روحية سامية؟ وهل تسمية الفرج بالحب تعني في ما تعنيه التنفير من الحب، بالإحالة المباشرة إلى الجنس، بحيث تبدو أي علاقة حب بين إلفين منسجمين هي علاقة جنسية (محرمة)، فيكون الحب بالتبعية محرمًا أو مؤثماً، منفراً منه؟ فهل تراهم لذلك يكثرون استعمال كلمة "المحبة" أو الهوى وأحياناً العشق أو العشقة، بدلاً عن "الحب"، لإزالة اللبس السياقي في المفهوم الشعبي؟ وهل من استباقياتهم وصف الحب أو العشق بأنه "بلوى" أو قولهم "تالي العشقة نذقة"؟ بل إن من طريف الشعر ما يتداوله العامة من توصيف حسي يتجاوز أنواع الحب كعلاقة شعورية، يتجاوز عنه المتلقي والمجتمع باعتبار طرافة التعبير من جهة، وباعتباره يعزر من يعلي عاطفة الحب بمعنى من المعاني من جهة أخرى.

(4)

ولعل من اللافت الذي يتجاوز الحب إلى الحرية مثلاً –والعلاقة بينهما تكاملية– أن الحب هو مما ينبغي السماع عنه عن بعد، كالحرية، فهناك من يقرؤون عن الحب ويسمعون وقلما يحبون أو يحققون ذواتهم بالحب، في بلاد الحب المحرم، وبتحريم الحب تُنفى الحرية من حيث هي تحقيق فردانية الفرد كذات مسؤولة عن اختياراتها في المجتمع. لذا فالحب لا يتعدى كونه كلامًا في الأغاني، بغض النظر عن جواز الغناء من عدمه، فمثلاً "الحب كله" وليس بعضه يستمعون إليه بشغف في أغنية أم كلثوم، ويستمتعون معها بتحولات "سيرة الحب"، ويمتد نهر الاستماع والاستمتاع بالحب من أم كلثوم ووردة وميادة إلى لطيفة وأصالة ونانسي، ما دام الحب حب أولئك، لا حب هؤلاء الذين تظلنا وإياهم سماء واحدة، وتخفق قلوبهم بأجمل ما في الإنسان: الحب.

152
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

ألحان دان الحفة والتجربة المحضارية





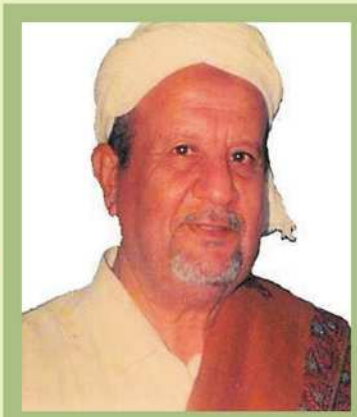
د. عبدالباسط سعيد الغرابي

الهبيش أو الحفة تُعَدُّ من أجمل الرقصات وأروعها، وقد ابتكرها وتميز بها الإنسان الحضرمي عن غيره وخصوصًا في مديريات الديس الشرقية والشحر والريدة وقصيعر منذ عشرات السنين. عُرِفَت الحفة بألحانها الشجية وكلماتها الشذية الرصينة، التي استهوت كبار شعراء حضرموت من الرعيل الأول، من أمثال عوض عبدالله بن السبيتي، وعبدالله عمر سواد، وعلوي عبدالله المقدي، وسعيد حمود، وأبي بكر بن العكضة، وأحمد معلاق، وسيد سلوم، بالإضافة إلى شعراء الجيل الثاني والمعاصرين من أمثال حسين أبي بكر المحضار، وسعيد سالم باجعالة، وعبيد عمر باجراد، ومحمد عبدالله الحداد، وعبدالله محسن الوحيري، وسالم عمرو الغرابي، وسعيد عمرو الغرابي، والشعراء من أمثال سعيد سالم بلكديش، وسعيد عبدالله سبيتي، ومحمد حسن الشنيني، وغيرهم الكثير. كما أن مبدعي أصواتها ومؤلفي ألحانها الرائعة من محبي هذه الرقصة من أمثال سواد، وابن عسيمة، وعبيد عمر باجراد، وسعيد القبيلي، وابن زقر، وغيرهم صاغوا أجمل الألحان وأروعها، فأصبحت روائع غنائية اشتهر بها غيرهم، في حين هم ظلوا في الظل لا يعرف عنهم إلا اليسير وبقيتْ ألحانهم تغنَّى بها كبار الفنانين داخل الوطن وخارجه.

153
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م



الشاعر والملحن عبدالله عمر سواد



الشاعر حسين أبو بكر المحضار

من منَّا لا تطربه رائعة المحضار (باشل حبك معي)، أو رائعة سالم جبران (ريتنا ماعرفنا بعضنا)، وأغنية صالح عبدالرحمن المفلحي (بلجيك ما يصلح إلا)، ورائعة السري (بالغواني) والقائمة تطول بهذه الروائع.

يرجع الفضل الكبير لنقل أصوات الهبيش وألحانه إلى أنغام الوتر وحناجر فناني الطرب إلى الشاعر الكبير حسين أبي بكر المحضار رحمه الله، ولكنْ سبقت التجربة المحضارية الناجحة محاولات بعض الفنانين، مثل كوكب حضرموت العملاق محمد جمعة خان في أغنيته الشهيرة (أنا وخلي تراضينا)، وكلماتها عبارة عن مساجلة بين شعراء الحفة، من أمثال ابن السبيتي، و سواد، وينطبق ذلك على أغنية (يا رعى الله ليالي)، وكذلك محاولة يسلم دحي في رائعة ابن السبيتي (سبحان لي خلق)، وسعيد عبدالمعين، وسالم سعيد جبران، غير أن محاولة جبران جاءت متأخرة.

أما تجربة المحضار فتعدُّ فريدة من نوعها؛ إذ قلبت هذه التجربة هذه الأصوات من صبغتها البدوية (الشطية) التقليدية إلى لحن عصري، وبشرَّت بمولود جديد للأغنية الحضرمية، يستطيع هذا المولود أن يجد لنفسه مكانًا في عالم الفن، وينمو حتى يصبح عملاقًا ينافس كل ألوان الغناء العربي، وبالفعل كانتْ هذه التجربة الرائعة قد جعلت من المحضار المطوّر والواضع الحقيقي لأسس الأغنية الحضرمية الحديثة.

ولكنْ كيف كانت هذه الولادة المحضارية؟! فالولادة الحقيقية عن طريق جلسة عفوية في إحدى قاعات نادي الكوكب بمدينة الشحر بحضور الفنان المخضرم (سعيد عبدالمعين) -رحمه الله- عندما اقترح على شاعرنا تزويده ببعض الكلمات حتى يستطيع أن يكمل أو ينتج شريطه أو ألبومه الجديد، فالمحضار أمام هذا الطلب بدأ أوَّلاً مترددًا ومستغربًا من كلام فناننا الكبير؛ لكونه شاعر مساجلات حفة وليس شاعرًا غنائيًا، ولكن شيخ الفنانين أدرك استغراب المحضار وتعجبه من هذا الطلب، وبدأ يعدِّد أبو نعيم تجاربه السابقة مع شعراء الهبيش، مثل ابن السبيتي، وعبدالله سعيد باعمرو، وغيرهم الذين تغنَّى بكلماتهم على ألحان الحفة.

فبدأ المحضار استجابته لأبي نعيم مفتِّشًا في ذاكرته عن بعض ألحان هذه الرقصة أو أصواتها، التي أحبَّها كثيرًا ليختار من كنوزها البديعة أجملها، فتسلل إلى ذهنه لحن الشاعر والملحن الكبير عمر عوض العوش، الذي يقول عنه صديقه المغني والشاعر علوي محفوظ مول الدويلة:

ذا خرج فصل بتغنم وقاتي بالسلى يوم لي قلب سالي

بالسلى باعمر قلبي وباسلي على ناس ياكمين مغبون

فجاءت الولادة المحضارية مميزة تبشر عن شاعر غنائي متمكن مستر سلاً بالكلمات الآتية:

يا رسولي توجه بالسلامة زر صحابي وبلغهم سلامي

قلهم عاد شي للوصل حيلة ليش لأوعدوا خلفوا المواعيد

ولم ينتظر شيخ الفنانين كثيرًا حتى أتته الأغنية المحضارية الآتية:

بلحن سعيد حمود والبعض ينسبه لعبدالله سواد الذي يقول عليه الشاعر أحمد معلاق:

ومن مات في القبر يا يقبر وفيه العظام الصم تتفالت

وما من قضى ربنا مهلة والنفس ماشي لها غير عزرائيل

لقد قيلت هذه الكلمات في العشرينيات من القرن الماضي في حين أنَّ أغنية المحضار قيلت في بداية الخمسينات من

القرن المنصرم على وجه التقريب ويقول فيها:

على ضوء ذا الكوكب الساري باقضي الليل خبة وسيرة
و لاحد بما أقصده داري غير الذي يعلم الأسرار

و هكذا كانت بداية المحضار ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل المحضار ترك ألحان الهبيش أو الشرح الساحلي؟ كما يحلو للبعض تسميته، وصاغ ألحانًا أخرى، فالواقع يقول غير ذلك، لقد ظل المحضار مخلصًا للشرح الساحلي، وينهل من ينابيعه المتدفقة، فغالب روائع المحضار إنْ لم نقل مجملها مصبوغة بألوان الحفة، وتنبعث منها روائح الحفة ونكهتها الممزوجة بروائح البادية النقية.

لقد اعتمد المحضار بشكلٍ كبيرٍ على ألحان الهبيش وخصوصًا على أصوات الملحن الفذ (عبدالله عمر سواد) رحمه الله، الذي يعدُّ بحق وحقيقة ملحن حضرموت الأول، وملكَ ألحانها غير المُتَوَّج إنْ لمْ نقل ملحِّن الجزيرة العربية، كيف لا؟! وروائع أغاني المحضار غالبها من ألحان (سواد).

أما بالنسبة لبدايات المحضار مع سواد فكانت من خلال اللحن الذي يقول عليه سواد:

قنع و أيس الخاطر إذا شرب العسل بيجيك منية
و الآدمي لا بطى صابر ينكرونه صحابة يوم رك الحال

لقد استطاع المحضار بعبقريته الشاعرية وحسه المرهف وصوته الجميل أن يسخر ذلك في تجديد ألحان (سواد) وهندستها، ويضع عليها مونتاجه، ويخرجها إلى جمهوره بقالب جديد منمق بالدرر المحضارية النفيسة، كأنها جاءت من موسيقار، عالم بفنون علم الموسيقى وأصولها، فالكلمات السابقة ما قيلت إلا على اللحن الشهير والتحفة المحضارية (يا زارعين العنب). ومن اشهر أغاني المحضار ذات النغمات السوادية الروائع الآتية:

(باشل حبك معي، خضر الوادي، بداية الهجران، شلنا يا أبوجناحين، بعد الوفاء، يلقي عسل، سلم ولو حتى بكف الإشارة، وغيرها الكثير).

لقد ظل المحضار حتى آخر أيامه يبحث عن ألحان دان الهبيش المميزة، ولا يتردد عندما يجد اللحن حتى من صديق بالصدفة، ومن أمثلة لحن الشاعر سعيد حمود الذي يقول عليه سالم سعيد باسباع (قريشن):

ياسعيد خبر عن كل واحد سأل عني
قل له السباعي لي يعرف البيك والرانه
بعض البضائع لدخلت السوق تتغرب
قدها مقالة الزين ما يتعب الدلال

ونختم ذلك بلحن للشاعر سعيد عمرو الغرابي الشهير بابن عسيمة؛ إذْ وضع عليه المحضار أغنيته المعروفة (الهوى يخرب مصانع)، وقد جاءت المساجلة الآتية على اللحن المذكور حين يقول ابن عسيمة:

حتى المعلم ضار نافع يخرب السترة ويبنيها
منقضي في حاجته ماله سنع في خضر ويباس

فأجابه ابن السبيتي:

دخل شاب قلب في البضائع من بغى نفسه يمنيها
لدراهم واجدة خذ لك بريشم من القرطاس

فأجابه المحضار:

جاءنا مهد ويقول فارع يعصب أصوابه ويخفيها
كل شعرة نابتة تشهد بدم تحتها ودحاس

وخلاصة الموضوع رقصة الهبيش حُبْلَى وغَنِيَّة بالألحان الجميلة والكلمات العذبة، وتحتاج لمن يستثمرها من الفنانين والشعراء والملحنين والمبدعين؛ لإخراجها من صورتها التقليدية إلى قوالب غنائية أجمل؛ حتى تنتشر، وتلاقي نصيبها من الشهرة، وقد أعجبني كثيرًا الفنان المبدع محفوظ محمد بن بريك في محاولته الناجحة عندما تغنَّى بلحن سواد، وقد اختار المساجلة التي يقول فيها المحضار:

خذتنا المحبة قال بن هاشم نا ما علي في العتب والملامة
كلين مع مال يسرح ويضوي له وأنا مالي المحبوب

ويقول عليه ابن السبيتي:

جليلة عضاء خطفت كما البارق بالسرج والمرشحة والصرامة
فيها التقاطيع الجميلة خيرٌ من مئة مزهوب

155
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

باكثير... ولحظة تأمل



أكرم أحمد باشكيل

المفكر والأديب الحضرمي/ علي أحمد باكثير يحتاج منا إلى إعادة قراءة متأنية لفكره ورؤيته للعالم؛ فهو في كل مكونه وإنتاجه المعرفي الغزير يحمل مشروع نهضة عربية إسلامية مستنيرة، لم يكتب له اكتمالات الولادة الطبيعية؛ بسبب الظروف الذاتية والموضوعية التي أحاطت به حينذاك..

حين تقرأ أعماله تحس نبض الصرخات المكبوتة، التي أراد أن يخرجها ليرى فيها تشكلات حلمه الكبير في وطن كان يحلم به بكل ما أفرزه من تصورات له، ينطلق من بؤرة دائرته الضيقة حضرموت إلى رحاب الجزيرة والعالم العربي، ومنها الى الكوني الإسلامي...

ما يمكن هنا أن نسديه من جميل وفاء لهذه الشخصية العبقرية الملهمة فكراً وأدبًا هو إعادة القراءة لهذا الفكر والأدب بشكل واع بما يمكننا أن نرى لهذا المكون الفكري حواضن جديدة، تتكامل مع الفعل التغييري بنور بصيرته المدوي منذ أمد معه ...

ليس لنا من سبيل إلا ما قد أطلقه هذا العلم الفكري التنويري من صرخات مدوية، يمكننا بها إعادة توازننا الى المربع الطبيعي لحياتنا الحقة، التي ظللنا نتخبط فيها منذ تلك الفترة، التي عاشها معنا فقيدنا الراحل... فهل أدرك باكثير خطورة المراحل القادمة، التي نعيشها نحن اليوم، بكل ما حملته من وعثاء الطرق وغثاء السياسة المتبلدة...؟!

الذي لم ندركه وأدركه المفكر والأديب باكثير في قراءته لواقعنا هو علاقتنا بالآخر، ومفرزاتها السلبية السيئة علينا، وما هو أمضى منها في تشظياتها المرتهن بالعدو الإسرائيلي وقضية القدس الشريف...

كل تلك البواعث والانكسارات التي وثقها باكثير فكراً وأدبًا هي مبعث استلهام لنا؛ للوقوف تأملاً عندها وفهمها فهماً صحيحًا، منطلقين مما هو حاصل بنا اليوم من إشكاليات لواقع، أقل ما يوصف بأنه مزرٍ، ولا أحدَ يتنبأ بالمطلق لمخرجاته ...

فهل وقفنا نحن أبناء جلدته مليًّا عند تحليل واقعنا من لدنه، منذ حقبة الستينيات من القرن المنصرم؟ الإجابة تحتاج منا إلى جهد جهيد لإعادة القراءة للإنتاج الفكري لهذا العلم الشامخ، والدعوة لكل ذي بصر وبصيرة لفعل ذلك؛ حتى يكون خيطنا ممدوداً بإرثه الفكري العظيم.



علي أحمد باكثير في صورة نادرة لم تنشر من قبل يكتب على شرفة منزله المطلة على النيل 134 بشارع عبدالعزيز آل سعود بمنيل الروضة

الصورة من أرشيف الدكتور محمد باحميد.

156
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م





صابر عبدالله بارشيد

على سطح أحد المنازل الصغيرة في أطراف مدينة المكلا، تجلس سيدة شابة في عقدها الثالث، وفي حِجرها طفلها الرضيع، أجبرها انقطاع التيار الكهربائي المستمر على الصعود للسطح، وعادة ما تفعل ذلك عند كل انقطاع، حرارة مرتفعة تجاوزت الأربعين درجة ورطوبة عالية، تغمرها الكآبة والحزن، صراخ طفلها يزيد الأمر سوءًا، تغني له وتناغيه أحيانًا ليسكت، وترضعه أحيانًا أخرى.

وحيدة لا أنيس لها سوى طفلها والذكريات، تنظر للأفق، تتذكر زوجها الشهيد، زوجها الذي أحبها كثيرًا وأحبَّته، والذي غادرها إلى الدار الأخرى بعد عام واحد من زواجهما.

تنسدل دمعتان على وجنتيها، تحتضن الطفل بشدة، يكاد قلبها ينفجر حزنًا وشوقًا، ماذا تفعل؟! إنها مشيئة الله؛ فقد اختاره من بين كتيبة كاملة، كتيبة ذهبت لأداء الواجب، واجتثاث الإرهاب من جذوره في وادٍ ما.

– آهٍ ليته لم يذهب تقول السيدة وهي تنظر للسماء، ليته استمع إلى كلامي ولم يتركني. تنهمر دموع كثيرة على خديها، تمسح دموعها بوشاح طفلها الذي يغطيه، تنظر إلى الطفل بنظرات الرأفة والشفقة.

– لقد مات أبوك شهيدًا، أصابته رصاصة في قلبه، كان في الصف الأول يقاتل الإرهابيين بضراوة، أخبروني أنه مات ببسالة وشجاعة بالغتين يصرخ الطفل مجدَّدًا، تلقمُه ثديها علَّهُ يسكت، تعلم أنه ليس جائعًا، ولكن ما الحيلة؟! هي وحيدة ولا تستطيع أخذه إلى المستشفى، الوقت متأخر جدًا، وحرارة الطفل تزداد.

كما أنها لا تملك المال الكافي لعلاجه، فراتب زوجها الشهيد انقطع منذ ستة أشهر، ذهبت إلى مركز القيادة مرات عدَّة تسألهم عن سبب عدم صرف مرتب زوجها الشهيد الذي مات ببسالة بالغة في حد قولهم - ولكنهم وككل مرة يخبرونها أنه مجرد خلل في النظام، وسيتم إصلاحه قريبًا، المرة الأخيرة كانت عدوانية أكثر حين رمت منظفة السجائر على رأس أحد العساكر بعد أن نهرها وأخبرها أن راتبه مات أيضًا بموته، انهالت عليه بالدعوات، ووجهت كلماتها لمن لا تضيع عنده الحقوق وانصرفت باكية.

على بعد كيلومترين منها وبالتحديد في منتصف المدينة، يقيم أحد أفراد المنطقة الأثرياء زفاف ابنه، الألعاب النارية بألوانها المتعدِّدة تأخذ مساحة من السماء، العيارات النارية تخترق الأجواء، وتزيد من صخب المكان، وتذعر طفلها المسكين عند كل طلقة رصاص.

تراءى لها زفافها قبل عامين، وغاصت في تفاصيل تلك الليالي، كيف أتى عامر ليخطبها، وهي تنظر له من شرفة صغيرة أعلى المنزل، يستقبله والدها العجوز، ويدخله غرفة الضيوف، ارتسمت على محياها ابتسامة خفيفة وهي تتذكر أباها يسألها عما إذا كانت موافقة على الزواج من عامر، الذي يكبرها بخمس سنوات، فأجهشت بالبكاء، واحتضنته وسألته كيف سيعيش وليس له في الدنيا غيرها، لقد مات أبوها بعد أيام من زواجها، وبقيت يتيمة لا أحد لها سوى زوجها.

أضاءت الألعاب النارية السماء مرة أخرى كما لو أن الليل تحول نهارًا، تبادر إلى مخيلتها ليلة الدخلة وزوجها يزفها إلى بيته، كيف أمسك يديها بإحكام وقام يرقص معها، قامت لا شعوريًا تراقص الظلام، والطفل بين أحضانها، تتخيل الرقصة الأولى لها مع زوجها في تلك الليلة، يقطع صفو تلك اللحظات صراخ الطفل، فتعود إلى رشدها، وتجلس على ذلك الحصير المقدد المهترئ.

إنها الثانية بعد منتصف الليل، يصل العريس إلى بيته متوشِّحًا خنجرًا في خصره وبندقية على ظهره، ممسكًا يد عروسه، وكعادة هذه العائلة الثرية، يصعد العروس إلى سطح المنزل، ويطلق سراح ثلاثين رصاصة أسيرة من بندقيته، معتقًا رقابهن ومعطيًا لهن الحرية المطلقة، ثم يقفل راجعًا إلى عروسه بخيلاء كمن حقق انتصارًا عظيماً في معركة، مغلقًا على نفسه وزوجته القفص الذهبي.

حلَّقت تلك الرصاصات المنتشية بالحرية في الفضاء الواسع لفترة وجيزة كما هو مقدَّر لهن، يتفحصن الأرض بأعين متَّقدة يتطاير منها الشرر، ويبحثن عن مكان دافئ يُؤويهن، كانت المرأة هناك على السطح، صامدة كالجبل الذي أمامها، يتسرَّب الوسن إلى جفنيها، تقاوم النعاس بشدة، أما طفلها فقد غط في نوم عميق.

وضعته بجوارها بينما كانت تنتظر مجيءَ الكهرباء التي طال غيابها، وظلت كما هي، تدفع الحَرَّ والرطوبة عن طفلها بمروحة يدوية صغيرة تحركها يمنة ويسرة، إلى أن عادت الكهرباء أخيرًا بعد وقت امتد لأربع ساعات، منكسرة ذليلة لا تملك أعذارًا تبرِّر غيابها.

لم تتحرَّك الأم من مكانها، ولم تهرع إلى النزول بمجرد مجيءِ الكهرباء كما جرت العادة، حتى صار الليل كهلاً، ومر من الوقت ما يكفي ليستيقظ الطفل متعرّقًا، ويعلو بكاؤه ويزداد نحيبه ولا مجيب.

158
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م



الشعر*

شعر/ د . أبوبكر محسن الحامد

ينبع الشعر من ينابيع عمري،
فإذا الأرض كلّها خضراء!

كالتراتيل، يملأ الشعر أفقي،
فاسمعيني! وردِّدي أصداء!

كلمات لها التراتيل نهر، والكلام
الجميل: ظل وماء!

هاهنا الشعر كالعطور تفشى،
لبسته الأقمار والأضواء!

وهنا كيمياء مزج المعاني،
والمعاني، جمالها الكيمياء!

مزجت واقعًا، وحلماً، و"فانتازا"،
و"سريال" صاغها الشعراء!
وتماهى الزمان عصرًا فعصرا،
"كليوباترا" هنا! هنا "حواء"!

وهنا "عزة"، "كثير"، "جميل"،
"قيس ليلى". هنا الهوى "أسماء"!

* * *

يصدح الشعر! ينجلي! يتجلى!
رجع روح، ورعشة، ورواء!

فيه فيض، وفيه وحي، وهدي،
قبس من إلهنا وضياء!

نفخة في مسارب الروح تسري،
فإذا الروح كله "سيناء"!

كان نور الحياة في مهمه الليل،
فضاء، يسوقهن فضاء!

دك نور الهدى رواسي "سيناء"،
فـ"اخلع النعل"! واهدئي صحراء!

أنا أطلقته بلابل تشدو،
فحنين في شدوها أو بكاء!

صور فذة، تولد لحنا،
هكذا الشعر: صورة وغناء!

ساحرات الألفاظ! طوفي سمائي،
وارقصي من نشيدها يا سماء!

أنت في حفلة الحياة نشيد،
أنت في ذروة الخيال ابتداء!

* * *

في طريق الحياة أخطو وحيداً،
وحوالي تعصف الأرجاء!

لي قلب كم قلَّبَتْه الليالي،
صهرته الأرزاء والأنواء!

من ينابيع كل شعر أصيل،
يتغذّى وكل شعر غذاء!

أيها الشعر!
يا رفيق دروبي!
أنت زادي، إذ الدروب خواء!

كم تشتت بي. وكم لملمتني،
منك،
تلك القصيدة العصماء!

* * *

كسحاب تراكم الشعر حولي،
فإذا الأفق ممطر، معطاء!

فيه برق، وفيه رعد وقصف،
وربتْ بعده الدنى زهراء!

يطلع الشعر كالليالي ببدر،
فإذا ليلة الحزين اختفاء!

يا شراعًا! يتيه فكرًا، وبعدا،
والمتاهات فكرة عنقاء!

نخبط العمر نحوها، وهي لغز،
رُبَّ ساعٍ، مآله الإرساء!

كل واد نهيم فيه ولكن،
ننتهي ها هناك! تلك: "كداء"!

حيث حسان واقفًا يا رسولي:
"كأنّك قد خلقت كما تشاء"!

حيث نلقى "سعاد" والقلب يسعى،
"لسعاد"، بكوره والمساء!

هي "بانت" لكنها سوف تأتي،
رُبَّ نَاءٍ يطيب منه لقاء!

يا شراع الحياة! اجهدْتَ نفسي،
لمراس يكون فيه العزاء!
كل بحر خبرته. كل غور سبرته.
فإلام أنتهي يا بحور؟!
يا أفياء!

* إحدى القصائد الفائزة في مسابقة الشعر، صحيفة عدن ٢٤، عام ٢٠١٧م.

159
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

تفاحة



أ.د. عمر علوي بن شهاب

هاكَ تفَّاحةً نقتسمها وخُذْ كلَّ نصفي
ثمَّ خذ ما تشاءُ ودَعْ كلَّ حرصي وخوفي
أرتشف قطراتِ غمامِ حناني وعطفي
لكَ ما تشتهي من ضرورات نحوي وصرفي
أنتَ تبدو بكلِّ نصوصي كأحرف عطفي
بلْ على السَّطحِ يا كل مستبطن لي ومخفي
من لآل مشاعر حبِّك شكَّلتْ حرفي
جئت ترفع ما بعد سبع السَّموات سقفي
عن سوى عطرك السِّحر ذلكَ طهرت أنفي
ذاكَ بعض شذى عرفك المتغلغل عالج نزفي
لا أريدك تسمعني أبدًا قول يكفي
لم أمد بعد ربيِّ لغيرك حاشاي كفى
وعليك سدلتُ ستارًا بأعماق جوفي
خذْ حياتي ولامسْ بكتفك كتفي
خذْ كياني وآذن يزورك في الحلم طيفي
قد نذرتُ لك العمر حبست للحب وقفي
جئت دعني اتخَّذ في روابي حناياك كهفي
ثمَّ لا بأس إن بيمينك قررت حتفي
واحدًا ستظلُّ كما حثَّ ديني وعرفي
وبأمرٍ من الله دمت لكلِّ جراحي تشفي
لا تدعني فأنتَ الهوى سَلَفيٌّ وصوفي
وسيغلب كلَّ الظُّروف المعيقة ظرفي
لغةً لك صمَّمتها من أفانين لطفي
في لحونِ هواك تألق إبداع عزفي
فلتضئْ غرفَ القلبِ حتَّام حتَّام تطفي
دمت لي يا حبيبي بكل خلاياي في في
دمت يا بهجتي في المدينة يا بدرَ ريفي
كلذيذ القوافي تعبق ما عشتُ في في
أنت مائي غذائي هوائي لَوْني وعرفي
وستبقى يميني شمالي أمامي وخلفي
بل وصيف شتائي وأنت الشِّتاء لصيفي
يا جميل انسياب تدفق منِّي أوفي
وليغب من يشاء فحسبي تملأ صفِّي

160
العدد (24 - 25) ابريل سبتمبر 2022م



شوق

في ١٣٩٨ هـ سافر العم حسين بن شيخ بن عمر باحميد لأداء فريضة الحج، وكنت عازمًا على مرافقته لأداء فريضة الحج، ولكني أُصبْتُ قبيل السفر بحمى شديدة أعاقتني عن السفر، وسافر وأنا في حالة مؤثرة، ولم أستطع أن أودِّعه، ولم يكد يخرج من عندي وأنا على فراشي حتى كتبت هذه الزفرة:



شعر:

سالم بن زين باحميد

(رحمه الله)

سار الحجيج وقلبي كله ألم ... والجسم تأكله الأمراض في سقم
الشوق يعصف بي والضعف يقعد بي ... ويمضي العمر في شوق إلى الحرم
والأمنيات بعيدات فَوَا لهفي ... أُوَّاهُ قد لفَّها داج من الظلم
ولىَّ الشباب فَوَا لهفي وَوَا أسفي ... على زمان تولى صيب الديم
كنا نعيش على حب وفي دعة ... وفي سرور ودهر جاد بالنعم
حتى أتتْنا عجاف أقبلت جمحا ... وثبا أتتنا، كأني كنت في حلم
الأربعون تجر الخمس مثقلة ... بالهم بالحزن بالإرهاق بالألم
لا كان عيش بلا حب بلا أمل ... لا كان عمر بلا شوق إلى القمم
والنفس تطمح والأسباب عاجزة ... لكن ظني برب الخلق لم يرم
أرجوك ربي تنير الدرب تشملني ... بفيض جودك يا غوثي ومعتصمي
إليك يا سندي ربَّاه يا أملي ... أرد طرفي وأرجو العفو في ندم
جد لي بما شئت في عيشي وآخرتي ... كن لي إلهي معينًا إن هوت قدمي
وأختم حياتي بتوفيق وأمنية ... أرجوك تحقيقها يا واسع الكرم
والهاشمي حبيبي رب يشفع لي ... وجد إلهي لنا بالخير في القسم

161
العدد
(24 - 25)
ابريل
سبتمبر
2022م

"قتِل تحت حصن"



أ. د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

يؤشر نص هذه المقولة في ظاهره إلى الدعوة للقتل من خلال فعل الأمر (قَتِل) المحذوف عنه حرف الألف للتخفيف، وأحيانًا تتردد المقولة ذاتها بنص محايد "مُت تحت حصن"، وهو أقرب إلى روح المقولة التي تحثُّ في جوهرها على أن يضع المرء نفسه في أماكن الشرف، والبطولة، ويبعدها عن أماكن الشبهة والخنوع، والتحديد المكاني للنص (تحت حصن) - غالبًا - افتراضيٌّ، وسواء مات المرء أو قتل داخل الحصن أو تحته فالأصل دلالة الفعل، ورمزية المكان بوصفه قلعة حربية، وساحة من ساحات الوغى، ترتبط بقواعد الاشتباك في البر قبل ظهور قواعد الاشتباك في الجو الذي أنهى كبرياء الحصون عبر التاريخ، لكنها حافظت على ثباتها في المأثورات الشعبية.

وفي الثقافات المحلية للشعوب تتزاحم الأمثلة، والحِكم، والمقولات لتقديم الإضاءات المفيدة، التي تدعم السلوك القويم، ومنها ما يشتغل بالانهزامية والمواقف السلبية، ولا يمثل هذا حالة تناقض في شخصية المجتمعات لاسيما إذا قرأت في سياقاتها وأبعادها الاجتماعية فمثلا يقول الحضارمة: "**مُت تحت حصن**" مقابلها يقولون: "**من خاف سلم**"، النص الأول يدعو إلى الصمود، والثاني يلمح إلى الفرار، وهناك صيغة تلطيفية موازية أو مقاربة بقولهم: "**الحذر ولا الشجاعة**"، ولكل مقال مقام يختار توقيته الأفراد بحسب مشاعرهم اللحظية، وتقديراتهم الخاصة، وهناك عشرات النماذج على ما فيها من التضاد، والتنافر فإنها في مجملها تمثل حالة واحدة لمجتمع يختزل تجاربه فيها، وهو يبحث في ذاته للخروج من سبيل.

لكن ما في داخل حضرموت ليس كما في خارجها، ففي مواطن الهجرة يتزوَّد الحضارمة على اختلاف فئاتهم الاجتماعية بمجموعة من النصائح الاستسلامية أو المهادنة، التي تدخل ضمن ثقافة الهجرة، مثل: "**يا غريب قع أديب**"، و"**كل قرصك وادخل خلصك**"، و"**قع نملة تأكل سكر**"، ولتفاعل الحضارمة المرن مع هذه المقولات في مواطن مهاجرهم شكلوا ما يشبه الظاهرة السلوكية الوديعة المميزة، لهذا تكوَّنت لدى الآخر صورة نمطية بأنهم مخلوقات مسالمة، ولعلهم أنفسهم سوَّقوا هذه الصورة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بحيث يتمكنون من العيش بسلاسة في بلاد الناس.

ولو مضينا مع مقاربات التاريخ بصحبة هذه المقولة (قتِل تحت حصن)، التي تشتغل في بعض أبعادها على ثنائية (الصمود - الموت) مهما كانت كفة المعادلة، والخسائر المتوقعة سنجد - على سبيل المثال - في مواجهة جيش سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما)



مع الجيش الأموي مقاربة تستحق الإشارة، فكانت الكفة بين الطرفين ليست لصالح الحسين، خاصة بعد أن تخلى عنه ممَّن تعهدوا له بالنصرة، لهذا خَيرّ من بقي من أنصاره بواقعية سياسية بين البقاء، أو الانسحاب دون تثريب، وثبت معه فقط أهل بيته، وقلة من مؤيديه، الذين تجاوزوا معه بموقفهم معايير المواجهة المرتبطة عادة بثنائية (نصر – هزيمة) إلى رفض الاستسلام المذل، والانحياز مع القيم الخلقية الرفيعة وما تستحقه من تضحية، فكانت الهزيمة المتوقعة، لكن التاريخ خلّد قصة صمود الحسين، وكتب له في الأضابير نصراً معنويًا مؤزَّراً مستمراً مقابل خسارة في معركة عابرة.

هذه الأمثلة التاريخية التي نوردها في هذا المقال تركز على رمزيات المواقف لا على تفاصيل التاريخ التي يتفق الناس حولها، ويختلفون، وإذا ضربنا مثلاً ببغداد المعاصرة نجدها خُيرِّت في عهد الرئيس الراحل صدام حسين في ٢٠٠٣م بين الصمود والاستسلام، كان العراق وحده في الميدان يقابله تحالف دولي من دول عربية، ودول شرقية، وغربية، بعتاد وعدة لا قبل للعراق المحاصر التصدي لها، لكن الرئيس صدام حسين اختار المقاومة وقال مقولته الشهيرة: **"إن بغداد مصممة على هزيمة الأعداء على أسوارها"**، وما لم يكن في حسابه أو لعله هوّن من خطورته هو أن بغداد تفكّكت حصونها، واهتزت أركانها، وتكسرت أسوارها، بمغامراته العسكرية التي لم يفكر في تبعاتها برويّة، وكانت حصيلتها ثماني سنوات حرب ضد إيران، وثلاث عشرة سنة حصار دولي خانق، وفي تقديري كانت هذه المغامرات خطيئة الرئيس العراقي التاريخية الكبرى، وإذا كان الحسين في معركة كربلاء دخل ملحمته وهو يرى جدَّه خلفه، والنصر المستقبلي أمامه، فإن الرئيس العراقي الذي خسر مساندة الصديق القريب قبل البعيد خاض غمار (الهزيمة) بأمل أن يخفف عن نفسه (لوم التاريخ)، وربما استحضر في مخيَّلته قصة تسليم بغداد للتتار سنة ١٢٥٨م، وكيف فعلوا فيها الأفاعيل.

ومن الشواهد التاريخية لمن اختاروا عدم الصمود، وفتحوا الحصون للغزاة نجدها في حاكم مدينة غرناطة (الأندلسية)، الذي وافق على تسليم مدينته عام ١٤٩٢م (للأسبان) مقابل الأمان له، وللرعية لكن الغزاة أو الفاتحين نكثوا بالعهود، وارتكبوا أبشع المجازر بحق المسلمين فيها، وكان حاكمها (محمد بن علي بني الأحمر) قد غادر مملكته بحسرة وندم، ودموع خلّدتها والدته بعبارتها الشهيرة: **"ابْكِ كالنساء ملكًا لم تحافظ عليه كالرجال"**، وعند المقاربة التاريخية بين مدينتي (بغداد وغرناطة) نجدهما كانتا على موعد مع السقوط، لكن بغداد حصلت على شرف المحاولة، وحصدت غرناطة الدموع المستمرة.

في عام ١٦٥٩م خُيرِّ السلطان بدر بن عبدالله الكثيري بين المقاومة أو الاستسلام عندما تواجه جيشه في منطقة بحران (بوادي حضرموت) مع جيش الدولة القاسمية اليمنية فاختار الصمود، على خلاف نصيحة الناصحين له، وفي مثل هذه المواقف عادة تسجل مصادر التاريخ المعاصرة كلمات اللوم لمن حاول الثبات في معركة تبدو خاسرة، لكن (الصامدون تحت الحصون) غالبًا ما تنصفهم الأدبيات التاريخية اللاحقة، وتُعلي من شأنهم.

في الصراع الدموي بين البشر لا مكانَ عزيزَ للضعفاء، لهذا يتفق (المقاومون) على إنتاج المقولات التي تشجع على الثبات، وتمجد المواقف البطولية، فتتناقلها الأجيال بفخر، وهي تبحث عن ذاتها، وكبريائها الذي تجد بعضه مكنونًا تحت حصونها.

مركز حضرموت للدراسات التاريخيه والتوثيق والنشر

إعلان ندوة علمية

يعلن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر بالشراكة مع كلية الآداب بجامعة حضرموت عن تنظيم ندوة علمية بعنوان:

التأثيرات الحضارية الهندية في حضرموت

المكلا – قاعة الدراسات العليا بكلية الآداب – 2022/11/17م

إن إطلالة حضرمـــوت على المحيط الهندي عبر البحر العربي ســـهل اتصالها مع القاطنين في حوض هذا المحيط، وعزز من ذلك ثقافة بحريـــة وخبرات ملاحية وصلات تجارية ودينية. وتعد الســـواحل الغربية الهندية إحدى أهم محطات الحضارمة التجارية فمن خلال الاحتكاك المتبادل نقلت حضرمـــوت بعضاً من ملامحها الثقافيـــة كما نقلت الهند بعمقهـــا التاريخي بعضاً من مفرداتها الثقافية فتشكلت بذلك فسيفساء إنسانية وحضارية مشتركة ما يزال بريقها يشع في مدن حضرموت ويشهد عليها.

المحاور

❶ التأثيرات الثقافية والفنية:

- في العمارة الحضرمية.
- في اللهجة المحلية.
- فـــي الغنـــاء والآلات الموسيقية.
- في الشـــعر والأمثلة المحلية.

❷ التأثيرات الاقتصادية

- الوكالات التجارية.
- الحرف.

❸ التأثيرات الاجتماعية

- في الأزياء الرســـمية والمحلية.
- في الأكلات الشعبية.
- شـــخصيات هنديـــة عابرة ومستقرة.

شروط المشاركة

- أن يمتاز البحث بالجدية والرصانة.
- ألاّ تزيد صفحات البحث عن 30 صفحة A4 بخط Simple File Arabic حجم16.
- أن يقدم البحث في ملف Word، ولايقبل البحث بصيغة PDF.
- إرسال البحوث على الواتساب رقم: 776017491



بمناسبة

الذكرى الخمسمائة للمقاومة الشعبية

ضد الغزو البرتغالي على مدينة الشحر في 28/فبراير/ 2023 م

يعلن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر عن إقامة ندوة علمية بعنوان:

المقاومة الشعبية في مدينة الشحر

تجاه الاعتداءات البرتغالية في القرن الـ 16 الميلادي

محاور الندوة

1. مدينة الشحر في القرن السادس عشر الميلادي:
   - وصف المدينة.
   - السكان والأعلام.
   - الحكام.
   - التجارة والملاحة البحرية.
2. ظهور البرتغاليين في السواحل العربية الجنوبية:
   - الأطماع البرتغالية والطموحات العثمانية.
   - الاعتداءات البرتغالية على الموانئ العربية الجنوبية.
3. الغزو البرتغالي على مدينة الشحر:
   - الشحر قبل الغزو.
   - ملحمة المقاومة الشعبية.
   - البرتغاليون في المصادر المحلية والعربية والأجنبية.

شروط المشاركة

- أن يكون موضوع البحث مطابقاً لمحاور الندوة.
- أن يمتاز البحث بالأصالة وسلامة المنهج العلمي.
- أن يمتاز البحث بخلاصة مبتكرة تدل على الغاية المرجوة منه.
- ألاّ يكون البحث قد سبق نشره أو قدم للنشر في مجلة، أو قدم للمشاركة في ندوة أو مؤتمر آخر.
- آخر موعد لاستلام عنوان البحث وملخصه (25 نوفمبر 2022م).
- يسلم البحث كاملاً ومستوفيا شروط المشاركة في (25يناير 2023م)
- ألاّ يقل عدد صفحات البحث عن 20 صفحة ولا يتجاوز 30 صفحة.
- أن يرتقي البحث بلغته العربية من حيث الأسلوب وقواعد النحو.
- أن يكتب البحث بخط حجمه 16 وحجم خط الهامش 14 ونوع الخط Simplified Arabic
- ترسل جميع المراسلات الخاصة بالندوة عبر البريد الالكتروني: hadcenter1@gmail.com
- ترسل الأبحاث كاملة بصيغة word وبصيغة pdf مشفوعة بالسيرة الذاتية ومذيلة بعنوان الباحث ورقم هاتفه وبريده الالكتروني.
- يتكفل المركز بتكاليف الإقامة والإعاشة والمواصلات الداخلية مدة يوم الندوة.
- للاستفسار يرجى زيارة صفحة مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر على مواقع التواصل الاجتماعي، أو الاتصال على الأرقام الآتية: 772570159